

البركة

للإمام البوصيري

شَرَحَ شيخ الإسلام
الشيخ إبراهيم الباجوري

ضبطها وعلق عليها
الشيخ عبد الرحمن حسن محمود

مكتبة الآداب

٤٩ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٣٩٠٠٨٦٨



سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّي
قُلُوبُ الْبَشَرِ كَقُلُوبِ الْبَقَرِ

- أَمِنْ تَذَكُّرُ حَيْرَانٍ بِذِي سَلَامٍ مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ ①
- أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْكَاءٍ كَاظِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِضْمٍ ②
- فَمَا لَعَيْنُكَ إِنْ قُلْتَ أَكْفُفَاهُمَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهْرَبُ ③
- أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مِنْكُمْ ④ مَا بَيْنَ مَنْسُجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمٍ ⑤
- لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرَقِّ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ وَلَا أَرَقْتَ لِذِكْرِ الْبَانَ وَالْعَالَمِ ⑥
- وَلَا أَعَاذَكَ لَوْ تَى عِبْرَةٍ وَضَنَى ذِكْرَى الْخِيَامِ وَذِكْرَى سَاكِنَى الْحَيْمِ ⑦
- فَكَيْفَ تَنْكُرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَيْكَ عُذُولَ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ ⑧

- وَأَثَبْتُ الْوَجْدَ خَطِيءَ عِبْرَةٍ وَخَصَنِي ⑧
مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَيْكَ وَالْعَمِّ
نَعْمَ سَرَى طَيْفٌ مِنْ أَهْوَى قَارِقِي ⑨
وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ
يَا لَأَمِّي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيَّ مَعْدَرَةٌ ⑩
عَدْتُكَ حَالِي لِاسْرِي بِمُسْتَتِيرٍ
مُحْضَتِي لِنُصْحٍ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ ⑪
إِنِّي أَهْمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلٍ
وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نَصِيحٍ مِنْ أَلَمٍ ⑫
فَإِنَّمَا رَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظْتُ
مِنْ جَهْلِيهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَمِّ ⑬
وَلَا أَعَدْتُ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قَرَى ⑭
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أَوْفَرُهُ
مَنْ لِي بِرَدِّ جَمَاحٍ مِنْ غَوَايِيهَا ⑮
فَلَا تَرَمُ بِالْمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَنِيهَا
تَكَايُرُ دُجَاهِ الْخَيْلِ بِاللَّجَمِ ⑯
إِنَّ الطَّعَامَ يَقْوِي شَهْوَةَ الْهَمِّ ⑰
وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ هَمَّ لَهُ شَبَّ عَلَى ⑱
حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّعَتْ نَفْطُهُ

فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَازِرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ
 إِنَّ الْهَوَىٰ مَا تَوَلَّى يَصِمْ أَوْ يَصِمْ ٢٠
 وَرَاعِهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ
 وَإِنَّ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعىَ فَلَا تَسِمْ ٢١
 كَمْ حَسَنَتْ لَذَّةَ الْمَرْءِ قَاتِلَةً
 مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدِرْ أَنَّ السَّمَّ فِي الدَّمِّ ٢٢
 وَأَخْشَى الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَيْعٍ
 فَرُبَّ مَخْصِيَةٍ شَرٍّ مِنْ الثُّجَمِ ٢٣
 وَاسْتَفْرِغِ الدَّمَعَ مِنْ عَيْنٍ قَدْ اْمْتَلَأَتْ
 مِنَ الْمَحَارِمِ وَالزَّفْرِ حِمَاةَ السَّدَمِ ٢٤
 وَخَالَفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعِصِمَا
 وَإِنَّهُمَا مُحْضَاكُ النَّصْحِ فَأَتَرِمْ ٢٥
 وَلَا تُطْعِمْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلَا حَكَمًا
 فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصَمِ وَالْحَكَمِ ٢٦
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِإِلَاعَمَلٍ
 لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلًا لِيذِي عُقْمٍ ٢٧
 أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ
 وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ ٢٨
 وَلَا تَزِدْ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً
 وَلَوْ أَصَلَ سَيِّئٌ فَرِيضٌ وَلَمْ أَصِمْ ٢٩
 ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَيَّ
 أَنْ اِشْتَكْتَ قَدَمَاهُ الضَّرْمَ مِنْ وَرَمِ ٣٠
 وَشَدَّ مِنْ سَعَبِ أَحْشَاءِهِ وَطَوَى
 تَحْتَ الْحَجَارَةِ كَشْحًا مُتَرَفٍ الْأَدَمِ ٣١

- وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ
عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمٍ ٣٧
- وَأَكَدَتْ زَهْدَهُ فِيهَا ضُرُورَتُهُ
إِنَّ الصُّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ ٣٨
- وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضُرُورَتُهُ
لَوْلَاهُ لَمْ تُخْجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ ٣٩
- مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَافِرِينَ وَالْقَلِيلِينَ
وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ ٤٠
- نَبِيُّنَا الْأَمْرُ النَّاهِي فَلَا أَحَدٌ
أَبْرَفِي قَوْلٍ لَامِنُهُ وَلَا نَعَمِ ٤١
- هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرَجَى شَفَاعَتُهُ
لِكُلِّ هَوَلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مُقْتَحِمِ ٤٢
- دَعَا إِلَى اللَّهِ فَالْمُسْتَسْكُونَ بِهِ
مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلِ غَيْرِ مُنْقِصِ ٤٣
- فَاقِ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ
وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمِ ٤٤
- وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ
غُرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ شِفَاءً مِنَ الدَّيَمِ ٤٥
- وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمْ
مِنْ نَقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحَكَمِ ٤٦
- فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ
ثُمَّ أَصْطَفَاهُ حَبِيبًا بَارِئُ الشِّمِ ٤٧
- مَنْزَهُ عَنْ شَرِيكِ فِي مَحَاسِنِهِ
فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ ٤٨

دَعَا مَا دَعَتْهُ النَّصَايَ فِيهِمْ
 وَأَحْكَمَ بِمَا شِئْتَ مَذْحَافِهِ وَأَحْكَمَ
 وَأَنْسَبَ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ
 وَأَنْسَبَ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عَظَمٍ
 فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ
 حَدٌّ قَيْعَرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفِيهِمْ
 لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرُهُ آيَاتُهُ عِظَمًا
 لَمْ يَمْتَحِنَا بِمَا تَعَيَّا الْعُقُولُ بِهِ
 أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِ السَّالِمِ
 خِرَاصًا عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَوْ نَرَى
 أَعْيَا الْوَرَى فَهُمْ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ
 فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُتَّفَعٍ
 كَالشَّمْسِ تَطْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعْدٍ
 صَغِيرَةٍ وَتَكِلُ الطُّفُوفَ مِنْ أَمَمٍ
 وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ
 قَوْمُنِيَا مَسْلُوعًا عَنْهُ بِالْحُلَامِ
 فَبَلَغَ الْعَالَمُ فِيهِ أَنْتَهُ بَشَرٌ
 وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
 وَكُلُّ أَيِّ أَتَى الرَّسُولُ الْكَرَامِ بِهَا
 فَاتِّمَّا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمْ
 فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا
 يُطْهِرُ مِنْ أَنْوَارِهَا النَّاسَ فِي الظُّلُمِ
 أَكْرَمَ مَخْلُوقِ نَبِيِّ زَانَهُ خُلُقٍ
 بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالْبَشَرِ مُسَمِّمٍ

كَالزَّهْرِ فِي تَرْفٍ وَالْبَدْرِ فِي شَرْفٍ
 كَأَنَّهُ وَهَّوْفَرْدٌ مِنْ جَلَالَتِهِ
 كَأَنَّمَا الْأَوَّلُ الْمَكُونُ فِي صَدَفٍ
 لَا طِيبَ يَبْدُلُ تُرْبًا ضَمَّ أَعْظَمَهُ
 أَبَانَ مَوْلَاهُ عَنْ طِيبٍ غَضْرِهِ
 يَوْمَ تَفَسَّرَ فِيهِ الْفَرَسُ أَنَّهُمْ
 وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَهُوَ مُنْصَدِعٌ
 وَالنَّارُ خَامِدَةٌ الْأَنْفَاسِ مِنْ أَسْفٍ
 وَسَاءَ سَاوَةٌ أَنْ عَاظَتْ بِحَيْرَتِهَا
 كَأَنَّ النَّارَ مَا بِالْمَاءِ مِنْ بَلَلٍ
 وَالْجَنُّ تَهْنِفُ وَالْأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ
 عُمُوا وَصَمُّوا فَأَعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ
 وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالذَّهْرِ فِي هِمَمٍ
 فِي عَسْكَرٍ حِينَ نَلْفَاهُ فِي حَشَمٍ
 مِنْ مَعْدِنٍ مَنَاطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَلَمٍ
 طُوبَى لِمَنْ تَشَقَّى مِنْهُ وَمُلْتَمٍ
 يَا طِيبَ مُفْتَتِحٍ مِنْهُ وَمُخْتَمٍ
 قَدْ أَنْذَرُوا بِجُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنِّقَمِ
 كَشَمَلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرِ مُلْتَمٍ
 عَلَيْهِ وَالتَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمٍ
 وَرَدَّ وَارِدُهَا بِالْغَيْظِ حِينَ ظَمَى
 حُرْنَا وَبِالْمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ خَرَمٍ
 وَالْحَقُّ يُظْهِرُ مِنْ مَعْنَى وَمِنْ كَلَمٍ
 تَسْمَعُ وَبَارِقُهُ الْإِنْدَارِ لَمْ تُشْمِ

مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَا الْقَوَامَ كَاهِنُهُمْ
 وَبَعْدَ مَا عَاينُوا فِي الْأَفَقِ مِنْ شُرْبٍ
 حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ مُنْهَزِمٌ
 كَانَتْهُمْ هَرَبًا أَبْطَالَ أِبْرَهَةَ
 نَبَذَ بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحٍ بِطَنِهِمَا
 جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً
 كَأَنَّمَا سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ
 مِثْلَ الْغَمَامَةِ أَنَّى سَارَ سَائِرَةٌ
 أَقْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنْشَقِّ إِنَّ لَهُ
 وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ
 قَالِ الصِّدْقُ فِي الْغَارِ وَالصِّدْقُ لَمْ يَرِمَا
 ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى
 بَانَ دِينَ لَهُمُ الْمَعُوجَ لَمْ يَقِيمِ
 مُنْقَضَةً وَفَقَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَمٍ
 مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُوا إِثْرَ مُنْهَزِمٍ
 أَوْ عَسْكَرٍ بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتِهِ دُمَى
 نَبَذَ الْمُسَبِّحُ مِنْ أَحْشَاءِ مُلْتَمِعٍ
 تَمْشَى إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلَا قَدَمٍ
 فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِاللَّحْمِ
 تَقِيهِ حَرَّ وَطَيْسٍ لِلْهَجِيرِ حَمَى
 مِنْ قَلْبِهِ نُسْبَةٌ مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ
 وَكُلُّ طَرَفٍ مِنَ الْكَاهِنِ رَعْنُهُ عَمَى
 وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمٍ
 خَيْرُ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَوْ تَحَمَى

وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ
 مَا ضَامَنِي الدَّهْرُ يَوْمًا وَاسْتَحَرَّتْ بِهِ
 وَلَا التَّمَسُّتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ
 لَا تَنْكَرُ لَوْحِي مِنْ رُؤْيَاهُ إِنَّ لَهُ
 وَذَاكَ حِينَ بُلُوغٍ مِنْ نُبُوَّتِهِ
 تَبَارَكَ اللَّهُ مَا وَحَى بِمِ كَتَسَبِ
 كَمَا بَرَأَتْ وَصِيًّا بِاللَّمْسِ رَاحَتُهُ
 وَأُحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ دَعْوَتُهُ
 بِعَارِضٍ جَادٍ أَوْخِلَتْ الْبَطَاحَ بِهَا
 دَعْنِي وَوَصْنِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ
 فَالْدُرُّ يَزِيدُ دَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْظَمٌ
 فَمَا تَطَاوُلَ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى
 مِنَ الدُّرُوجِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأَطْلَمِ
 إِلَّا وَنِلْتُ جَوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضِمِ
 إِلَّا اسْتَلَمْتُ لِنَدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ
 قَلْبًا إِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَسِمْ
 فَلَيْسَ يُنْكَرُ فِيهِ حَالُ مُحْتَايِمِ
 وَلَا نَبِيٍّ عَلَى غَيْبٍ بِمِثْلِهِمْ
 وَأَطْلَقَتْ أَرْبَابًا مِنْ رِيقَةِ اللَّيْمِ
 حَتَّى حَكَتْ غُرْمٌ فِي الْأَعْطَرِ الدَّهْمِ
 سَيِّبٌ مِنَ الْيَمِّ أَوْ سَيْلٌ مِنَ الْعَرَمِ
 ظُهُورًا نَارِ الْقَوَى لَيْلًا عَلَى عِلْمِ
 وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدَرًا غَيْرُ مُنْظَمِ
 مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ

- آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ ٩٢
قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمُوصُوفِ بِالْقَدَمِ
- لَوْ تَقَرَّرَنَ بِيَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا ٩٣
عَنِ الْمَعَادِ وَعَنِ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ
- دَامَتْ لَدَيْنَا فَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ ٩٤
مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَوْ تَدُمُ
- مُحْكَمَاتٌ فَمَا تَبْقِيَانِ مِنْ شُكٍّ ٩٥
لِذِي شِقَاقٍ وَمَا تَبْعِيَانِ مِنْ حَكَمِ
- مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرْبٍ ٩٦
أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقَى السَّامِ
- رَدَّتْ بِلَاغَتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا ٩٧
رَدَّ الْغَيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحَرَمِ
- لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ ٩٨
وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيمِ
- فَلَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا ٩٩
وَلَا تُسَامَرُ عَلَى الْإِكْتَارِ بِالسَّامِ
- قَرَّبَتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ ١٠٠
لَقَدْ ظَهَرَتْ بِحَبْلِ اللَّهِ فَاغْصِمِ
- إِنْ سَأَلَهَا خَيْفَةً مِنْ حَرِّ نَارٍ لَطَى ١٠١
أَطْفَاتُ نَارٍ لَطَى مِنْ وَرْدِهَا الشَّيْمِ
- كَأَنَّهَا الْحَوْضُ تَبْيَضُّ الْوُجُوهُ بِهِ ١٠٢
مِنَ الْعُصَاةِ وَقَدْ جَاءَ وَهُوَ كَالْحَمِيمِ
- وَكَا الصَّرَاطِ وَكَالْمِيزَانِ مَعْدَلَةٌ ١٠٣
فَالْفِطْرُ مِنْ غَيْرِهَا فِي النَّاسِ لَمْ يَقِيمِ

لَا تَعْجَبَنَّ لِحَسُودٍ رَاحَ يُنْكِرُهَا
تَجَاهُلًا وَهُوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ الْفَهِيمِ ١٠٤
قَدْ تَنَكَّرَ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَهْدٍ
وَيُنْكِرُ الْقَمُّ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ ١٠٥
يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّ الْعَافُونَ سَاحَتَهُ
سَعْيًا وَفَوْقَ مَتُونِ الْإِنْبِيَّ الرَّسَمِ ١٠٦
وَمَنْ هُوَ الْآيَةُ الْكُبْرَى الْمُعْتَبَرِ
وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ الْعُظْمَى الْمُغْتَمِ ١٠٧
سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لِيلاً إِلَى حَرَمٍ
كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاخٍ مِنَ الظُّلَمِ ١٠٨
وَبِتَّ تَرْفُقُ إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً
مَنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تُرَمِ ١٠٩
وَقَدَّمَكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا
وَالرُّسُلُ تَقْدِيمُ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ ١١٠
وَأَنْتَ تَخْنُقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ بِرِيمٍ
فِي مَوَكِّي كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعِلْمِ ١١١
حَتَّى ذَا الْمَتَلَعِ شَأْوَ الْمُسْتَبِقِ
مَنْ الدُّنْيَا وَلَا مَرَقَى الْمُسْتَتِمِ ١١٢
خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِذَا
نُودِيَتْ بِالرُّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرِغِ الْعَلِمِ ١١٣
كَيْمَا تَقْوُزَ بَوْصِلِ أَيِّ مُسْتَتِرٍ
عَنِ الْعُيُونِ وَسِرَّائِي مُكْتَتِمِ ١١٤
فَخَرَّتْ كُلُّ فَخَارٍ غَيْرِ مُشْتَرِكٍ
وَجَزَتْ كُلُّ مَقَامٍ غَيْرِ مُزْدَحِمِ ١١٥

وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا أُوتِيَتْ مِنْ رُبِّهِ ۖ
 بَشِّرْهُ لَنَا مَعَشَرَ الْإِسْلَامِ إِنَّ لَنَا
 لَمَّا دَعَا اللَّهَ دَاعِيَنَا لَطِيعَتِهِ
 رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءُ بَعْثِهِ
 مَا زَالَ يَلْقَاهُمْ فِي كُلِّ مَعْتَرِكٍ
 وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يُغِيْطُونَ بِهِ
 تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَدْرُونَ عِدَّتَهَا
 كَأَنَّمَا الَّذِينَ ضُفِفَ حُلُوسَاتُهُمْ
 يُجْرُّ بِحَرَخٍ لَيْسَ فَوْقَ سَابِجَةٍ
 مِنْ كُلِّ مُنْدَبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ
 حَتَّى عَدَّتْ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ وَهِيَ حَيَّةٌ
 مَكْهُولَةٌ أَبَدًا مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَرْبَابٍ
 وَعَتَرٌ إِدْرَاكَ مَا أُوتِيَتْ مِنْ نَعِيمٍ ۖ
 مِنَ الْعِنَايَةِ دُكْنَا عَيْمَهُ سَلِيمٍ ۖ
 بِأَكْرَمِ الرُّسُلِ كَمَا أَكْرَمَ الْأُمَمِ ۖ
 كَتَبْنَا لَهُ أَجْفَلَتْ عُقْلًا مِنَ النِّعَمِ ۖ
 حَتَّى حَكَّوْا بِالْقَنَاحِ عَلَى خُمٍ ۖ
 أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَلِخُمٍ ۖ
 مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الْأَشْهُرِ الْحُرَمِ ۖ
 بِكُلِّ قَرَمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَا قَرَمٍ ۖ
 يَرْمِي مَوْجَ مِنَ الْأَبْطَالِ مُلْتَطِمٍ ۖ
 لَيْسُ طَوْفُ مَسْتَأْصِلٍ لِلْكَفْرِ مُصْطَلِمٍ ۖ
 مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولُهُ الرِّجَمِ ۖ
 وَخَيْرٌ بَعْلٍ فَلَمْ تَلَيْتُمْ وَلَبَّيْتُمْ ۖ

هُمُ الْبِحَالُ قَسَلُ عَنْهُمْ مُصَادِمُهُمْ
 وَسَلُ حُنَيَّا وَسَلُ بَدْرًا وَسَلُ أَخْدًا
 الْمُصْدِرِي الْبَيْضُ حُمْرًا بَعْدَ مَا وَرَدَتْ
 وَالْكَابِتِينَ لِسِمْرِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ
 إِنَّ قَامَ فِي جَامِعِ الْهَيْجَاءِ خَاطِبُهُمْ
 شَاكِي السَّلَاحِ لَهُمْ سِيْمَا تَمَيَّزُهُمْ
 تُهْدِي لِيكَ رِيَا حُ النَّصْرِ نَشْرُهُمْ
 كَانَهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبَتْ رُبَا
 طَارَتْ قُلُوبُ لَعْدَا مِنْ بَأْسِهِمْ قَوْقَا
 وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ
 وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيِّ غَيْرِ مُنْتَصِرٍ
 أَحَلَّ أَمَّتُهُ فِي حِرْزِ مِلَّتِهِ
 مَا ذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُصْطَلَدِمٍ
 فُصُولُ حَتَفٍ لَهُمْ أَذْهَى مِنْ الْوَحْمِ
 مِنَ الْعِدَا كُلِّ مَسْوَدٍ مِنَ اللَّحْمِ
 أَقْلَامُهُمْ حَرْفُ جِسْمٍ غَيْرِ مُنْعَجِمٍ
 تَصَامَمَتْ عَنْهُ أَدْنَا صِهْرِ الصَّيْمِ
 وَالْوَرْدُ يَمْتَارُ بِالسَّيْمَا عَنْ السَّيْمِ
 فَتَحَسَّبُ الزَّهْرُ فِي الْأَكَامِ كُلِّ كَيْمٍ
 مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحُزْمِ
 فَأَفْزَقَ بَيْنَ الْيَهْمِ وَالْيَهْمِ
 إِنَّ ثَلَقَهُ الْأَسْدُ فِي آجَامِهَا حَجِمٍ
 بِهِ وَلَا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ
 كَاللَّيْتِ جَلَّ مَعَ الْأَشْبَالِ فِي أَجْمِ

كَهْ جَدَلَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ مِنْ جِدَلٍ
 كَهَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجَزَةً
 خَدَمْتُهُ بِمَدْحٍ أَسْتَقِيلُ بِهِ
 إِذْ قَلْبَانِي مَا تُخَشِي عَوَاقِبُهُ
 أَطَعْتُ نَحْيَ الصَّبَا فِي الْحَالَيْنِ وَمَا
 فَيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ فِي تِجَارَتِهِ سَا
 وَمَنْ بَيْعَ آجِلًا مِنْهُ بِعَاجِلِهِ
 إِنْ آتَ ذَنْبًا قَمًا عَهْدِي بِمَنْقُضٍ
 فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ يَتَسَمِّيَتِي
 إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي أَخَذَ بِيَدِي
 حَاشَاهُ أَنْ يَحْكُمَ الرَّاجِيَ مَكَرَمَهُ
 وَمَنْذُ الزَّمَنُ فَكَارِي مَدَائِحُهُ
 فِيهِ وَكَمْ خَصَمَ الْبُرْهَانَ مِنْ خَصَمٍ ^(١٤١)
 فِي الْحَا هِلْيَةٍ وَالتَّادِيْبِ فِي الْيُسَمِ ^(١٤٢)
 ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشَّعْرِ وَالْحَدَمِ ^(١٤٣)
 كَأَنِّي بِهِمَا هَدَى مِنَ النِّعَمِ ^(١٤٤)
 حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الْإِتَامِ وَالسَّدَمِ ^(١٤٥)
 لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسْمِ ^(١٤٦)
 يَبْنَ لَهُ الْعَيْنُ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَامٍ ^(١٤٧)
 مِنَ النَّبِيِّ وَلَا حَبْلِي بِمِنْصَرَمٍ ^(١٤٨)
 مُحَمَّدًا وَهُوَ أَوْ فِي الْخَلْقِ بِالذِّمِّ ^(١٤٩)
 فَضْلًا وَلَا أَفْقُلُ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ ^(١٥٠)
 أَوْ يَرْجِعَ الْحَارُ مِنْهُ غَيْرُ مُحْتَرَمٍ ^(١٥١)
 وَجَدْتُهُ لِي خَلَاصِي خَيْرٌ لَمْ تَزِمِ ^(١٥٢)

وَلَنْ يَفُوتَ الْغَيْثُ مِنْهُ يَدًا تَرَبَّتْ
 وَلَمْ أُرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي أَنْفَطَهْتُ
 يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مِنْ أَلُودِيهِ
 وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللَّهِ جَاهُكَ بِي
 فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا
 يَا نَفْسُ لَا تَقْطِطِي مِنْ رِلَّةٍ عَظُمَتْ
 لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا
 يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ
 وَالطُّفْ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَكَ
 وَأُذُنَ لِسُحْبِ صَلَاحٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ
 مَا رَحَّحْتَ عَذَابَاتِ الْبَابِ رِيحَ صَبَا
 ثَوَّ الرِّضَاعِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَنْ عُمَرَ
 إِنَّ الْحَيَا يُنَبِّتُ الْأَزْهَارَ فِي الْأَكْمِ
 يَدَا زُهَيْرٍ بِمَا أَتَتْ عَلَى هَرَمٍ
 سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمِيمِ
 إِذَا الْكَوْكُبُ تَجَالَى بِاسْمِ مُنْتَقِمٍ
 وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَامِ
 إِنَّ الْكِبَارُ فِي الْغُرَانِ كَاللَّهِمِ
 تَأْتِي عَلَى حَسْبِ الْعِصْيَانِ فِي الْقِسْمِ
 لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمٍ
 صَبْرًا مَتَى تَدْعُهُ الْأَهْوَالُ يَنْهَرِمِ
 عَلَى النَّبِيِّ مِنْهُ لِي وَمُسْتَجِمِ
 وَأُظْهِرْ لِعَلِيسَ حَارِي الْعَيْسِ بِالْغَمِ
 وَعَنْ عَلِيٍّ وَعَنْ عُثْمَانَ ذِي الْكُرَمِ

وَالْآلِ وَالصَّحْبِ ثُمَّ الْبَائِعِينَ فَهَهُمْ	أَهْلُ النُّقَى وَالنَّقَا وَالْحَامِ وَالْكَرَمِ (٣١٤)
يَا رَبِّ بِالْمُصْطَفَى بَلِّغْ مَقَاصِدَنَا	وَاعْفِرْ لَنَا مَا مَضَى بِأَوْاسِعِ الْكَرَمِ (٣١٥)
وَاعْفِرِ الْهِيَ لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ بِمَا	يَتَلَوُّهُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِالْحَرَمِ (٣١٦)
بِحَاجَةٍ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَيْبَةِ حَرَمٍ	وَأَسْمُهُ قَسَمٌ مِنْ أَعْظَمِ الْقَسَمِ (٣١٧)
وَهَذِهِ بُرْدَةُ الْخُنَّارِ قَدْ خُتِمَتْ	وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي بَدْءٍ وَفِي خَتَمِ (٣١٨)
أَبْيَاطَهَا قَدْ آتَتْ سِتِّينَ مَعَ مِائَةٍ	فَنَجِّ بِهَا كَرْنَبَا يَا وَاسِعِ الْكَرَمِ (٣١٩)

كافة حقوق طبع هذه القصيدة محفوظة لمكتبة الآداب (علو حسن)
 ٤٤ ميدان الأوبرا - القاهرة ت ٣٩٠٠١٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

{ الكواكب الدرية فى مدح خير البرية }

المعروفة بـ :

البردة

للإمام البوصيرى رحمه الله تعالى

شرح شيخ الأزهر
الشيخ إبراهيم الباجورى

حققتها وضبطها وعلق عليها

الشيخ عبد الرحمن حسن محمود

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
ت : ٣٩٠٠٨٦٨

ترجمة الشارح رحمه الله تعالى

هو الشيخ إبراهيم بن محمد الجيزاوى (الباجورى) نسبة إلى « الباجور » من أعمال المتوفية . ولد رحمه الله تعالى سنة ١١٩٨ هـ ثمان وتسعين ومائة وألف للهِجرة النبوية الشريفة .

قرأ القرآن على والده رحمه الله .

انتقل إلى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف فى سن الرابعة عشر من عمره ، وبذل جهده فى تحصيل العلم ، وفاق الكثير من أهل زمانه .

تتلمذ للشيخ العلامة محمد الأمير الكبير ، والشيخ عبد الله الشراقوى ، والشيخ داود القلعاوى ، وغيرهم .

تقلد مشيخة الأزهر الشريف فى شهر شعبان عام ١٢٦٣ هـ ثلاث وستين ومائتين وألف هجرية .

ألف تأليف كثيرة ، مليئة بالعلم والتحقيقات السنية ، منها هذه الحاشية المباركة ، وحاشية على شمائل الرسول ﷺ للإمام الترمذى الحافظ رحمه الله تعالى صاحب السنن .

قرأ على طلبية الأزهر - أثناء توليه المشيخة - تفسير الإمام الرازى للقرآن الكريم ، وحضر عليه أعيان العلماء ، ولكنه لم يتمه لمرض أصابه رحمه الله .

مكث الأزهر بعده مدة أربع سنوات بلا مشيخة ، لأنه لما كبر سنة قام بمهمة المشيخة أربع وكلاء : انتخابهم علماء الأزهر ، هم :

الشيخ أحمد كيوه ، العدوى ، المالكى .

الشيخ إسماعيل الحلبي ، الحنفى .

الشيخ خليفة الفشنى ، الشافعى .

الشيخ مصطفى الصاوى ، الشافعى .

وتوفى رحمه الله تعالى سنة ١٢٧٧ سيع وسبعين ومائتين وألف للهِجرة الشريفة ، رحمه الله تعالى رحمه واسعة وأجزل ثوابة ونفعنا ببركته .

{ راجع مجلة الزهراء ، صفر سنة ١٣٤٤ هـ ص ٤٨٤ }

تقديم بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . لما كان مدح المصطفى ﷺ من أوجب الواجبات على القادرين على المدح ، إذ هو أصل من أصول حبه ﷺ ، لذلك : لجأ كثير من أفاضل العلماء العاملين والعارفين المخلصين ، بل ومن أجلاء الصحابة رضى الله عنهم ، وعلى رأسهم كعب ابن زهير رضى الله عنه فى قصيدته المشهورة .

« بانئت سعاد فقلبى اليوم متبول »

وكان من أبرز البارزين فى هذا المضمار ، إمام أئمة المديح : الإمام البوصيرى ، رحمه الله تعالى فى قصيدته : « الهمزية » و « الكواكب الدرية » ، المشهورة بـ « البردة » . والتي نال بها شرف الإمامة فى هذا المضمار .

وقد ترجم لها - الكواكب الدرية - صاحب « كشف الظنون » رحمه الله تعالى ، فقال : « ... وهى مائة بيت ، واثنان وستون بيتاً ، منها : عشر فى المطلع ، وستة عشر فى النفس وهواها ، وثلاثون فى مدائح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتسعة عشر فى مولده ، وعشرة فىمن دعا به ، وعشرة فى مدح القرآن ، وثلاثة فى ذكر معراج ، واثنان وعشرون فى جهاده ، وأربعة عشر فى الاستغفار ، وبقيتها فى المناجاة .

روى أنه أنشأها حين أصابه فالج ، فاستشفع بها إلى الله تعالى ، ولما نام رأى النبى ﷺ فى منامه ، فمسح بيده المباركة بذنه ، فعوفى ، وخرج من بيته أول النهار ، فلقبه بعض الفقهاء ، فقال له : يا سيدى أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ﷺ .

قال : أى قصيدة ؟

قال : التى أولها « أمن تذكر جيران ... » إلخ ... فأعطاها له ... وجرى ذكرها فى الناس . ولما بلغت صاحب « بهاء الدين » وزير الملك الظاهر استنسخها ، ونذر أن لا يسمعها إلا حافيا ، واقفا ، مكشوف الرأس ، وكان يتبرك بها هو وأهل بيته ، ووأوا من بركاتها أموراً عظيمة فى دينهم ودنياهم .

وسبب شهرتها بـ : « البردة » أنه أصاب « سعد الدين الفاروقى » رمد عظيم ، أشرف منه على العمى ، فرأى فى منامه قائلاً يقول له : امض إلى الصاحب بهاء الدين وخذ منه البردة ، واجعلها على عينيك تلقى إن شاء الله تعالى ، فنهض من ساعته ، وجاء إليه ، وقال له ما رأى فى نومه ، فقال الصاحب : « ما عتدى شئ يقال له البردة ، وإنما عندى مديحة النبى ﷺ ، أنشأها البوصيرى ، فنحن نستشفى بها » فأخرجها ، ووضعها سعد الدين على عينيه ، فعوفى من الرمد .

وهذه القصيدة الزهراء ، والمديحة الغراء : بركاتها كثيرة ، ولا يزال الناس يتبركون بها في أقطار الأرض » ا هـ .

ثم قال رحمه الله تعالى :

« قال المولى » مصنفك « في شرحه بعد نقل منامه ورويته النبي ﷺ : « فالتقى عليه الصلاة والسلام » بُرداً « على عاتقيه ، ومسح بيده ، فلما استيقظ وجد بدنه صحيحاً كله ، ووجد ذلك البرد على عاتقيه ، ففرح به » ا هـ .

ثم قال : « وروى عن بعض الكبراء : أنه أصابه مرض فطلب القصيدة ، فجاء صاحبها وقرأها ، فشفاه الله سبحانه وتعالى من ساعته ، فأعطاه برداً ، فسميت به » البردة « تيمناً » ا هـ .

وقد شرح البردة عدد كبير من علماء المسلمين الأعلام ، منهم :

١ - الشيخ على بن محمد (البسطامي) الشاهرودي ، المعروف بـ : « مصنفك » المتوفى سنة

٨٧٥ هـ .

٢ - بدر الدين محمد بن محمد (الغزّي) المتوفى سنة ٩٨٤ هـ .

٣ - محيي الدين محمد بن مصطفى (شيخ زاده) .

٤ - بحر بن رئيس بن (الهاروني المالكي)

٥ - عبيد الله بن يعقوب (القفاري) المتوفى سنة ٩٣٦ هـ .

٦ - عبد الله بن يعقوب (الصاوي) .

٧ - حسام الدين : حسن بن عباس .

٨ - شرف الدين : على (البزدي) المتوفى سنة ٨٢٨ هـ .

٩ - محمد بن عبد الرحمن الزمردّي (ابن الصائغ) المتوفى سنة ٧٧٦ هـ .

١٠ - جمال الدين : عبد الله بن يوسف (ابن هشام النحوي) المتوفى سنة ٨٦١ هـ .

١١ - كمال الدين : الخوارزمي ، المتوفى في حدود سنة ٨٤٠ هـ .

١٢ - زين الدين : خالد بن عبد الله ، الأزهرى ، المتوفى سنة ٩٠٥ هـ .

١٣ - جلال الدين المحلي ، المتوفى سنة ٨٦٤ هـ .

١٤ - أحمد بن محمد بن أبي بكر .

١٥ - خير الدين : خضر بن عمر (العطوفى) ، المتوفى سنة ٩٤٨ هـ .

١٦ - ابن حبيب (الحلبي) المتوفى سنة ٨٠٨ هـ .

١٧ - محمد بن أحمد بن مرزوق (التلمساني) المتوفى سنة ٧٨١ هـ .

وختمها وشرحها أيضا : بالتركي والفارسي علماء كثيرون رحمهم الله تعالى .

* * *

والشرح الذى نتشرف بإخراجه هنا هو شرح العلامة الشيخ الباجورى شيخ الأزهر . وهو شرح عجيب لطيف ، غير مسبوق - فيما نعلم - .

* * *

وأما ما ذكره الشيخ إبراهيم الباجورى رحمه الله تعالى من أن هذا البيت فائدته كذا وكذا ، فهو أمر معهود ومعروف عند أهل الله تعالى ، وله فى ذلك سوابق كثيرون .

فعلى سبيل المثال لا الحصر : قال ابن عراق (على بن محمد) المتوفى سنة ٩٦٣ فى كتابه « الصراط المستقيم فى خواص القرآن الكريم » « إن من كتب فى ورقة فى أول يوم من المحرم البسملة مائة وثلاث عشرة مرة ، وحملها : لم ينله ولا أهل بيته مكروه مدة عمره ، ومن كتب « الرحمن » خمسين مرة وحملها ودخل بها على سلطان جائر ، أو حاكم ظالم : « أمن من شره » أهـ .

* * *

وروى أن قيصر - ملك الروم - كتب إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن بى صداعاً فأنتقد إلى شيتا من الدواء ، فأنتقد إليه قلنسوة ، فكان إذا وضعها على رأسه ذهب الصداع ، وإذا رفعها رجع إليه ، ثم فتحها فإذا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال : .. ما أكرم هذا الدين وأعزّه : حيث شفى الله بآية واحدة منه ، فأسلم وحسن إسلامه .

ولعل أحداً يعترض ، ويقول : كيف يستشفى بها ، وهى ليست قرآناً . ولا دعاء من أدعية الرسول ﷺ ، الوارد فيها نصوص صريحة ؟ فنقول له ابتداء : « إن السر فى الكف لا فى الحرف » فكم من كاتب يكتب البسملة والأدعية المأثورة ولا يشفى المكتوب له ، ذلك لأن البركة منزوعة من الكاتب ، ولعل أصدق مثل فى ذلك ما نتداوله نحن فى بلادنا : « هذه الفاتحة ، وأين عمر ؟ » .

فإذا كان الكاتب سليم الصدر ، طيب العقيدة بينه وبين ربه سبحانه وتعالى : نفعت كتابته « ، وإلا ، فلا .

على أن الاستشفاء بالبردة ، أو بأبيات منها ، ليس هو استشفاء بها هى ، وإنما الاستشفاء بالنبى ﷺ ، إذ هو بركة الدنيا والآخرة ﷺ .

هذا هو واقع الأمر وحقيقته ، ومن أراد فليجرب بشروطه المعلومة ، وأولها وأولها : أن يكون المطعم ، والمشرب ، والملبس ، وكل ما هو فيه حلالاً طيباً ، قال رسول الله ﷺ لسيدنا سعد بن أبى وقاص : « يا سعد ، أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » . وإلا فلن يستجاب له ، ولو كان على عبادة الثقلين ، والله الموفق ، لا رب غيره .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة الشارح

حمداً لمن شرح بمدح نبيه قلوب أوليائه ، ووشحهم ببردة محاسنه وطيب
سنائه (١) .

وصلاة وسلاماً على من خصه بخواص هباته ، وكمله بأكمل عناياته .
(أما بعد) فيقول راجي عفو ربه الكريم ، عبده الباجوري إبراهيم :
اعلم أن مدحه ﷺ لم يتعاطه فحول الشعراء المتقدمين ، لأن كمالاته ﷺ
لا تُحصى ، وشمايله (٢) لا تُستقصى ، فالمداحون لجنابه العلى ،
والواصفون لكماله الجلى ، مقصرون عما هنالك ، قاصرون عن أداء ذلك ،
كيف وقد وصفه الله فى كتبه بما يبهر العقول ، ولا يُستطاع إليه الوصول
فلو بالغ الأولون والآخرون فى إحصاء مناقبه لعجزوا عن ضبط ما حباه
مولاه من مواهبه ، ولقد أحسن من قال :

أرى كل مدح فى النبی مقصراً * وإن بالغ المثني عليه وأكثر
إذا الله أثنى بالذى هو أهله * عليه فما مقدار ما تمدح الورى ؟
فكل علو فى حقه تقصير ، ولا يبلغ البليغ إلا قليلاً من كثير ، لكن
المتأخرون رأوا مدحه بالشمايل (٢) والكمالات من أعظم القرب والطاعات ،
لأجل التعلق بجنابه الشريف ، والتبرك بخدمة قدره المنيف (٣) * فأكثروا

(١) السناء : فى المصباح المنير : « السناء » من المدح .

(٢) الشمايل : جمع شميلة ، بالياء ، لا بالهمزة ، وقد حقق الكلمة الشيخ
الباجورى رحمه الله تعالى فى مقدمته على الشمايل المحمدية للإمام الترمذى ، قال
بعد كلام : « ... الشمايل بالياء جمع شمال بمعنى الطبع والسجية كما فى كتب اللغة ،
أما الشمايل بالهمز جمع شمال ضد اليمين » ص ٦ طبع المطبعة البهية ١٣٠٥ هـ .

(٣) المنيف : أى الزائد .

من مدحه ، وتفننوا فيه فنوناً كثيرة ، ومن أجلهم الإمام الكامل ، والهمام العالم العامل ، البليغ ، الأديب ، أشعر العلماء ، وأفصح الحكماء الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيرى (١) *

ومما صاغه صوغ الذهب الأحمر ، ونظمه نظم الدر والجوهر ، قصيدته المشهورة بالبردة ، وإنما اشتهرت بذلك لأنه لما نظمها بقصد البرء من داء الفالج (*) الذى أصابه فأبطل نصفه ، حتى أعجز الأطباء ، رأى النبى ﷺ فى منامه فمسح بيده عليه ، ولفه فى بردته ، فبرأ لوقتته (٢) كما ذكره الناظم فى تعليقه .

وقال بعضهم : الأولى أن يقال لهذه القصيدة « برأة » لأن المؤلف برئ (٣) بها ، والتى حقها أن يقال لها « بردة » بانت سعاد (٤) التى هى قصيدة كعب بن زهير ، لأن النبى ﷺ أجازه عليها بردة حين أنشدتها بين يديه .

وقد سألنى بعض الإخوان ، أصلح الله لى وله الحال والشان ، أن أكتب عليها حاشية تبين مقصودها ، وتبرز مرادها ، فأجبتة لذلك ، وإن كنت لست أهلاً لما هنالك ، فالتقطت بعض العبارات ، واجتئيت بعض الثمرات ، فقلت - وبالله التوفيق لأقوم طريق - : قد اشتهر ابتداء هذه القصيدة ببيت مشتمل على الحمد والصلاة على النبى ﷺ وهو :

« الحمد لله منشئ الخلق من عدم * ثم الصلاة على المختار فى القدم »

(١) هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجى البوصيرى المصرى ولد ببهتيم [كذا فى الأعلام للزركلى] وتوفى بالأسكندرية ، له ديوان شعر مطبوع ، وله قصيدة البردة - التى نحن بصدددها ، وله قصيدة الهمزية المشهورة . ترجمته فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٥ وخطط على باشا مبارك ج ٧ ص ٧٠ والوفى بالوفيات ج ٣ ص ١٠٥ - ١١٣ وآداب اللغة ج ٣ ص ١٢٠ . ولد سنة ٦٠٨ هـ وتوفى سنة ٦٩٦ هـ .

(*) الشلل . (٢) أى فوراً . (٣) شفى .

(٤) مطلعها : « بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكبول » .

وهو ليس منها ، لأنه وإن كان ثناءً حسناً في ذاته إلا أن ابتداء القصائد به غير مستحسن عند الأدباء ، لما جرت به عادتهم من افتتاح قصائدهم بذكر لوازم العشق ، من ذكر الأحبة وديارهم ومقاساة الأحزان والأشواق وتحمل مكاره الفراق ، ويسمون ذلك غزلاً وتشبيهاً ، ويعدون هذا الصنيع من حسن المطلع لاهتمامهم بشأن العشق واعتنائهم بشدائده (١) ، ولذلك قال بعضهم : الشعر لا يُبدأ بالبسملة والحمدلة . وقد جرت عادة الشعراء بأنهم يجردون من أنفسهم شخصاً يحاورونه دلالاً وعتاباً وسؤالاً وجواباً إيهاماً لندرة خبير يظهرهم رموز العشق عليه ، وتخيباً لقلّة صديق يضمرون كنوز الحب لديه . ولما كان الناظم من أبلغهم وأفصحهم ، صنع هذا الصنيع كما ستراه إن شاء الله تعالى :

(١) في طبعة الوهبة « اغتنامهم شدائده » .

بُرْدَةُ الْمَدِيحِ

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ * مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ يَدَمٍ (١)

(١) (قوله أم تذكر إلخ) قد جرد المصنف من نفسه شخصاً مزج دمعها الجارى من مقلته بالدم ، وخاطبه بذلك مستفهماً عن سبب مزج الدمع الجارى من المقلّة بالدم ، ما هو ؟ هل هو تذكر الجيران المقيمين بذى سلم ؟ أو هبوب الريح من جهة كاظمة ؟ وإيماض البرق فى الليلة الظلماء من إضم ؟ وعلم من ذلك أن الهمة للاستفهام ، و « من » للتعليل ، فهى بمعنى لام الأجل ، وهى متعلقة بقوله « مزجت » ، وقدمها عليه تنبيهاً على أن الشك ليس فى نفس المزج ، إذ هو ثابت مشاهد ، بل الشك فى سببه ، والتذكر مصدر تذكر مأخوذ من الذكر (بالضم) وهو ضد النسيان ، والجيران بكسر الجيم ، جمع جار ، وإضافة التذكر إليه من إضافة المصدر لمفعوله بعد حذف الفاعل ، والأصل : تذكرك جيراناً ، فحذف الفاعل وأقيم المفعول مقامه ، والمراد بالجيران : المحبوبون ، لأن من لازم الجوار الذى هو الملاصقة فى الأصل المحبوبة ، فالناظم قد أطلق اسم الملزوم ، وأراد اللازم ، على سبيل المجاز المرسل ، والباء للظرفية ، فهى بمعنى « فى » ، والمراد بذى سلم موضع بين مكة والمدينة قريب من قديد ، وهو محل هناك أيضاً ، والمزج : الخلط ، وقيل أخص منه ، لأنه لا يكون إلا فيما يصير بعد الخلط حقيقة واحدة ، بخلاف الخلط ، فإنه لا يختص بذلك ، وكنى بمزج الدمع بالدم عن كثرة البكاء ، والدمع ماء يصعد إلى الدماغ فيسيل من مجرى العيون بسبب شدة الحرارة الغريزية عند حادث سرور أو حزن ، ويكون بارداً للسرور ، وساخنًا للحزن ، فيكون حينئذ كالماء الشديد الحرارة إذا فارق النار القوية ، لا يبرد إلا بعد حين ، فإذا عظمت الحرارة قلّت الرطوبة ، فيخرج مع الدمع دم ، لأنه أقرب من غيره لعمومه الأعضاء ، وسريانه فى سائر العروق ، فإذا طال البكاء جف الدم فيبيض الدمع ، ويقال حينئذ « شاب الدمع » . والجرى : السيلان بشدة ، ولذلك عبر الناظم بجرى دون سال ، والمقلّة : شحمة العين التى تجمع السواد والبياض ، وفيها الحدقة التى هى السواد الذى فى وسط العين ، وتلك الحدقة فيها الناظر ، ولشدة صفائه كانت العين كالمرآة ، إذا استقبلها شخص رأى صورته فيها ، وأفرد الناظم المقلّة لأن العرب قد يطلقونها ونظائرها مفردة ، ويريدون بها المثنى كما قال بعضهم :

* بكتْ عيني وحق لها بكاءها * (١)

(١) وبقية البيت : * وما يُغنى البكاء ولا العويل *

أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِصْمٍ (٢)

= ويحتمل أنه بنى أمره على الرجاء والخوف ، فإذا نظر بمقلة الخوف بكى ، وإذا نظر بمقلة الرجاء سُر ، قال الشاعر :

ينام بإحدى مقتلتيه ويتقي * بأخرى المنايا فهو يَقْظَانُ نائمٌ (١)

، و « من » الداخلة على المقلة ابتدائية ، وهى متعلقة بجرى .

واعترض بأن هذه الجملة حشو لا فائدة فيها لأن الدمع لا يكون إلا كذلك .

وأجيب بأنها ليست حشواً ، بل للاحتراز عما يحتمله الكلام لولا هذه الجملة ، من أنه مزج الدمع بعد انفصاله من العين بالدم ، وليس مراداً ، وفى هذا الجواب نظر ، لأن هذا الاحتمال قائم مع هذه الجملة ، والأظهر فى الجواب أنها تأكيد ، والدم : أحد الأمشاج الأربعة (٢) التى خُلِقَ منها الإنسان ، والباء الداخلة عليه للتعدية بالنظر ، لقوله مزجت ، وللمصاحبة بالنظر لقوله جرى ، فقد تنازعه كل منهما ، والمراد بدم منك كما قدره بعض الشارحين ، ليخرج ما يحتمله الكلام لولا هذا التقدير ، من أنه مزج الدمع بعد انفصاله بدم أجنبى ، والتنوين فى قوله « جيران ، ودمعاً ، ومقلة ، ودم » إما للتعظيم ، وإما للتنويع .

وفى هذا البيت براعة استهلال ، لأن فيه إشارة إلى أن هذه القصيدة فى مدح النبى ﷺ ، حيث ذكر فيه المواضع التى بقرب المدينة الشريفة ، وفيه أيضاً الجناس الناقص حيث ذكر فيه الدمع والدم ، فإنهما مختلفان ، بزيادة العين ونقصانها .

(٢) (قوله أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ إلخ) لما كانت الهمزة لا يد لها من معادل ، أتى المصنف بما يعادلها فقال : « أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ ، إلخ » فأم متصلة ، وهى حرف عطف ، يطلب بها و بالهمزة التعيين ، وجملة « هَبَّتِ الرِّيحُ » فى تأويل المفرد أى : أَمْ هبوب الرِّيح ، وكذا جملة أَوْمَضَ الْبَرْقُ ، أى وإيماض البرق ، فكل من الفعلين مؤول بمصدر ، وإن لم يكن هناك سابك ، لأن وجود السابك أمر أغلبى ، وإلا فقد لا يوجد كما فى قولهم « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » فإن الفعل فيه مؤول بمصدر مع عدم وجود السابك على بعض الأقوال ، وواو العطف إما على حقيقتها كما هو المتبادر ، فيكون =

(١) وهى أيضاً صفة الذئب ، وسيحان من أعطى كل شىء خلقه .

(٢) الأمشاج : جمع مشج وهو كل شيتين مختلفتين . والأمشاج الأربعة هى : الماء والهواء والتراب والنار .

= الترديد بين الشيء والشيئين ، أو بمعنى « أو » ، فيكون الترديد بين ثلاثة أشياء ، على سبيل منع الخلو ، فإن كلا من تذكر الجيران ، وهبوب الريح من جهة كاظمة ، وإمياض البرق من إضم ، سبب للبكاء وموجب للإفراط فيه ، أما التذكر فلأنه يحصل به التحسر على ما مضى من وصل الأحبة ، ومؤانستهم ، ولقد أحسن من قال :

تذكرتُ أياماً لنا وليالياً مضتْ فجَرتْ من ذكرهن دموعُ
ألا هل لنا يوماً من الدهر أوبةٌ وهل لى إلى أرضٍ الحبيب رجوعُ

وأما هبوب الريح من جهة كاظمة فلأن المحب دائماً يفكر فى محاسن محبوبه ، فإذا هبت الريح من جهة موضعه ، تخيل أنها حملت روائحه إليه ، وأما إمياض البرق من إضم ، فلأن من عادة المحبين أن يرتاحوا للبرق إذا لمع من جهة ديار الأحبة لكون البرق مما يذكر صفات المحبوبين للطافته ، وأيضاً المحب يتخيل عند لمعان البرق أنه يرى ديار المحبوب ، وهبوب الريح : هيجانها ، والريح جسم لطيف شفاف غير مرئى يهب بمقدار مخصوص ، فى وقت مخصوص ، وإذا أتت مفردة ، فالغالب أنها للعذاب (١) ، وإذا أتت مجموعة فالغالب أنها للرحمة ، ولذلك قال ﷺ : « اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها (٢) ريحاً » وذلك لأن ريح العذاب واحدة ، وهى الدبور (٣) وعليها حَزَنَةٌ فعتت عليهم ، فخرجت من مقدار خاتم فأهلكت عاداً ، ولو خرجت من مقدار أنف ثور لأهلكت الدنيا .

وأفردنا الناظم هنا لأن الحب وإن كان عَذْباً لكنه مختلط بعذاب ، و « تلقاء » بمعنى حذاء ، وكاظمة (٣) اسم موضع كما قاله الجوهري ، وقال غيره : اسم ماء . والإمياض : اللمعان الخفيف ، وإن أطلقه بعضهم عن التقيد بالخفيف ، والبرق : عند أهل السنة أجنحة ملك يسوق بها السحاب ، وقيل ضحكة ، فقد نقل الشافعى فى الأم عن الثقة عن مجاهد : أن الرعد ملك والبرق أجنحته .

(١) قال الله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ (فصلت : ١٦) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وجعلنا الرياح لواقح ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » لأن الريح تأتي بعنفوان وشدة فإذا ما جعلها الله رياحاً بدد قوتها وصارت رحمة لا عذاباً . والله تعالى أعلم .

(٣) قال فى القاموس : هى ريح تقابل الصبأ .

.....
 = وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « بعث الله السحاب فنطقت أحسن النطق
 وضحكت أحسن الضحك ، فالرعد نطقها والبرق ضحكها » (١) ، أى لمعان النور
 من فمها .

وأما قول بعض الشارحين إنه صوت ملك يزجر السحاب إلى الجهة التى يريد بها الله
 تعالى ، ففيه نظر .

وأما عند أهل الهيئة فهو : نار تحدث عند شدة اصطكاك الهواء بعضه مع بعض ،
 ولذلك أكثر ما يكون عند انتقال الزمان من الحرارة إلى البرودة ، وعكسه . والظلماء :
 صفة لموصوف محذوف والتقدير فى الليلة الظلماء أى ذات الظلمة ، وإنما خص الليلة
 الظلماء بالذكر لأن الضوء فى الظلمة أجلى ، وقد اختلف فى الظلمة فقيل أمر وجودى
 يضاد النور قائم بالهواء ، وقيل أمر عدمى (٢) ، وإضم بكسر الهمزة وفتح الضاد
 المعجمة اسم لجبل ، وقيل اسم لواد بقرب المدينة الشريفة ، وفائدة هذين البيتين أنهما
 يكتبان فى جام (أى قزاز) ويمحيان بماء المطر ، ويسقى المحو للبهيمة التى صعب
 تعليمها وتذليلها ، فإذا شربت ذلك ذلت وانقادت وتعلت بسرعة ، وإذا كان عندك
 عبد أعجمى وعسر عليك تعليمه كلام العرب فاكتب هذين البيتين فى رق غزال (٣) ثم
 علقه على عضده الأيمن فإنه يتكلم بالعربية فى أسرع وقت .

(١) رواه الإمام أحمد ونصه من ابن كثير فى تفسير سورة الرعد : « إن الله ينشىء السحاب
 فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك » .

وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال : « يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكاً ، ولا
 أنس منه منطقاً ، فضحكه البرق ومنطقه الرعد » . (٢) يعنى يظهر عند فقدان النور .

(٣) بفتح الراء من رَقَى : أى وقد اثبتوا هذا بالتجارب مع الاعتقاد بأن الله هو الفاعل لكل
 شئ ، فإذا حسنت العقيدة فى الله تعالى أدت إلى نجاح العمل ، وقد قالوا : « إن السر فى الكف
 لا فى الحرف » .

والمعنى أن الكاتب لهذه الأشياء إن كان فيه بركة من الله تعالى حدث سره فيما كتب ، وإلا فلو
 كتب ألف مرة فلا يحدث شئ . وأمر الرجل الذى شفى الله به الملدوغ فى عهد النبى ﷺ وقد قرأ
 عليه الفاتحة وتفل على مكان اللدغ مروي فى كتب السنة كلها تقريباً وأمره مشهور وذائع .

فما لعينيك إن قلت أكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفتي بهم (٣)
أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم (٤)

(٣) (قوله فما لعينيك إلخ) لما سأل النظام عما ذكر ولم يردّ عليه المسؤول جواباً لأن من شأن المحبين أن يكتموا الحب في أول الأمر ، بل جرت عادتهم بإنكاره بالمرّة ، نزول الناظم المسؤول منزلة المنكر وتعجب من حاله على فرض صدقه في الإنكار فقال فما لعينيك إلخ أي إذا صدقت في إنكارك الحب فأى شيء ثبت لعينيك أوجب لهما أنك إن قلت لهما أكففا همتا ؟ وأى شيء ثبت لقلبك أوجب له أنك إن قلت له استفتي بهم ؟ فالفاء للإفصاح ، وجعلها بعضهم للعطف ، لكن الأول أظهر ، « وما » في الموضوعين اسم استفهام مبتدأ خبره الجار والمجرور بعده ، وجملة قوله « أكففا » في محل نصب مقول القول ، وكذلك جملة قوله « استفتي » ، ومعنى أكففا أمسكا عن البكاء ، و « همتا » بمعنى سالتا مأخوذ من الهميان وهو السيلان ، فأصله هميئا قلبت ياؤه ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت الألف لالتقاء ساكنة مع التاء التى أصلها السكون ، وإن عرض تحركها لمناسبة الألف ، وفى كلامه حذف التمييز المحول عن الفاعل ، أى همتا دمعاً ، والأصل همى دمعهما ، فحول الإسناد عن الدمع إليهما وأتى به تمييزاً ، لكن حذفه الناظم . والقلب : لحم صنوبرى الشكل أى شكله على شكل الصنوبر لأنه دقيق الأسفل غليظ الأعلى كهيئة قمع السكر ، وقال بعضهم : القلب سرّ وضعه الله فى هذه اللحمة فتسميتها قلباً لحلوله فيها . والسين والتاء فى استفتى زائدتان فمعناه أفق بما أنت فيه . وقوله « بهم » مضارع هام بهميم إذا قام به الهيام وهو داء كالجنون ينشأ من العشق وغيره . وفى هذا البيت الطباق لأنه جمع فيه بين متقابلين فى كل من الشطرين ، أما الشطر الأول فجمع فيه بين قوله أكففا وقوله همتا ، وأما الشطر الثانى فجمع فيه بين قوله « استفتى » وقوله « بهم » .

(٤) (قوله أيحسب الصب إلخ) لما سأل المصنفُ المخاطب السؤالَ المسكت ، وألزمه الإلزام المبهت ، رجع إلى تغليظه فى الإنكار ، فقال : أيحسب الصب إلخ ، والهمزة للاستفهام الإنكارى ، ويحسب : بكسر السين وفتحها أى يظن ، وكان مقتضى ما سبق أن يُعبر المصنف بتاء الخطاب لكنه التفت إلى الغيبة لما جرت به عادة الأدباء من تغيير كلامهم من أسلوب إلى أسلوب آخر تكليماً وخطاباً وغيبةً تنشيطاً للسامع . والصب : العاشق من قولهم صب الماء لأنه لما كان كثير البكاء فكأنه يصب الدمع ، وقال =

لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرَقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ وَلَا أُرْقَتْ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ (٥)

= بعضهم من « الصبابة » وهى رقة العشق وحرارته . وجملة « أن » واسمها وخبرها سدت مسد مفعولى يحسب ، و « الحب » عرقه بعضهم بأنه صفاء الحال بين المحب والمحبوب ، وقوله منكم أى مستتر ، و « ما » اسم موصول بمعنى الذى فى محل نصب على أنه بدل من الحب ، أو صفة له ، وصدر الصلة محذوف أى الحب الذى هو بين إلخ ، كذا قال بعض الشارحين ، وهو أظهر من جعل بعضهم ما زائدة وجعله « بين » ظرفاً لقوله منكم ، وكل من منسجم ومضطرم صفة لموصوف محذوف ، والتقدير بين دمع منسجم منه وقلب مضطرم . والمنسجم : السائل من قولهم انسجم الماء : سال ، والمضطرم المشتعل من قولهم اضطرمت النار اشتعلت . والمعنى : لا يظن العاشق أن الحب مستتر عن الناس الذى هو بين دمع سائل وقلب مشتعل من نار الحب وكل منهما من آثار الحب منع كونهما ظاهرين ، وحينئذ فإنكار الحب غلط .

(٥) (قوله لولا الهوى إلخ) لما غلط المصنفُ المسؤل فى إنكاره الحب استدل عليه بأدلة فقال « لولا الهوى إلخ » والهوى : مصدر هوى بكسر الواو : إذا أحب ، فهو بمعنى الحب ، وهو مبتدأ والخبر محذوف ، أى موجود ، و « لولا » حرف يدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، فالمعنى امتنع عدم إراقتك دمعاً على طلل لوجود الهوى .

وقوله لم ترق دمعاً أى لم تصبّه ، يقال أراق الماء أى صبّه ، ويقال هراق أيضاً بمعناه . وكان مقتضى قوله أبحسب إلخ أن يقول لم يرق بياء الغيبة (١) ، لكنه التفت إلى الخطاب لما تقدم . والطلل : ما بقى من آثار الدار مرتفعاً ، فإن لم يكن مرتفعاً بأن كان ملتصقاً بالأرض كان رسماً ، و « على » الداخلة عليه للتعليل أى لأجل طلل ، هذا إن لم يقدر وقوفه على الطلل كما هو المتبادر ، وإلا كانت بمعنى « فى » ، وقوله « ولا أُرقت إلخ » عطف على قوله لم ترق إلخ ، وأُرقت بكسر الراء بمعنى سهرت . والبان شجر طيب الريح ويتخذ منه دهن يعرف بدهن البان ، والعلم : يطلق على معان منها الجبل والرمح ، أى ولا سهرت لذكر البان والعلم الكائنين بمحل المحبوب ، وعلى هذا فالبيان والعلم باقيا على معناهما . ويحتمل أنه شبه المحبوب بهما فى طيب الرائحة وحسن الهيئة وطول القامة ، وإنما أورثه ذكرهما السهر لأن النوم إنما يكون من =

(١) بفتح الغين .

ولا أعارتك لَوْنِيْ عِبْرَةً وَضَنَى ذِكْرَى الْخِيَامِ وَذِكْرَى سَاكِنِي الْخَيْمِ (٦)
فَكَيْفَ تُنْكِرُ حَبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقْمِ (٧)

= الرطوبة الصاعدة من المعدة إلى الدماغ ، والمحبة تكثر حرارته فتنتفى عنه الرطوبة ، وحينئذ فلا ينام ، وتلك الرطوبة تنشأ غالباً عن كثرة الطعام والشراب ، والمحبة يلهيه حبه عن أكله وشرابه فتنتفى رطوبته وتتضاعف حرارته لا سيما عند ذكر معاهد الأحباب أو ما هو شبيهه بالأحباب ، وفي هذا البيت شبه الاشتقاق حيث جمع فيه بين ترق وأرقت .

(٦) (قوله ولا أعارتك إلخ) لما ذكر المصنف دليلين أردفهما بدليل ثالث على ما في بعض النسخ الذي شرح عليها بعض الشارحين ، لكن لم يوجد ذلك في كثير من النسخ . وهو معطوف على قوله لم ترق إلخ ، ومعنى أعارتك أعطتك على سبيل العارية ، وقوله لَوْنِيْ عِبْرَةً وَضَنَى : معمول لأعارتك ، وفاعله « ذكري إلخ » ، والمراد باللونين هنا النوعان ، والعبرة بفتح العين : الدموع ، والضنى : المرض ، فانسجام الدموع على النحر بمثابة الدر المعلق عليه وذلك لون العبرة ورقة جسمه وصفرة لونه كثوب بديع الرقة والصبغ ، وذلك لون الضنى ، وفي الكلام استعارة بالكناية وتخيل لأنه شبه لوني العبرة والضنى بلباسين بجامع الزينة في كل ، أما في المشبه به فظاهر ، وأما في المشبه فلأن آثار الحب زينة عند المحب ، فيتزين بها كما يتزين باللباس تشبيهاً مضمرًا في النفس ، وطوى لفظ المشبه به ورمز إليه بشيء من ملائماته وهو الإعارة . وقوله « ذكري الخيام وذكري ساكني الخيم » أي تذكر الخيام وتذكر ساكني الخيم ، فالذكرى فيهما بمعنى التذكر . وكل من الخيام والخيم جمع خيمة وهي بيت تتخذه العرب من عيدان الشجر ، وحذفت التون من « ساكنين » للإضافة ، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين .

(٧) (قوله فكيف تنكر إلخ) لما أقام المصنف على المسؤل الأدلة على حبه مع صحة نتيجهتها أنكر عليه دوامه بعد ذلك على الإنكار فقال : فكيف تنكر إلخ ، والفاء للإفصاح لأنها أفصحت عن شرط محذوف والتقدير : إذا قامت عليك الأدلة فكيف تنكر إلخ ، و « كيف » حال مقدمة مضمنة معنى الاستفهام على وجه الإنكار ، ومعنى تنكر : تجحد ، والجحد هو النفي بعد العلم بخلافه قبله ، وقوله حبا معمول لتنكر ، و « بعد » ظرف له ، و « ما » يحتمل أن تكون مصدرية وهو الظاهر فالفعل بعدها وهو شهدت مؤول بمصدر والضمير في به عائد على الحب ، والتقدير على هذا : بعد شهادة عدول الدمع والسقم به عليك . ويحتمل أن تكون اسم موصول بمعنى الذي ، وجملة شهدت صلة ، والضمير في به عائد على ما ، والتقدير على =

وَأَثْبَتَ الْوَجْدُ خَطِيءَ عِبْرَةٍ وَضَنِيَّ مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَيْكَ وَالْعَنَمَ (٨)

= هذا بعد الذي شهدت به عليك إلخ . وفى « شهدت » استعارة تصريحية تبعية لأنه شبه الدلالة الواضحة بمعنى الشهادة بجامع الوضوح فى كل ، واستعار الشهادة للدلالة ، واشتق من الشهادة بمعنى الدلالة شهدت بمعنى دلت ، ولفظ العدول ترشيح للاستعارة ، والعدول جمع عدل ، والدمع هو الماء الجارى من العين ، والسقم بفتححتين المرض ، ويقال « فيه سقم » بضم فسكون لكن فى غير النظم ، كما قاله شيخ الإسلام . وإضافة عدول للدمع والسقم للبيان أو من إضافة الصفة للموصوف ، واستعمال الجمع فى الإثنين كما هنا كثير شائع ، واعتراض هذا الجمع بأن العدل مصدر وهو لا يثنى ولا يجمع ، وأجيب بأن محل قولهم إن المصدر لا يثنى ولا يجمع إذا اعتبرت مصدرته ، وهنا قد اعتبر ما نقل إليه ، وإنما ذكر كونهم عدولا للإشارة إلى أنه لا يمكن المخاطب ردّ شهادتهم .

(٨) (قوله وأثبت الوجد إلخ) أى وبعدهما أثبت الوجد إلخ فهو معطوف على شهدت ، والوجد هو الحزن بسبب الحب ، وقيل : نيران أشواق تنشرها رياح المحبة عند سماع ذكر المحبوب . وإسناد الإثبات إلى الوجد مجاز عقلى ، من قبيل الإسناد إلى السبب ، كما فى قولك سرتنى رؤيتك ، وقوله خَطِيءَ عِبْرَةٍ بفتح العين كما تقدم أى خطين من الدموع ، وقوله « وضنى » عطف على خطي عبرة لكن على تقدير مضاف أى وأثر ضنى ، وقوله « مثل البهار إلخ » صفة لكل من خَطِيءَ العبدة والضنى ، لكن على اللف والنشر المشوش ، لأن البهار بفتح الباء الموحدة وردّ أصفر ، وأثر الضنى صفرة الوجه ، فأثر الضنى مثل البهار فى الصفرة . و « العنم » بفتح العين والنون شجر له أغصان حمراء ، وقيل ورد أحمر ، والخطان من العبدة أحمران لامتزاج الدم بالدمع ، فالخطان من العبدة مثل العنم فى الحمرة ، وقوله « على خديك » متعلق بأثبت ، فتقدير البيت وأثبت الوجد على خديك خطي عبدة مثل العنم ، وأثر ضنى مثل البهار ، والمعنى : وكيف تنكر حياً بعد ما أثبت الوجد على خديك علامتين ظاهرتين على الحب ، فكل من رآك يعرف الحب فى وجهك ؟ .

وفائدة الأبيات الخمسة التى أولها « فما لعينيك » أن الرجل إذا اتهم زوجته أو ابنته أو عيّلته كتب هذه الأبيات فى ورقة من ورق الاترج ، ووضعها على يد المتهم اليسرى وهو نائم ويجعل أذنه على فمه ، فإنه ينطق بجميع ما فعله فى غيبته خيراً أو شراً ، وكذلك إذا سُرّق له شيء واتهم أحداً أو شك فى أحد ، فليكتب هذه الأبيات فى جلد ضفدع مدبوغ ، ويأخذ لسان الضفدع ويصره فى الجلد المذكور ، ويعلق ذلك الجلد فى عنق المتهم ، فإنه يُقرّ فى ساعته لدهشته .

نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مَنْ أَهْوَى فَأَرْقَنِي وَالْحَبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ (٩)

(٩) (قوله نعم سرى إلخ) لما اتضح حال المسئول مما هو عليه من الحب ولم يبق له سبيل إلى الإنكار أقرّ واعترف بذلك ، حيث قال : نعم إلخ ، هكذا قال بعض الشارحين ، وعليه فالناظم لم يرجع من التجريد إلى التكلم ، وقال بعضهم : لما انكشف كون المسئول محباً ، وكان هو المتكلم فى المعنى رجع من التجريد إلى التكلم واعترف بالحب حيث قال « نعم إلخ » ، والأول أقرب . و « نعم » حرف إيجاب لما سبق ، فكأنه قال « صدقت أيها السائل فيما نسبتني إليه من الحب ، وأن سبب مزج الدمع الجارى من المقلة بالدم تذكر المحبوبين ، كما هو الشق الأول من السؤال السابق ، فقال له السائل : وما سبب تذكرك لهم ؟ فقال « سرى إلخ » وصلة « سرى » محذوفة والتقدير « سرى إلى » أى سار إلى ليلاً لأن السرى (١) هو السير ليلاً ، وقوله طيف من أهوى : أى خيال من أحب ، فالطيف خيال المحبوب . و « أهوى » مضارع هوى بكسر الواو بمعنى أحب بخلاف هوى بفتح الواو فإنه بمعنى سقط . وسبب ذلك الخيال أن النفس إذا ولعت بشيء حصلت صورته فى القوّة المخيلة فترى خياله فى المنام كثيراً ، وقوله فأرقنى أى أسهرنى لأنه لما تذكر الحب (٢) ثارت عليه الحرارة وانتفت عنه الرطوبة فارتفع عنه النوم كما تقدم ، وقوله « والحب يعترض اللذات بالألم » أى يدفعها بالألم ، يقال اعترضه بالسهم إذا دفعه به ، فالألم هنا بمنزلة السهم ، واللذات بمنزلة الشخص الرامى .

ويحتمل أن المراد أن الحب يجعل الألم عرضة فى اللذات فيصير الألم كالخشبة المعترضة فى النهر .

ويحتمل أيضاً أن المعنى أن الحب يغيب اللذات بالألم ، فإنه يقال عرض الشيء إذا غيبه ، والمراد باللذات ما كان فيه من النوم والتسلى عن المحبوبين ، وبالألم ما ينشأ عن الحب من شدة الوجد ، وحاصل المعنى أنه صدقه فيما نسبته إليه من الحب بقوله « نعم » ثم ذكر له سبب تذكره للمحبوبين بقوله « سرى طيف من أهوى » ، وذكر أنه =

(١) بضم السين المشددة هو سير عامة الليل . كذا فى القاموس .

(٢) بكسر الحاء المهملة .

يا لائمي في الهوى العذري معذرةً مني إليك ولو أنصفت لم تلم (١٠)

= أسهره بقوله « فأرقتي » ، وذكر أنه بعد أن كان في لذة صار في ألم ، ولذلك قال :
والحب يعترض اللذات بالألم ، ول بعضهم في هذا المعنى :

وزارني طيف من أهوى على حذرٍ من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكسدت أوقظ من حولي به فرحاً وكاد يهتك ستر الحب بسى شغفا
وفائدة هذا البيت أن من كرهه بعد صلاة العشاء حتى يغلب عليه النوم ، فإنه يرى
المصطفى ﷺ في منامه إن شاء الله تعالى (١) .

(١٠) (قوله يا لائمي إلخ) لما أقر المسؤل بالحب ، لآمه السائل فيه ، فرجع
المسؤل على السائل يوبخه في لومه عليه فيه ، فقال : يا لائمي إلخ ، وهذا كما ترى
مبنى على بقاء التجريد .

وأما على أن الناظم رجع من التجريد إلى التكلم ، فيكون المصنف قد استشعر
لائما عليه ، لأن المحب إذا أفر بالحب لآمه (٢) عليه غيره ، فوبخه المصنف على لومه
عليه . وقوله « في الهوى العذري » بالذال المعجمة ، أى الهوى المنسوب إلى بنى
عذرة بضم العين ، وهم قبيلة مشهورة باليمن ، يؤدى بهم العشق إلى الموت لصدقهم
في الحب ورقة قلوبهم .

والمقصود من النسبة التشبيهية ، فالمراد أن هواه مشبه لهوى بنى عذره .

وقيل الهوى العذري هو الحب الذى من شأنه أن يقبل عذر صاحبه عند كل أحد
لكونه مفرطاً ، وقوله معذرة ، أى أعتذر معذرة أو أقدم معذرة ، فهو بالنصب على
أنه مفعول لفعل محذوف ، ويصح قراءته بالرفع على أنه مبتدأ خبره قوله « مني إليك »
أى صادرة مني إليك ، أو على أنه خبر مبتدؤه محذوف ، والتقدير هذه معذرة ،
وتكون الإشارة راجعة لقوله سابقاً : سرى طيف إلخ ، فالمعذرة على هذا خصوص
ذلك ، بخلافه على ما قبله ، فإنه يحتمل أن تكون هى ذلك ، وأن تكون قوله الآتى
« لا سرى بمستتر عن الوشاة ولا دائى بمنحسم » وأن تكون معذرة معروفة فى الخارج
وهى أن يقول المحب للمعاذل إني محب ، والمحب لا يلام سيما من كان حبه عذريا ،
وقوله « ولو أنصفت لم تلم » أى لأن الحب ليس اختيارياً حتى يلام عليه ، بل هو
قهرى ولا يلام إلا على الأمر الاختيارى ، كما قال القائل :

(١) بشرط النية الصادقة فى أنه يريد أن يرى النبى ﷺ . (٢) فى نسخة الوهبية : « لآم » .

عَدْتُكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ عَنِ الْوُشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمٍ (١١)

= وعيبُ الفتى فيما أتى باختياره ولا عيبَ فيما كان خُلِقا (١١) مركبا
لكن كون الحب ليس اختيارياً ، بل هو قهري بعد تحكمه ، وإلا فمبدؤه اختياري ،
أو لأن اللوم على الهوى لا يكون إلا ممن ذاقه ، والمخاطب لم يذقه ، ولذلك قال بعض
الصوفية « لا ينبغي للشخص أن يتكلم على حال إلا إذا ذاقها » وإلى هذا المعنى
أشار ابن الفارض بقوله :

دع عنك تعنيفي ، وذُقْ طعمَ الهوى فإذا عشقتَ ، فبعد ذلك عَنَّفْ
وفائدة هذا البيت وما بعده أنك إذا رأيت منكرا ولم تقدر على إزالته ، فاكتبهما
فى ورقة بزعفران ومسك وماء ورد ، ويكون تفصيل الورقة دائرة ، ثم اجعلها بين
عينيك تحت العمامة ، فتقوى على إزالته بإذن الله تعالى .
وإذا أردت أن تقهر نفسك على إقامة شعائر الدين فواظب على قراءتهما خلف كل
صلاة (٢) .

(١١) (قوله عدتك حالى إلخ) لما أبدى له المَعذرة فى الهوى ، ووبخه فى اللوم
عليه فيه ، فلم يرجع عن اللوم ، استعطفه بالدعاء له فقال : عدتك حالى إلخ أى جاوزتك
حالى ، كما يقول الشخص لغيره : لا أراك الله حالى ، وعلى هذا فالجملة دعائية ،
ويحتمل أنها استفهامية بتقدير همزة الاستفهام ، وعليه ، فالمعنى أجاوزتك حالى فلم
تعذرني ؟ ويحتمل أيضاً أنها خبرية ، وعليه فالمراد الإخبار بأنه جاوزته حاله ، ولم
يصب بمصيبته حتى يعلم قدر ما هو فيه ، ولا يلومه ، ولو أصيب لعلم قدر ما هو =

(١) بضم الخاء ، وسكون اللام لضرورة الشعر .

(٢) وهذا من المجربات الصحيحة إن شاء الله تعالى ، ولكن الشرط الأكبر فى هذا صدق النية
وبركة الفاعل .

وقد ورد فى كتب التاريخ أن ملكاً من ملوك الروم أرسل إلى سيدنا عمر رضى الله عنه يطلب
منه الدواء من صداع فى رأسه ، فكتب إليه سيدنا عمر ورقة فيها « بسم الله الرحمن الرحيم »
وضعها فى قلنسوته التى كان قد بعثها مع رسوله ، فلما وضعها على رأسه ذهب الصداع ، فلما
رفعها رجع كما كان ، ثم فعل هذا مراراً ، وأخيراً فتح القلنسوة فوجد فيها بسم الله الرحمن الرحيم
ويقال إن الرجل أسلم فى هذا الوقت . والله تعالى أعلم .

مَحْضَتْنِي النَّصْحَ ، لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ الْمَحِبَّ عَنِ الْعَدَاةِ فِي صَمِّ (١٢)

= فيه ولم يلح ، هذا كله إن فسر عدتك بمعنى جاوزتك ، كما تقرر ، فإن فسر بمعنى تعدت إليك ، أى وصلت إليك ، كما قاله بعض الشارحين ، كان القصد الدعاء عليه لا له ، أو الاستفهام عن ذلك بتقدير همزة الاستفهام ، والمعنى عليه : أوصلت إليك حالى حتى تلومنى ؟ .

وقوله : « لا سرى بمستتر عن الوشاة » مستأنف استئنافاً بيانياً ، لأنه واقع فى جواب سؤال مقدر ، فكأن اللاتم قال له : وما حالك التى استعظمتها ؟ فأجابه بذلك . والسر ما يكتمه الشخص عن غيره ، والوشاة جنع واش ، وهو الذى يشى الحديث بين المحب والمحبوب ، أى يزينه ويزخرفه لأجل الفساد بينهما ، ومن المعلوم أن الوشاة أعداؤه فاطلاهم على سره يسيئته ، وقوله : ولا دائئ بمنحسم ، أى ولا دائئ الحاصل بسبب الحب بمنقطع بوصل المحبوب وموانسته ، كما هو شأن المحب ، فإنه إذا اشتد عليه الحال ، وواصله المحبوب وآنسه ، انقطع داؤه ، لكن هذا أمر أغلبي ، وإلا فهناك من يزيد عليه الحال بوصل المحبوب وموانسته .

(١٢) (قوله محضتني النصح إلخ) لما لم يفد معه الاستعطاف فلم يرجع عن اللوم ، اعترف له بأنه أخلص له فى النصح ، من باب التسليم الجدلى ، ليستريح منه ، فقال « محضتني النصح » إلخ أى أخلصت لى النصح عن الأغراض كالاتفات إلى المحبوب ، فإذا كان اللاتم له التفات إلى المحبوب ، لم يخلص النصح عن الأغراض ، بل له فيه غرض ، وهو اختصاصه بالمحبوب ، بخلاف ما إذا كان ليس له التفات إلى المحبوب ، فإنه قد أخلص النصح ، وما هنا من هذا القبيل ، على التسليم الجدلى .

وقوله « لكن لست أسمع » استدراك على قوله محضتني النصح ، والمنفى إنما هو سماع القبول ، وإلا فقد يسمعه ، بل قد يتلذذ به ، وقوله : « إن المحب » إلخ تعليل لقوله لكن لست أسمع ، فكأنه قال إنما لم أسمع لأن المحب إلخ . وفى الحديث « حبك للشىء يعمى ويصم » (١) أى يعميك عن رؤية عيوبه ، ويصمك عن سماعها . =

(١) رواه الإمام أحمد ، والبخارى فى التاريخ ، وأبو داود عن أيوب ، والخرائطى فى « اعتلال القلوب » عن أبى برزة وابن عساكر عن عبد الله بن أنيس ، رضى الله عن الجميع .

إِنِّى أَتَهَّمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذْلِ وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نَصْحٍ عَنِ التُّهْمِ (١٣)

= وقوله عن العذل : على تقدير مضاف ، أى عن نصيحهم ، والعذل جمع عاذل ، وهو اللائم فى الحب ، وقوله فى صمم لا يخفى ما فيه من المبالغة ، لأنه بالغ فى الصمم ، حتى كأنه محيط بالمحب ، وجعله طرفاً له ، والصمم : ضعف فى قوة السمع ، فوق الوقر (٢) ودون الطرش ، ودون الصنج (٣) أيضاً كما علم بالأولى ، ولذلك قال الثعالبي : « يقال فى أذنه وقر ، فإن زاد فهو صمم ، فإن زاد فهو طرش ، فإن زاد حتى لا يسمع الرعد فهو صنج » ، وإنما خص المصنف الصمم بالذكر دون غيره ، وإن كان كل من الطرش والصنج أعلى منه ، لأنه هو الذى تستقيم عليه القافية .

(١٣) (قوله إِنِّى أَتَهَّمْتُ إلخ) لما اعترف له على طريق التسليم الجدلى ، بأنه محضه النصح فلم يرجع عن اللوم ، اتهمه فى عذله ، فكأن السائل قال له : كيف تتهمنى فى العذل ؟ فقال له إِنِّى أَتَهَّمْتُ إلخ ، أى فإذا اتهمت نصيح الشيب فى عذله على فى الهوى ، والحال أن الشيب أبعد عن التهم فى النصح ، فكيف بالعاذل الذى ليس أبعد عن التهم فى النصح ، بل من شأنه أن يتهم فيه ؟ .

والإضافة فى قوله « نصيح الشيب » للبيان ، أى نصيحا هو الشيب ، أو من إضافة الصفة للموصوف أى شيبا ناصحا ، وإنما كان الشيب ناصحا ، لأنه يدل على قرب الأجل ، وحصول الموت الموجب لترك دواعى الشباب واشتغال العبد بما يقربه لمولاه زلفى ، وإنما دلّ على ذلك ، لأنه ليس بعد بياض الزرع إلا حصاده ، فهو ناصح بلسان الحال ، وقد قيل فى قوله تعالى ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ (٤) إنه الشيب .

وقوله « فى عذل » متعلق باتهمت أى اتهمته فى لومه على فى الهوى ودواعى الشباب ، وهو بفتح الذال المعجمة لغة فى العذل (بسكونها) ، وقوله « والشيب أبعد فى نصح عن التهم » : أى والحال أن الشيب أبعد عن التهم فى النصح ، فالوإو للحال .

(١) بمعنى خلص . بفتح الخاء واللام ، والمقصود هنا الشيب الخالص الذى لا سواد فيه .

(٢) قال فى القاموس المحيط : « الوقر » - يفتح الواو وسكون القاف - ثقل فى الأذن ، أو ذهاب السمع كله . (٣) يفتح الصاد والتون : ذهاب حاسة السمع .

(٤) فاطر : ٣٧

فَإِنْ أَمَارَتِي بِالسَّوِّ مَا اتَّعَظْتُ مِنْ جَهْلِيهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ (١٤)

= وقائدة هذين البيتين أنك إذا أحببت شخصاً في الحلال وتستحي منه ومن الناس أن تكلمه فاكتهما في ساعة الزهرة ، في صحفة من نحاس ، وامح تلك الصحفة بماء المطر ، واشربها ، فإنك تقوى على المحبوب وتجتمع به ، ولا تختشى من أحد أبداً ، وتفشى إليه سر ، وتبلغ منه مقصودك إن شاء الله تعالى (١) .

(١٤) (قوله فَإِنْ أَمَارَتِي الْإِخ) هذا تعليل للبيت قبله ، فكأنه قال : إنما اتهمت نصيح الشيب في العذل ولم أقبل نصحه ، لأن أمارتي الْإِخ ، واستشكل قوله « أمارتي » بأن فيه اتحاد الأمر والمأمور ، لأن نفس الشخص هي هو ، وأجيب بجوابين : أحدهما أن النفس باعتبار تعلقها بالمخالفة أمر ، وباعتبار تعلقها بالصواب مأمور ، فهما مختلفان بالاعتبار ، وثانيهما أن الأمر النفس ، والمأمور البدن ، فالنفس مستولية بسلطانها على البدن ، فتصرفه في شهواتها ، والامارة من أنواع النفس ، وهي التي تأمر بالمخالفة ، فلا يلوح لها طمع إلا فعلته ، ولا برزت لها شهوة إلا قضتها ، فلم تسلك سبيل الرشاد ، ولم تستضيء (*) بنور السداد ، وقد ذكرها الله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسَّوِّ ﴾ (٢) ومنها اللوامة ، وهي التي ترجع باللوم على صاحبها كثيراً عند الوقوع في المعصية لسابقة القضاء ، ومنها المطمئنة ، وهي التي اطمأنت للإيمان وللتصديق بوعد الله ، فهي دائماً موفقة للطاعة ، مصدقة لبقاء الله تعالى ، وقد ذكرها الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (٣) الآية . وقوله : « بالسوء » متعلق بأمارتي ، والسوء : القبيح ، وقوله « ما اتعظت » خبر إن ، أي ما قبلت الوعظ ، وقوله : « من جهلها » أي من أجل جهلها ، فهو تعليل لقوله « ما اتعظت » وإنما ويخ نفسه على عدم الاتعاظ بسبب جهلها لأنه قادر على دفع الجهل بتحصيل أسباب العلم ، وقوله « بنذير » متعلق باتعظت أو بجهلها . ونذير : إما بمعنى الإنذار فيكون مصدراً ، وعلى هذا فالإضاقة في قوله « نذير الشيب والهرم » من إضافة المصدر لفاعله ، أو بمعنى المنذر ، فيكون اسم فاعل ، =

(١) بشرط أن يكون الحب لله وفي الله ، وليحذر المسلم من استعمال هذه الأشياء فيما حرم الله ، فإنها نكبة عليه وعلى محبوبه ، وقد جرب أناس ذلك فأصيبوا بالدمار الكامل ، والله يتولى هداك .
(٢) سورة سيدنا يوسف صلى الله عليه وسلم ، الآية : ٥٢ (*) في الوهية « لم تضيء » .

(٣) سورة الفجر ، الآية ٢٧

وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قَرَى ضَيْفٌ أَلَمْ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمٍ (١٥)

= وعلى هذا فالإضافة فى قوله « نذير الشيب والهزم » من إضافة الصفة للموصوف ، أو للبيان ، وكان عليه أن يقول بنذيرى الشيب والهزم ، إلا أن يقال الإضافة للجنس فيصدق النذير بالمتعدد ، أو إنه حذف من الثانى لدلالة الأول ، والأصل بنذير الشيب ونذير الهزم .

وهذا البيت والاثنان بعده خاصيتهما أن من كانت نفسه غالبية عليه ، وامتنعت من التوبة وعجز عن مخالفة النفس ، فليكتب الأبيات الثلاثة يوم الجمعة بعد الفراغ من صلاتها ، ومحورها بماء الورد ، ويشربها فإذا شربها استمر جالساً مستقبل القبلة ، حتى يصلى العصر والمغرب ، ويذكر الله تعالى ، ويكرر هذه الأبيات فى بعض الأوقات أيضاً فإنه لا يفارق هذا المجلس إلا وقد تأدبت نفسه وحسن حالها إن شاء الله تعالى ، ويوفقه الله للتوبة .

(١٥) (قوله ولا أعدت إلخ) عطف على قوله ما اتعظت من قبيل عطف الخاص على العام ، لأن الاتعاظ يكون بالاثنيان بالأعمال الحسنة والاجتناب عن الأفعال القبيحة ، وأما إعداد القرى فلا يكون إلا بالأول فقط ، والإعداد التهيئة ، يقال أعد واستعد ، بمعنى هيا ، وقوله « من الفعل الجميل » أى من الأعمال الصالحة ، وهو بيان مقدم لقوله « قرى ضيف » مشوب بتبعيض ، وقرى الضيف بكسر القاف إكرامه ، وفيه استعارة مصرحة مرشحة لأنه شبه الشيب بالضيف بجامع الطرو فى كل ، فإن سواد الشعر كان ملازماً للإنسان ، فلما تبدل بالشيب كان كالضيف فى طروه على الشخص بعد أن لم يكن ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، وذكر القرى ترشيحاً للاستعارة ، ولما كان الشيب نذيراً بانقضاء العمر ، صار بلسان حاله طالباً للأعمال الصالحة ، التى هى زاد الآخرة ، كما يطلب الضيف قراه تصريحاً أو تلويحاً ، وقوله ألمّ بتشديد الميم ، بمعنى نزل ، وقوله برأسى ، أى فى رأسى ، فالباء بمعنى فى ، وقوله غير محتشم أى غير مستحى وهو حال من الضمير الفاعل بألم ، وإنما كان غير محتشم لأن من آداب الضيف أن لا يكثّر الإقامة عند من أضافه ، فمن أكثرها عنده كان غير محتشم ، والشيب إذا نزل لا يرتحل إلا بالموت ، فهو غير محتشم ، فعلى العاقل أن يستعد بالأعمال الصالحة لضيافته ، فإن آخر الاستعداد إلى نزوله ، فقد لا يتمكن من شىء من الأعمال لسرعة الرحيل ، وضيق الوقت .

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوقِرُهُ كَتَمْتُ سِرّاً بَدَأَ لِي مِنْهُ بِالْكَتْمِ (١٦)
مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا كَمَا يُسَرِّدُ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللَّجْمِ (١٧)

(١٦) (قوله لو كنت أعلم إلخ) لما بين أن نصيح الشيب لا ينبغي أن يُهْمَلَ ، واعتذر عن عدم قبوله بالنفس الأمانة ، ورأى من سوء العتاب وتقبيح الفعال من الناس ما لم يكن رآه ، قال لو كنت أعلم إلخ . والعلم والمعرفة بمعنى واحد على الصحيح . وقوله « أنى ما أوقره » أى أنى ما أعظمه بفعل الجميل وترك التقبيح استحياء منه . وقوله « كتمتُ سراً » أى أخفيتهُ ، والمراد بالسر الشيب الذى يظهر أولاً ، وإنما سُمِّيَ سراً لأنه قبل ظهوره يكون خفياً ، كحديث النفس الذى لم يظهر ، وقوله « بدا لى » أى ظهر لى ، وقوله « منه » أى من الشيب ، وقوله « بالكتم » متعلق بكتمت ، والكتم (بفتح التاء) نبت يخلط بالحناء ، ويخضب به الشعر فيبقى لونه كما فى القاموس ، وقد قيل « شيطان عجيبان هما أبرد من يخ : شيخ يتصاوى ، وصبى يتمشيخ » و . يخ : اسم لبئر شديدة البرودة ، كذا نقل عن بعض الأسياف . وقال بعض أهل العلم هو اسم لدود يكون فى الثلج الذى هو شديد البرودة ، وذلك الدود أشد برودة من الثلج .

وإنما قيد بقوله « لى » لأنه إذا نزل الشيب بالشخص ظهر له أولاً فى الغالب لاهتمامه بشأن نفسه ، ويحتمل أنه من البيان بعد الإجمال على حد « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى » (١) .

وفى هذا البيت تنبيه على توقير الشيب وقد سماه الله تعالى وقاراً ، فقد روى أن أول من رأى الشيب إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فقال : ما هذا يارب ؟ فقال الله تعالى : وقار يا إبراهيم ، فقال : يارب زدنى وقاراً ، فأصبح وقد عمه الشيب « وفى الحديث القدسي « الشيب نورى » (٢) .

(١٧) قوله « من لى » إلخ ... لما لم تتعظ النفس بواعظ الشيب ، استفهم على سبيل الاستعطاف عمن يتكفل له برَدَّ جماعها بالمواعظ السننية والأسرار الربانية . فقال « من لى » إلخ أى من يتكفل لى إلخ ؟

(١) سورة طه - صلى الله عليه وسلم - الآيتان : ٢٥ و ٢٦

(٢) فى كشف الخفا ومزيل الإلباس :

« عن أنس ، رفته : يقول الله عز وجل « الشيب نورى والنار خلقى ، وأنا استحي أن أعذب نورى بنارى » .

فلا تَرُمُ بِالْمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا إِنَّ الطَّعَامَ يَقْوَى شَهْوَةُ النَّهْمِ (١٨)
والنفسُ كالطفلٍ إِنْ تَهْمَلَهُ شَبٌّ عَلَى حُبِّ الرُّضَاعِ وَإِنْ تَقْطِمَهُ يَنْقَطِمِ (١٩)

= وقوله « برد جماح من غوايتها » أى بصرف قوة وغلبة ناشئة من ضلالتها ، فالجماح بمعنى القوة والغلبة ، والمراد برده صرفه ، وغوايتها بفتح الغين المعجمة ، بمعنى ضلالتها ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للجماح ، أى جماح ناشئ من غوايتها ، وقوله « كما يرد جماح الخيل باللجم » أى رداً مثل ردّ جماح الخيل باللجم فى القوة والعنف ، حيث لم ينفع واعظ الشيب ، فالكاف بمعنى مثل ، وما مصدرية ، واللجم جمع لجام ككتيب جمع كتاب ، وفى هذا البيت إشارة إلى أن السلوك لا يتم إلا بشيخ عارف ؛ لأن النفس ربما تستحسن أمراً ، فيكون الهلاك فيه ، فالشيخ العارف كالطبيب الماهر .

وفائدة هذا البيت والاثنين بعده أن من أكثر تلاوتها عند شروعه فى إزالة منكر مفتتحاً بتلاوتها عشر مرات ، فإنه يرى الهيبة والقبول بالكمال بإذن الله تعالى .

(١٨) قوله « فلا ترم بالمعاصى إلخ » لما استفهم عن يرد جماح نفسه ردّاً عنيفاً استشعر شخصاً قال له : لا حاجة إلى ردّها لأنك إذا أعطيتها ما تتمناه من المعاصى انكسرت شهوتها ، فردّ عليه ذلك بقوله : « فلا تَرُمُ بِالْمَعَاصِي » إلخ ، أى لا ترجو ولا تتوقع بتمكينها مما تتمناه من المعاصى دفع شهوتها ، لأنها إذا ألقت المعاصى قويت شهوتها ، وقد استدل على ذلك بقوله « إن الطعام يقوى شهوة النهم » أى إن الطعام يزيد فى شهوة النهم بتشديد النون وكسر الهاء ، الذى هو شديد الشهوة إلى الطعام ، فتمكينه منه يزيد فى شهوته إليه ، وكذلك النفس تمكينها من المعاصى يزيد فى شهوتها إليها ، واعترض بأن النهم إنما تقوى شهوته إلى الطعام إذا لم يشبع منه ، وأما إذا شبع منه فقد أخذ حاجته . وأجيب بأن المعدة تنفتح أبداً لما يلقي فيها من الطعام ، إلا لما نزع ، وقوتها الجاذبة لا تزال ، وإن امتلأت ، لا سيما معدة النهم .

(١٩) قوله « والنفس كالطفل كالطفل إلخ » : شبه النفس بالطفل فى عدم الملل والنسامة بالاستمرار على المألوفات ، فكما أن الطفل إن تركته على ما ألفه من الرضاع دام على حبه ، وإن منعه عنه امتنع ، كما ذكره بقوله : « إن تهمله » إلخ ، كذلك النفس إن تركتها على ما ألفته من المعاصى دامت على حبه ، وإن منعتها عنه امتنعت ، =

فَاصْرِفْ هَوَاها وَحَاذِرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ إِنَّ الْهَوَى ما تَوَلَّى يَصْمُ أو يَصِمُ (٢٠)

= وقوله : « إن تهمله » أى تتركه على ما ألفه من الرضاع ، وقوله : « شب على حب الرضاع » أى كبر حال كونه مشتملا على حب الرضاع ، وقوله : « وإن تفظمه ينفطم » أى وإن تفصله وتمنعه عن الرضاع انفصل وامتنع عنه ، وصار غير طالب له قال فى المصباح : فطمت المرأة الرضيع فطما من باب ضرب : فصلته عن الرضاع ، فهى فاطمة ، والرضيع فطيم ، والجمع فطم بضمين مثل بريد ويرد أ ه . وعلم من ذلك أن « تفظمه » بكسر الطاء .

واعلم أن النفس لطيفة ربانية ، وهى الروح قبل تعلقها بالأجساد ، وقد خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفى عام ، فكانت حينئذ فى جوار الحق وقربه فتستفيض من حضرة بلا واسطة ، فلما أمرها الحق أن تتعلق بالأجساد عرفت الغير فحجبت عن حضرة الحق ، بسبب بعدها عنه تعالى ، فلذلك احتاجت إلى مذكّر ، قال تعالى : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) فهى قبل تعلقها بالجسد تسمى روحاً ، وبعد تعلقها به تسمى نفساً ، فالاختلاف بينهما اعتبارى . والطفل بكسر الطاء المهملة : الصغير ذكراً كان أو أنثى .

(٢٠) قوله « فاصرف هواها » إلخ أى إذا علمت ذلك فاصرف هواها إلخ ، فالفاء فاء الفصيحة ، وإنما لم يقل فاصرف النفس عن هواها كما هو مقتضى الظاهر ، لأنه نظر لكونها تابعة لهواها لا تخالفه أبداً ، فلا يمكن صرفها عن هواها ، وإنما الممكن صرف هواها ، بمعنى عدم اتباعه ، فهى لا تخلو عن هوى أبداً ، لكن الشخص لا يتبعه ، وقوله « وحاذر أن توليه » أى واحذر أن تعطى هواها الولاية والإمارة عليك لأنه داع إلى الضلالة غير صالح للإمارة ، وإنما عبر المصنف بـ « حاذر » دون احذر ، تنبيهاً على أن النفس تراقب غفلة الشخص لتقع فى هواها فهى تحاذره كما يحاذرها ، فالمحاذرة من الجانبين ، وقد علل ذلك بقوله « إن الهوى » إلخ ، فهو فى قوة قوله لأنه جائر ظالم ، وقوله « ما تولى » ضبطه شيخ الإسلام (٢) بضم التاء والواو وكسر اللام مشددة ، على أنه مبنى للمفعول ، والشائع على الألسنة قراءته بفتحات ، على أنه =

(١) سورة النازيات ، الآية : ٥٥

(٢) هو شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصارى رحمه الله تعالى .

وَرَاعِهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ وَإِنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعَى فَلَا تُسَمَّى (٢١)

= مبنى للفاعل ، وكلٌ صحيح ، فالمعنى على الأول : ما ولاه الشخص ، وعلى الثانى : ما صار والياً ، و « ما » شرطية ، وقوله « يُصَمِّم » بضم الياء وسكون الصاد ، من أَصَمَّيْتُ الصَّيْدَ إِذَا رَمَيْتُهُ فَقَتَلْتَهُ (١) ، وقوله « أَوْ يَصُمِّم » بفتح الياء وكسر الصاد من وصمه إذا عابه ، فالمعنى إن الهوى إن ولاه الشخص يقتله أو يعيبه ، وفى هذا الكلام استعارة بالكناية وتخيل ، لأنه شبه هوى النفس بإنسان طالب للولاية والإمارة تشبيهاً مضمراً فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو منعه من الولاية والإمارة : حيث قال « فاصرف هواها وحاذر أن توليه » ورشحها بذكر أنه جائر ظالم ، لأنه إن تولى قتل أو عاب ، حيث قال : « إن الهوى ما تولى يصم أو يصم » فهى مرشحة لأنها قرنت بما يلائم المستعار منه ، ولما كان الهوى سبباً للهلاك أجمع على ذمه العارفون ، ووردت بذمه الآيات والأحاديث ، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً ، ومدخل الشر مسلوكة .

وقال ابن عباس « الهوى إله يُعبد من دون الله » وتلا قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » (٢) الآية .

وقال الشعبي : « إنما سُمِّيَ هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى النار » .

وبالجملة فالهوى أصل كل بلية ، والخلاص منه عسر جداً إلا بتوفيق من الله تعالى (٢١) قوله « ورَاعِهَا وهى إلخ » : لما كان ظاهر كلامه أن هوى النفس يصرف حتى عن الطاعة ، شرح الحال بقوله « ورَاعِهَا وهى » إلخ أى لاحظها والحال أنها فى الأعمال الصالحة سائمة كالبهيمة السائمة فى الكلال ، فالوَأْ لِّلْحَال ، وأل فى الأعمال للعهد ، والمعهود الأعمال الصالحة أعم من أن تكون واجبة أو مندوبة ، وفى « سائمة » استعارة تصريحية تبعية ، لأنه شبه أخذ النفس فى الأعمال واشتغالها بسوم =

(١) وفى القاموس المحيط : « وأصمى الصيد : رماه فقتله مكانه » أ هـ .

وفى الحديث الشريف الذى رواه الطبرانى ، قال صلى الله عليه وسلم :

« كُلُّ مَا أَصَمَّيْتُ ، ودع ما أنفيت » ومعنى أنفاه : رماه فأصاهه ، ثم ذهب عنه فمات بعيداً عنه ، والمعنى : كل ما رأيته بعينك حين رميته فمات ، ودع عنك ما غاب لأنك لا تدري أصاده سهمك ، أو كلبك ، أو مات بسبب آخر . (٢) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣

كَمْ حَسَنَتْ لَذَّةَ لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ (٢٢)

= البهيمة فى الكلا ، بجامع عدم معرفة الصلاح فى كل ، واستعار السوم للأخذ والاشتغال ، واشتق منه سائم بمعنى آخذة ومشتغلة ، وإنما أمر بملاحظتها وهى مشتغلة بالطاعة ، لأنه قد يكون لها حظ فيها ، كرىاء وحب محمدا وشهرة ، ولذلك قال « وإن هى استحلّت المرعى فلا تسم » بضم التاء وكسر السين ، أى وإن هى وجدت المرعى حلوا فلا تبقىها فيه ، لأنها لا تميل إلى الطاعة لذاتها ، بل لغرض فيها ، فتنقلب الطاعة معصية ، بل قد تكون أعظم مفسدة من المعصية ، كما يشير لذلك قول صاحب الحكيم (١) :

« رَبِّ مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًا وَانْكَسَارًا خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا » .

وفى بعض الآثار « أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود قل للعاصين المخبتين أبشروا ، وقل للعابدين المعجبين اخسؤا » .

ومن المعلوم أن أداة الشرط وهى « إن » هنا من خواص الفعل ، فقله و « إن هى » أصله وإن استحلّت ، حذف الفعل فانفصل الضمير ، وقله « استحلّت » مفسر للفعل المحذوف ، على حد قوله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك » (٢) . وفى قوله « فلا تسم » استعارة بالكناية وتخيل ، لأنه شبه النفس بالبهيمة ، بجامع عدم معرفة الصلاح فى كل ، تشبيها مضمرا فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به وذكر المرعى ترشيح ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو الإسامة .

(٢٢) قوله « كم حسنت إلخ » هذا البيت استشهاد على البيت قبله ، و « كم » خيرية بمعنى كثيرا ومميزها محذوف ، والتقدير كم مرة ، أى كثيرا من المرات ، وقوله « حسنت لذة للمرء قاتلة » أى عدت لذة قاتلة حسنة للشخص رجلا كان أو امرأة ، فللذة مفعول لحسنت ، وقاتلة صفة لها ، وهذا الصنيع أولى من جعل لذة تمييزا =

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه من أعلام متصوفى القرن السابع الهجرى توفى عام ٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م .

والمقصود أن المعصية إذا أعقبتها طاعة وتدم على ما فعل : ذل وانكسر صاحبها ، فكانت خيرا من طاعة ، يرى الناس أنها طاعة ، وإنما أراد صاحبها تكبرا على عباد الله بإظهار الطاعة ، فكانت المعصية التى تورث الطاعة على هذه الصفة خيرا من هذه الطاعة التى ظاهرها رحمة وباطنها عذاب .

(٢) سورة التوبة الآية : ٦

وَإِخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ قُرْبُ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التَّخَمِ (٢٣)

= لـ « كم » ، وجعل مفعول حسنت محذوفاً ، وإن جرى عليه بعض الشارحين ، وقد بين وجه كون اللذة قاتلة بقوله « من حيث لم يدر أن السم في الدسم » أى من جهة ، وتلك الجهة هى كونه لم يعلم أن السم (بتثليث أوكه) مدسوس فى الدسم الذى هو الدهن ، وخص السم بالذكر لأنه قاتل ، وخص الدسم بالذكر لأنه يعلو الأشياء فيستر ما تحته ، والمراد بالسم هنا حظ النفس ، والمراد بالدسم هنا الطاعة ، ففى كلامه استعارتان مصرحتان ، أما الأولى فلأنه شبه حظ النفس بالسم بجامع الضرر فى كل ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، وأما الثانية فلأنه شبه صورة الطاعة بالدسم ، بجامع أن كلا سائر لغيره ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، والحاصل أن النفس لها حظ فى الطاعة كما أن لها حظاً فى المعصية ، بل حظها فى الطاعة أشد ، لأن حظها فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعة باطن خفى .

وفائدة هذه الأبيات الثلاثة التى أوكها : فاصرف هواها إلخ أن من وأظب على قراءتها خلف كل صلاة مكتوبة عشرين مرة ، استقام أمره على الكتاب والسنة ، وجعله الله آمناً من الأهواء والبدع .

(٢٣) قوله « وإخش الدسائس إلخ » أى خف المكائد التى تخفيها النفس فى الجوع والشبع ، فالدسائس من الجوع ، كالحدة وسوء الخلق ، والدسائس من الشبع كالكسل عن العبادة ، والكلام فى الجوع والشبع المفرطين ، لأن المذموم منهما ليس إلا المفرط ، وأما المعتدل الذى بين الإفراط والتفريط فمدوح ، كما يشير لذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ (١) هذا على كون الجوع والشبع على ظاهرهما ، ويحتمل أن المصنف كنى بالجوع عن قلة العبادة ، وبالشبع عن كثرتها ، لأن قلة العبادة تثول إلى الجوع فى الآخرة ، وكثرة العبادة تثول إلى الشبع فى الآخرة ، فالدسائس من الجوع بمعنى قلة العبادة ، كالميل إلى الراحة ، وترك العبادة بالكلية ، والدسائس من الشبع بمعنى كثرة العبادة ، كحب الشهرة ، والمحمدة ، وهو مفسدة عظيمة ، لأنه حينئذ يكون قاصداً بالعبادة غير وجه الله تعالى ، ولما كان قد يقع فى بادى (٢) رأى أن الجوع لا دسائس فيه ، لأن العرب والحكماء تمدح بقلة الأكل ، =

(١) سورة الأعراف الآية : ٣١

(٢) ظاهر .

وَاسْتَفْرِغِ الدَّمَعَ مِنْ عَيْنٍ قَدْ اَمْتَلَأَتْ مِنَ الْمَحَارِمِ وَالزَّمِ حِمِيَةَ النَّدَمِ (٢٤)

= وتندم بكثرتة ، وحيثئذ فلا وجه للتحذير من مكائد الجوع ، دفع المصنف ذلك بقوله : « قرب مخمصة شر من التخم » فكأنه قال : لا تستبعد ذلك ، إذ رُبُّ مجاعة مفرطة شر من كثرة الأكل ، باعتبار الآفات المترتبة عليها ، فالعبادة قد لا تحصل بالكلية مع الجوع المفرط ، وتحصل مع كثرة الأكل ، وإن كان فيها كسل ، ولا شك أن ترك العبادة بالمرة شر من الكسل فيها ، هذا على أن المراد بالجوع والشبع حقيقتهما ، وأما على أن المراد بالجوع قلة العبادة ، وبالشبع كثرتها ، فكأنه قال لا تستبعد ذلك إذ رب عمل قليل شر من عمل كثير ، فإن النفس قد تزين له قليل العبادة ، كأن تقول له : لازم القليل من العبادة وداوم عليه ، لأن الكثير يضر البدن ، فيؤدى إلى العجز بالكلية ، وربما يكون فيه الرياء ، وقصدها بذلك الراحة ، وقد تزين له كثير العبادة ، كأن تقول له : عليك بالكثير من العبادة ، ليكثر ثوابك ، وقصدها بذلك أن تمجد عند الناس ، وتعظم عندهم ، وهذه مفسدة عظيمة ، لكن مع الاستكثار من العبادة قد يسلم كثير منها ، بل قد ينصلح باطنه فى آخرة أمره .

وقد كان بعض المشايخ يقول : عليكم بإصلاح ظواهركم ، فإنه يوشك أن تنصلح بواطنكم .

وحكى أن رجلا تعبد سنين ليشتهر بذلك ، وتودّع عنده الأمانات فينتفع بها ، فلم يودّع عنده شيء ، فلما طال عليه الأمر وبخ نفسه ، وتاب إلى الله تعالى ، فلما أصبح أتى بأمانته ، فقال لصاحبها : « ما كان بيننا وبينها إلا ظلام الليل ، اذهب بسلام » .

و « رب » هنا للتقليل ، والمخمصة : المجاعة ، والتخم : بضم التاء وفتح الحاء جمع تخمة ، وهى فساد المعدة بالطعام وقيل فساد الطعام فى المعدة ، وفسرت أيضاً بأنها ضد المخمصة ، وهذا قد يقتضيه كلام المصنف ، وتعقب بأن ضد المخمصة الشبع وإن لم يحصل تخمة .

وهذا البيت ، والذي بعده خاصيتهما أن من قسا قلبه ، واستولت عليه نفسه ، وكررها ليلة الجمعة عند السحر ، فإنه لا يصيح إلا وقد رأى رقعة فى قلبه ، وكسراً فى نفسه ، ونهوض أعضائه فى العبادة ، وندم على ما فرط ، وتاب الله تعالى عليه .

(٢٤) قوله « واستفرغ الدمع إلخ » أى أفرغ الدمع بالبكاء أو اطلب فراغه بذلك ، فالسين والتاء إما زائدتان ، وهو الأظهر ، أو للطلب ، وقوله « من عين قد امتلأت من المحارم » من الأولى ابتدائية ، والثانية تبعيضية ، وامتلاء العين من المحارم ، كناية =

وخالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النَّصْحَ فَاتَّهِمَ (٢٥)

= عند الفقهاء - عن كثرة النظر بها لما لا يجوز شرعاً ، وعند الصوفية وأهل الحب : رؤية الأغيار بها ، ولذلك يقال للعارف « أدبٌ عينيك بدمع الندامة إذا نظرت لغير ذلك الجمال ، واقصر نظرك على كمال الكبير المتعال » . ولم يزل السلف الصالح يبيكون على ما حصل منهم ، والبكاء على الخيبة معظم العزم حتى قال بعضهم « لو لم يبك الإنسان إلا على ما ضاع من عمره النفيس من غير طاعة لكفاه » . وقال سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم « طوبى لمن بكى على خطيئته » .

وكان عليه الصلاة والسلام كثير البكاء ، وقيل في قوله تعالى : « فيهما عينان تجريان » (١) إنهما لمن له في الدنيا عينان تجريان .

وقوله « والزم حمية الندم » أى والزم حماية الندم لك عن المحارم ، ويحتمل والزم الندم الحامى لك عن عقاب المحارم ، والمراد من الندم التوبة المستكملة للشروط الشرعية ، وإنما عبر بالندم لأنه العمدة فى التوبة ، ولذلك ورد : « الندم توبة » (٢) .

(٢٥) قوله « وخالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ إلخ » أى إذا أمرتك نفسك والشيطان بشيء ، أو نهتكَ نفسك والشيطان عن شيء ، فخالِفهما لأنها عدوك ، وقوله « واعصهما » أشار به إلى أنه لا يكفى مجرد مخالفتهما ، لأنه قد يخالفهما إلى ما يرضيان به ، بل لا بد من عصيانهما ، وإن خست المخالفة بالمكروه ، والعصيان بالمحرم كان من عطف المقايير ، وإن أبقيت المخالفة على عمومها ، وخص العصيان بالمحرم ، كان من عطف الخاص على العام ، للاهتمام بذلك الخاص ، وإنما قدم المصنف النفس على الشيطان لأنها أضّر منه ، وفتنتها أعظم من فتنته ، إذ هى عدوّ فى صورة صديق ، والإنسان لا يتنبه لمكائد الصديق ، وأيضاً هى عدوّ من داخل ، بخلاف الشيطان ، فإنه عدو ظاهر ، وقد قيل : الخروج عن النفس هو النعمة العظمى لأنها أعظم حجاب بين الشخص وبين الله تعالى .

(١) سورة الرحمن (جل وعلا) : ٥٠

(٢) قال رسول الله ﷺ : « الندم توبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له »

رواه الطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية

وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكَمًا فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ (٢٦)

= وقد سئل بعض الأشيخ عن الإسلام فقال : « ذبح النفوس بسيف المخالفة » .

وقال سهل بن عبد الله : « ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى » .

وبالجملة فمخالفة النفس رأس العبادة ، وأول مراتب السعادة ، وانظر فعل الشيطان مع أبيك ، وقد أقسم إنه له لمن الناصحين ، فكيف بك وقد أقسم إنه ليفريقك ١ . وقوله « وإن هما محضاك النصح فاتهم » أى وإن هما أخلصا لك النصح فيما أبدياه لك ، كأن يقول لك تمتع بهذه الشهوة ، لكى تتوجه إلى الطاعة فارغ القلب ، أو يقول لك أرفق على نفسك فى العبادة لتدوم عليها ، أو أكثر من العبادة لتفوز بالدرجات العلى ، أو نحو ذلك ، فاتهمهما بأن تنسبهما إلى الخيانة ، لأن مرادهما بذلك الخديعة والمكر ، وقد تقدم أن أداة الشرط وهى هنا ، « إن » من خواص الفعل ، فقوله « وإن هما » أصله ، وإن محضا حذف الفعل ، فانفصل الضمير ، والفعل المذكور تفسير للمحذوف : على حد قوله تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك ﴾ (١) وعبر المصنف بأن التى للشك ، إشارة إلى أن إخلاصهما النصح أمر مشكوك فيه ، بل لا يفرض إلا كما يفرض المحال ، إذ لا يصدر منهما إلا الغش ، ولذا قيل : « إن الشيطان يفتح للإنسان تسعا وتسعين بابا من الخير ، ليوقعه فى باب من الشر » .

وخاصية هذا البيت والذي بعده : أن من واطب عليهما غلب نفسه وشيطانه ، ورزقه الله الحفظ منهما إن شاء الله تعالى .

(٢٦) قوله « ولا تطع منهما إلخ » هذا البيت تأكيد للبيت قبله ، ومعناه أنه إذا تخاصم العقل مع النفس ، وجعلا الشيطان حكما ، أو تخاصم العقل مع الشيطان ، وجعلا النفس حكما ، فلا تطع واحداً من النفس والشيطان ، لا الخصم ولا الحكم ، لأن كلا منهما يدعو إلى الشر ، وأما العقل فيدعو إلى الخير ، فإذا تخاصم العقل مع أحدهما ، كان الحكم مع خصم العقل ، لأنه من ناحيته ، فلا يحكم إلا بما هو على مراده . وقيل : صورة كون أحدهما خصماً والآخر حكماً أن أحدهما يزين لك الإقدام على المعصية ، وأنت تمتنع من ذلك ؛ لما تعلم من سوء العاقبة ، فقد صار خصماً لك ، ثم بعد الإقدام على المعصية يزين أحدهما لك البقاء عليها ، وأنت تريد الخروج منها ، فيضرب لك أجلا بعد أجل ، كما يفعله الحكام ، فقد صار حكماً فى ذلك . =

(١) التوبة : ٦

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِلاَ عَمَلٍ لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عَقْمٍ (٢٧)

= وبما تقرر : علم أن الخصم قد يكون النفس ، والحكم الشيطان ، وبالعكس . و « من » في قوله منهما للتبعيض ، والضمير فيه عائد للنفس والشيطان ، ولا في قوله « ولا حكماً » زائدة لتأكيد النهي ، وقوله « فأنت تعرف كيد الخصم والحكم » أي لأنك تعرف كيد الخصم والحكم من الناس ، وكيد النفس والشيطان أشد .

(٢٧) قوله « أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِلاَ عَمَلٍ » لما كان المصنف معترفاً بأنه غير عامل بقوله ، وقد قال تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) استغفر من ذلك حيث قال : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، والإنشاء ، وهو يطلب مفعولين ، ثانيهما مجرور بمن كما هنا ، ويجوز حذف من نحو استغفر الله ذنباً ، أي من ذنب ، وقوله « من قول بلا عمل » أي من قول مصحوب بعدم العمل ، أو متلبس بعدم العمل ، قالباً للملابسة ، أو المصاحبة ، و « من » للتعدي ، أو للتعليل ، وذلك كأن يأمر ولا يأتمر ، وينهى ولا ينتهى .

وظاهر كلام المصنف : أن الاستغفار من القول المذكور ، ووجه بعضهم بأن المتبادر من الأمر والنهي أن يكون الشخص مؤمراً بما أمر به منتهياً عما نهى عنه ، فإن لم يكن كذلك في الواقع ، كان أمره ونهييه رياءً ونفاقاً ، فيحتاج للاستغفار منه ، وبعضهم جعل الاستغفار منصباً على القيد فقط ، أعنى عدم العمل ، لأن القول في ذاته طاعة ، فلا يحتاج للاستغفار منه ، وعدم العمل ترك طاعة ، فيحتاج للاستغفار منه ، وهذا هو الموافق لمذهب أهل السنة ، من أنه لا يتوقف الأمر والنهي على العمل بهما ، لأن عدم الأمر والنهي معصية ، وعدم العمل معصية أخرى ، وتقليل المعاصي مطلوب ما أمكن ، ولذلك قالوا : « يجب على مدير الكاس الإنكار على الجلّاس ، ويجب على الزاني بامرأة أن يأمرها بستر وجهها » ومن هذا يعلم أن العالم الذي لا يعمل بعلمه خير من الجاهل ، وأما قول صاحب الزيد :

وعالم بعلمه لن يعملنْ معذبٌ من قبلِ عبادِ الوثنِ

فمحمول على علماء أهل الكتاب ، الذين غيروا وبدلوا ، وكنتموا الحق (٢) ، وقيل : إن تعذيبه من قبل عباد الوثن ، ليس لكونه أسوأ حالاً منهم ، بل للإسراع بتطهيره . =

(١) سورة الصف الآية : ٢

(٢) ولأن عابد الوثن إنما ضل على مرأى منه ، ولم يعلمه دين الحق الذي هو مكلف بإظهاره للناس ، والله تعالى أعلم .

أمرتك الخير ، لكن ما ائتمرت به وما استقممت فما قولى لك استقيم (٢٨)

= وقوله « لقد نسبت به نسلا لذى عقم » مستأنف استثنافا بيانيا ، لأنه واقع في جواب سؤال مقدر ، فكأنه قيل له لم استغفرت من ذلك القول ؟ فقال : لقد نسبت به نسلا لذى عقم ، أى لقد نسبت بهذا القول نسلا ، وهو الذرية لشخص صاحب عقم ، بضم القاف ، كما هو لغة فى العقم بسكونها ، وليس جمع عقيم لأن إضافة « ذى » إليه تمنع من ذلك ، لا يقال إن المصنف لم يقع منه نسبة نسل لذى عقم ، فكيف يقول : لقد نسبت به نسلا إلخ ؟ لأننا نقول : المعنى على التشبيه ، أى كإنى قد نسبت به نسلا إلخ ، ووجه ذلك أن المتبادر من الأمر والنهى أن يكون الأمر والنهى مؤتمرا منتهيا ، فذلك القول يتضمن نسبة العمل إلى القائل ، فإذا كان بلا عمل فقد أشبهه نسبة النسل لذى العقم ، وهو الذى لا يولد لمثله ، وذلك كذب يستغفر منه ، فكذا ما أشبهه ، وهذا يؤيد أن الاستغفار من القول المذكور ، وفى ذكر فضل الاستغفار طول يخرجنا عن المقصود .

وما أحسن قول القائل :

ولو أن فرعون لما طغى
وقال على الله إفكا وزورا
أناب إلى الله مستغفرا
لما وجسد الله إلا غفورا

(٢٨) قوله « أمرتك الخير إلخ » هذا البيت بيان للبيت قبله ، و « أمر » يتعدى لمفعولين ثانيهما بنفسه تارة كما هنا ، وبالباء تارة أخرى كما فى قولك « أمرت زيدا بكذا » ومراده بالأمر ما يشمل النهى ، كما فى قولهم أمر السلطان أن لا يؤذى أحد أحداً وأن يجامل فى المعاملة ، فاندفع ما يقال لم خص الأمر بالذكر ، مع إنه سبق منه أمر ونهى ؟ والمراد أمرتك بفعل الخير ، ونهيته عن تركه ، والخير ما له عاقبة محمودة .

وقوله « لكن ما ائتمرت به » أى لكن ما عملت به ، وقوله « وما استقممت » أى بفعل المأمورات وترك المنهيات ، لأن الاستقامة هى الاعتدال ، وعدم الاعوجاج ، وذلك يكون بفعل المأمورات وترك المنهيات .

وقد أمر الله نبيه ﷺ بها فى سورة هود وأخواتها . قال تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ (١) ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « شيبتنى هود وأخواتها » (٢) وقيل : =

(١) سورة سيدنا هود صلى الله عليه وسلم : ١١٢

(٢) رواه ابن مردويه فى تفسيره ، ولفظه : قيل يا رسول الله ، أسرع إليك الشيب ؟ قال : شيبتنى هود والواقعة وأخواتها .

ولا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً وَلَمْ أَصِلْ سِوَى فَرَضٍ وَلَمْ أُصِمْ (٢٩)

= قال ذلك لما فيها من الأخبار عن إهلاك الأمم الماضين ، وقوله « فما قولى لك استقم » أى فما ثمرة قولى لك استقم حيث لم استقم ؟ والاستفهام إنكارى بمعنى النفى ، أى لا ثمرة له ولا فائدة له ، لأنه لا ينفع غالبا إلا إذا استقام القائل ، ولذلك قيل فى هذا المعنى :

يا أيها الرجلُ المعلمُ غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواءَ الذى السقام وذى الضنى	كَيْمًا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ
ابدأ بنفسك فانها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُسَمَّعُ ما تقول ويُسْتَفَى	بالقول منك وينفع التعليمُ
لا تنه عن خلق وتأتى مثله	عارُ عليك إذا فعلت عظيمُ

فإن قيل : لَمْ يتقدم منه أمر بالاستقامة حتى يظهر قوله « فما قولى لك استقم » ؟ أجيب بأنه تقدم ضمنا ، لأنه يُعلم من كلامه السابق .

(٢٩) قوله « ولا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ إلخ » المراد بالتزود هنا العمل ، وإنما عبر بالتزود نظراً لكون الموت سفراً طويلاً محتوياً على الأهوال والمشاق ، والسفر المذكور يناسبه التزود ، قال تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (١) والذى عليه المحققون من المفسرين : أن المراد بالتزود أخذ الزاد الذى هو ما يوصلهم لمقصودهم ، والمراد بالتقوى فى هذه الآية ما يتقى به ذل السؤال . وقوله « نافلة » أى مستقلة ، فاندفع ما يقال : إن الفرائض مشتملة على النوافل ، فلا يتم قوله « ولا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً » مع كونه كان يفعل الفرائض ، وقد اشتهر أن النافلة يُجبر بها ما نقص من الفرائض ، لكن نقل القرطبى فى « التذكرة » عن الشافعى رضى الله تعالى عنه أن ذلك فيما نقص من الفرائض سهواً ، وأما ما نقص منها عمداً فلا يجبر بالنافلة ، وإن =

= وفى سنن الترمذى والحلية عن عبد الله بن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله قد شئت ؟ قال : شيبتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت « وصححه الحاكم ، وقال الترمذى حسن غريب ، وأخرجه ابن أبى شيبعة فى مسنده ، ورواه أبو يعلى ، وله ترجمة حافلة فى كشف الخفا ومزيل الإلباس ، فارجع إليه .

(١) سورة البقرة : ١٩٧

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى أَنْ اشْتَكْتَ قَدَمَاهُ الضَّرَّ مِنْ وَرَمٍ (٣٠)

= كثرت جدا ، وقوله « ولم أصل سوى فرض ولم أصم » إنما خص الصلاة والصوم بالذكر ، لأنهما محض عبادة بدنية ، وإنما سكت عن الإيمان لأنه لا يتنفل به (١) ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول ، أى ولم أصم سوى فرض ، لا يقال : يبعد أنه لم يقع منه صلاة السنن كالوتر وغيره ، وصوم السنن كصوم عاشوراء وغيره ، لأننا نقول إنما نفى ذلك تنزيلا لما فعله من النوافل منزلة العدم ، لانتهاهه نفسه فى الإخلاص فيه ، وما قيل من أنه كان إذا صلى نافلة نذرها أو صام نفلا نذره ، فهو بعيد .
وفائدة هذا البيت واللذين قبله ، أن من دخله العجب أو الرياء فى علم أو عمل ، كتبها عند طلوع الفجر ، وكررها إحدى وسبعين مرة ، ثم علق ذلك المكتتب على عضده الأيسر ، مانلا لجهة جنبه ، فإنه يتواضع حينئذ ، ويصير آمنا من العجب والرياء .

(٣٠) قوله « ظلمت سنة من إلخ » هذا تخلص للشروع فى المقصود ، وهو مدحه صلى الله عليه وسلم ، ولم يشرع فيه إلا بعد الوعظ والاستغفار والتدم ، تأهلا لمدح هذا الجناب الشريف ، ولما أخبر عن نفسه بما أخبر من كثرة التفريط ، وأخبر بأنه لم يتزود من النافلة ، حكم بأنه ظلم سنة سيد المرسلين ، أى جار فيها ووضعها فى غير موضعها ، لأن الظلم هو الجور ووضع الشيء فى غير محله ، والسنة لغة الطريقة ، وشرعاً الطريقة المسلوكة فى الدين من غير افتراض ولا وجوب ، و « من » واقعة على نبي ، وهو نبينا ﷺ ، وقوله « أحيا الظلام » أى أنار الليل المظلم بالصلاة فالمراد بالظلام المظلم ، والمراد بإحيائه إنارته بالصلاة إذ العبادة كما تؤثر النور فى وجه العابد ، تؤثر فى زمنها ، ولا يخفى أن فى كلامه استعارة تصريحية تبعية أو استعارة مكنية ، فيكون قد شبه الإنارة بالإحياء بجامع النفع فى كل ، واستعار الإحياء للإنارة ، واشتق من الإحياء بمعنى الإنارة أحيا بمعنى أنار ، أو شبه الظلام بمعنى الليل المظلم بميت يحيا تشبيها مضمراً فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الإحياء . وقوله « إلى أن اشتكت قدماء الضر من ورم » أى واستمر إحياءه ﷺ للظلام إلى ذلك ، فهو غاية فى الإحياء ، لكن =

(١) ولأن الذى يصلى الفرض ويصوم الفرض إنما هو المؤمن ، لا الكافر ، فلذلك لم يذكر الإيمان

لأنه ثابت فى قلبه والحمد لله .

وَشَدُّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءُهُ وَطَوَى
تَحْتَ الْحِجَارَةِ كَشْحاً مُتَرَفَّ الْأَدَمِ (٣١)

= لا مفهوم لهذه الغاية ، واشتكاء القدمين كناية عن شدة الألم الحاصل لهما من كثرة القيام ، على وجه المبالغة ، والورم ازدياد الحجم على غير اقتضاء طبيعى ، وسبب ورم القدمين من كثرة القيام : انصباب المواد التى فى أعالي الجسم إليهما لطول القيام ، فإنه ﷺ وإن لم يكن يزيد بالليل على اثنتى عشر ركعة ، لكن كان يطيل القيام فيها ، وقد روى المغيرة أنه قام ﷺ حتى تورمت قدماء ، فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أفلا أكون عبداً شكوراً » وفى رواية أنه قال له جبريل « أبقي على نفسك ، فإن لها عليك حقاً » ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ (١) . وفى هذا البيت مزيد التقرير لنفسه ، فكأنه يقول لها : ما بالك فى هذا التقصير وعدم الاقتداء به ﷺ فى كثرة عبادته ، وغلبة طاعته ، ولهذا اختار هذه الصفة من بين الصفات .

وخاصية هذا البيت والأربعة بعده أن من ثقل عليه قيام الليل ، وغلب عليه النوم والكسل ، ولا زالت نفسه تمتد لراحة الدنيا فليكتب هذه الأبيات فى لوح ، ويجعله عند رأسه ، فيتزين له حينئذ العمل الصالح ، وتحذره نفسه بأمر الآخرة .

(٣١) قوله « وشد من سغب إلخ » عطف على أحيا الظلام إلخ ، فهو عطف على الصلة فيكون صلة ، وإنما أتى بذلك نظراً لقوله فى البيت السابق « ولم أصم » عقب قوله « ولم أصل سوى فرض » وبهذا أظهر حكمة تخصيصهما فيما تقدم ، والشد : العصب والربط ، والسغب : بسين مهملة وغين معجمة الجوع ، و « من » الداخلة عليه للتعليل ، أى عصب وربط من أجل جوع ، وقوله « أحشاء » مفعول لشد ، والأحشاء جمع حشى ، وهو كما فى الصحاح ما انضمت عليه الضلوع ، وقيل : القلب ، وقيل : الأمعاء .

وفائدة هذا الشد انضمام الأحشاء على المعدة ، فتخمد الحرارة بعض خمود ، لأن المعدة إذا امتلأت بالطعام اشتغلت الحرارة بهضمه ، وإذا خلت عن الطعام طلبت الحرارة رطوبة الجسم ، فيتألم الإنسان ، فبالشد تضعف تلك الحرارة ، وقد روى الشد مسلم عن أنس قال : « جئت رسول الله ﷺ يوماً فوجدته جالسا مع أصحابه يحدثهم ، وقد عصب بطنه بعصاية ، فقالوا : من الجوع » .

(١) أول سورة طه (صلى الله عليه وسلم) .

ورأودته الجبال الشُّم من ذهبٍ عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيُّمَا شَمَمٍ (٣٢)

= وقوله « وطوى تحت الحجارة كشحا مترف الأدم » عطف أيضاً على الصلة ، والطى : اللف ، والكشع : الخاصرة ، والمترف الناعم من الترف ، وهو النعومة المفرطة ، والأدم : الجلد ، أى ولف تحت الحجارة خاصرة ناعمة الجلد نعومة مقرطة .

وفائدة هذا الطى : أن برودة الحجارة تخفف حرارة الباطن ، وقد روى البخارى الطى عن جابر قال : مكث ﷺ لم يذق الطعام ثلاثاً ، وهم يحفرون الخندق ، فقالوا : يا رسول الله إن ههنا كدية (١) من الجبل ، قد عجزت معاولنا عنها ! فقال رسول الله ﷺ : رشوها بالماء ، فرشوها به تم جاء رسول الله ﷺ ، فأخذ المعول ، ثم قال بسم الله ، فضرب ثلاثاً فصارت كثيباً .

قال جابر : فحانت منى التفاتة ، فإذا رسول الله ﷺ قد شدّ على بطنه حجراً . واستشكل ما ذكر من الشد والطى بقوله صلى الله عليه وسلم « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » (٢) لأن من هذا حاله لا يعصب أحشاءه ويطوى كشحه تحت الحجارة من الجوع ، وأجيب بأن معنى الحديث « أبيت مستحضراً لجلال ربى فيعطينى قوة الطعام والشارب » ، والمراد بذلك أنه ضمن له قوة بدنه ، ونضارة جسمه ، حتى أن من رآه لا يظن به جوعاً ولا عطشاً ، كما أشار إلى ذلك الناظم بقوله « مترف الأدم » فهو من قبيل الاحتراس ، وحينئذ فحصول الجوع له ﷺ لا ينافية الإطعام فى الحديث .

(٣٢) قوله « ورأودته الجبال إلخ » لما كان قد يتوهم من قوله « وشد من سغب إلخ » أنه ﷺ كان فقيراً من المال ، دفع ذلك التوهم بقوله « ورأودته الجبال إلخ » والمرادة : المطالبة ، يقال رأوده : أى طلب منه أن يكون على مراده ، وإسناد المرادة للجبال مجاز ، لأن الله هو الذى خيره فى ذلك ، ويحتمل أن يكون حقيقة إذ لا مانع من أن يخلق الله فيها إدراكاً ، وتراوده حقيقة ، وأل فى الجبال للعهد الذهنى ، والمعهود ذهناً هو جبال مكة ، كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة ، فقد روى أنه ﷺ =

(١) بضم الكاف وسكون الدال ، وفى القاموس . الكدية : الشئ الصلب بين الحجارة والطين .

(٢) حديث صحيح ومعروف .

وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ (٣٣)

= قال « عرض على ربي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يا رب ، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً ؛ فإذا شبعته حمدتك ، وإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك » (١) .
وروى أن جبريل عليه السلام نزل عليه صلى الله عليه وسلم فقال له : إن الله يقرئك السلام ، ويقول لك : أحب أن تكون لك هذه الجبال ذهباً وقضة ، تكون معك حينما كنت ؟ فأطرق ساعة ، ثم قال : يا جبريل إن الدنيا دارٌ من لا دارَ له ، ومال من لا مال له ، يجمعها من لا عقل له » (٢) ، فقال له جبريل : ثبتك الله بالقول الثابت .
وقوله الشم : أى المرتفعة وهى جمع أشم ، مشتق من الششم ، وهو الارتفاع ، وقوله « من ذهب » أى أن تكون من ذهب فهو خبر لتكون المحذوفة ، وليس حالا ، خلافاً لبعضهم لأنها لم تكن من ذهب حين المراودة وإنما طلبت منه أن تكون كذلك ، وقوله « عن نفسه » أى من أجل نفسه ، فعن للتعليل ، وقوله « فأراها أيما شمم » : أى فأراها شمماً أيما شمم ، أى شمماً عظيماً أى إعراضاً شديداً علماً منه بأن ما عند الله خير وأبقى .

(٣٣) قوله « وأكدت زهده فيها إلخ » التأكيد : التقوية ، والزهد : ترك الشيء وقلة الرغبة فيه ، والضمير المجزور بفى راجع للجبال التى تكون من ذهب ، وبعضهم جعله راجعاً للدنيا ، والأول أولى لعدم تقدم ذكر الدنيا ، وإن كانت معلومة من المقام ، والضرورة : شدة الحاجة ، ولا يخفى أن زهده مفعول مقدم ، وضرورته فاعل مؤخر ، وإنما أكدت ضرورته زهده فيها لأن الإعراض عن الشيء ، وقلة الرغبة فيه ، مع شدة الاحتياج إليه دليل جلى وبرهان قطعى على الزهد فى ذلك الشيء ، وقوله : إن الضرورة إلخ مستأنف استثنافاً بيانياً لكونه واقعاً فى جواب سؤال مقدر ، فكأنه قيل له : كيف تؤكد ضرورته زهده فيها ، مع أن الضرورة تقتضى الإقبال عليها ، وعدم الإعراض عنها ؟ فقال : إن الضرورة إلخ ، وقوله لا تعدو على العصم : أى لا تتعدى عليها ، يقال عدا عليه أى تعدى عليه ، وفى كلامه حذف مضاف ، أى على ذوى العصم ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، هذا إن قرئ العصم بكسر العين وفتح الصاد كما هو المشهور ، على أنه جمع عصمة ، فإن قرئ العصم بفتح العين وكسر الصاد ، كما استصوبه ابن مرزوق ، على أن أصله عصيم بمعنى معصوم ، حذف ياءه =

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى .

(٢) رواه الإمام أحمد ، والبيهقى عن السيدة عائشة والبيهقى عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً .

وكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةً مَنْ لَوْلَاهُ لَمْ تُخْرَجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ (٣٤)

= للضرورة ، فلا حذف فى كلامه ، وعلم من ذلك الفرق بين ضرورة من عصمه الله تعالى وضرورة غيره ، لأن ضرورة من عصمه الله تعالى لا تدعوه إلى أحسن الأشياء ، فضلاً عن أخسها ، وضرورة غيره تدعوه إلى أخس الأشياء ، حتى أنها تبيح له تناول ما لا ينبغي تناوله ، ولو كان محرم الأصل ، كالميتة ، وفى كلام المصنف إشارة إلى جواز وصفه صلى الله عليه وسلم بالزهد ، وهو الحق خلافاً لمن منعه ، معللاً بأن الزهد فى الشيء فرع عن التعلق به .

لكن قد عيب على هذا البيت والذي بعده فى إثبات الضرورة له صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يثبت له عليه الصلاة والسلام أصل الحاجة ، فضلاً عن الضرورة ، وما أحسن قوله فى الهمزية :

مستقل دنياك أن ينسبَ الإمساكُ منها إليه والإعطاء

(٣٤) قوله « وكيف تدعو إلخ » استفهام إنكارى بمعنى النفى ، أى لا تدعو إلخ ، والدعاء : الطلب والميل ، وقوله « إلى الدنيا » متعلق بتدعو ، والدنيا صفة فى الأصل ثم نقلت إلى الإسمية ، فجعلت اسماً لهذه الدار التى نحن فيها ، وقد تطلق على أعراضها وزخارفها من المال والجاه وما أشبههما ، وهذا هو المراد هنا ، وقوله « ضرورة من » أى ضرورة نبي أو رسول ، فـ « من » واقعة على نبي أو رسول ، وقد تقدم الكلام على الضرورة ، وقوله « لولاه لم تخرج الدنيا من العدم » بيناء الفعل ، وهو تخرج للمفعول أو للفاعل ، وإن اقتصر بعضهم على الأول ، أى لولا وجوده ﷺ لاستمرت الدنيا على عدمها ، ولم توجد ، فوجوده ﷺ علة فى وجودها ، فلو كانت ضرورته تدعو إلى الدنيا لكان وجوده معلولاً لوجودها ، وهو خلف ، والأصل فى ذلك ما رواه الحاكم ، والبيهقى ، من قول الله تعالى لآدم لما سأله بحق محمد أن يغفر له ما اقترفه من صورة الخطيئة ، وكان رأى على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله : « سألتنى بحقه أن أغفر لك ، وقد غفرت لك ، ولولاه ما خلقتك » فوجود آدم عليه السلام متوقف على وجوده ﷺ ، وآدم أبو البشر ، وقد خلق الله لهم ما فى الأرض وسخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وغير ذلك ، كما هو نص القرآن ، قال تعالى : ﴿ خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾ (١) ، ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ (٢) . وإذا كانت هذه الأمور إنما =

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْنِ سَيْنِ وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ (٣٥)
نَبِينُنَا الْأَمْرِ النَّاهِي فَلَا أَحَدٌ أَبْرَ فِي قَوْلٍ لَا مِنْهُ وَلَا نَعَمَ (٣٦)

= خلقت لأجل البشر ، وأبو البشر إنما خلق لأجله ﷺ . كانت الدنيا إنما خلقت لأجله فيكون ﷺ هو السبب في وجود كل شيء .

(٣٥) قوله « محمد إلخ » أى الممدوح محمد إلخ ، فهو خير مبتدأ محذوف على قراءته بالرفع ، ويصح فيه النصب على أنه مفعول لفعل محذوف ، أى أمدح محمداً . ويجوز الجر على أنه بدل من الموصول ، الذى فى قوله « وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من » إلخ ، وقوله « سيد الكونين » أى أشرف أهل الكونين ، فهو على تقدير مضاف ، والمراد بالكونين الدنيا والآخرة ، وقوله « والثقلين » أى الإنسان والجن « وإنما سميا ثقلين لإثقالهم الأرض ، أو لثقلهما بالذنوب ، والعطف فى ذلك من عطف الخاص على العام ، وكذلك العطف فى قوله والفريقين ، ونكتته التصريح به فى مقام المدح . ونصف البيت الياء من الثقلين ، فزيادة بعض الناس لفظ « خير » قبل الفريقين خطأ . وقوله « من عرب ومن عجم » بيان للفريقين . والعرب بضم العين وسكون الراء لغة فى العرب بفتحهما ، والمراد بالعجم جميع غير العرب .

(٣٦) قوله « نبينا إلخ » يجرى فى قوله نبينا أوجه الإعراب الثلاثة كما تقدم فى محمد ، والإضافة فى نبينا لتشريف المضاف إليه ، وقوله « الأمر الناهى » أى عن الله تعالى ، وهذا يستلزم كونه رسولا ، فهو فى قوة أن يقول « الرسول » (١) ، وقوله « فلا أحد أبر فى قول لا منه ولا نعم » أى إذا أمر ونهى ، فلا أحد أصدق منه فى الأمر والنهى ، وقد عبر عن النهى بقول « لا » وعن الأمر بقول نعم ، ويحتمل أنه كنى بلا عن الخبر المنفى ، وبنعم عن الخبر المثبت ، إما مطلقا أو عن الثواب والعقاب . =

(١) لأن أى تبنى يأمر وينهى بشرع الرسول الذى هو من أمته ، ومن هنا كانت وظيفة العلماء فى أمة سيدنا محمد ﷺ كوظيفة الأنبياء ولذلك جاء فى الحديث الصحيح « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » أى فى تبليغ رسالة الرسول ﷺ وليس فى قيمة النبوة وقدرها كما يتوهم كثير من الناس . فلما قال « الأمر الناهى » عرفنا أنه يقصد بالنبوة الرسالة لأن الأمر والنهى إنما هو للرسول (أى رسول كان) صلى الله عليه وعليهم جميعاً .

= وبالجملته فهو ﷺ أصدق الناس في الخبر ، و « لا » في قوله ولا نعم زائدة لتأكيد
النفي ، وما ورد من أنه لم يقل « لا » قط محمول على أنه لم يقل لا في شيء سئل
عنه من حوائج الدنيا ، بل إن كان عنده شيء أعطاه للسائل ، وإن لم يكن عنده شيء
سكت ، أو وعده ، وبالف بعضهم حتى قال :

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعماً

وهذا باعتبار الغالب ، وإلا ففي صحيح البخاري أن الأشعرين جاؤا إليه ﷺ
وطلبوا منه أن يحملهم فقال : واللّه لا أحملكم إلى آخر الحديث (١) . وهذا البيت
والذي بعده خاصيتهما التخلص من الوقوع في الشدائد ، فمن واطب على قراءتهما
خلص من الوقوع في الشدائد ، ومن وقع في شدة قبل قراءتهما وكرر قراءتهما في
جوف الليل ، وتوسل بالنبي ﷺ رفعت عنه تلك الشدة (٢) .

(١) وقد شرح الشيخ الباجوري نفسه رحمه الله تعالى هذا الكلام في تعليقه على كتاب
«الشمائل» للترمذي ص ١٩٧ طبعة سنة ١٣٠٥ هـ حيث قال : « والمعنى المراد أنه لم يقل « لا »
منعاً للإعطاء ، فلا ينافي أنه قال اعتذاراً إن لاق الاعتذار كما في قوله لا أجد ما أحملكم عليه ،
أو تأديباً للسائل إن لم يلق به الاعتذار كما في قوله للأشعرين « واللّه لا أحملكم » فهو تأديب
لهم لسؤالهم ما ليس عنده مع تحققهم ذلك ، ومن ثم حلف حسماً لطمعهم في تكليفه التحصيل مع
عدم الاضطرار إليه » .

(٢) قال ابن حجر في مقدمة فتح الباري ج ١ ص ٤٩ : ما نصه :

« ... وأنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين بن الصائغ الدمشقي قال : حدثني سيف الدين
[فليح المنصوري] قال : أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب يهدية ، فأرسلني ملك
المغرب إلى ملك الفرنج في شفاعته فقبلها ، وعرض على الإقامة عنده فامتنعت ، فقال لي لأتحفك
بتحفة سنّية . فأخرج لي صندوقاً مصفحاً بالذهب ، فأخرج منه مقلمة ذهب ، فأخرج منها كتاباً قد
زالت أكثر حروفه ، وقد التصقت عليه خرقة حرير ، فقال هذا كتاب نبيكم إلى جدى قبصر ، ما زلنا
نتوارثه إلى الآن ، وأوصانا آبائنا أنها ما دام هذا الكتاب عندنا : لا يزال الملك فينا ، فنحن
نحفظه غاية الحفظ ، ونعظمه ، ونكتمه على النصارى ليدوم الملك فينا » إ هـ .

ويؤيد هذا ما وقع في حديث سعيد بن أبي وشاد : أن النبي ﷺ عرض على التنوخى - رسول
هرقل - الإسلام ، فامتنع ، فقال : يا أخا تنوخ ، إني كتبت إلى ملككم بصحيفة ، فأمسكها ، فلن
يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير » .

هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مَقْتَحَمٍ (٣٧)

(٣٧) قوله « هو الحبيب » إلخ الضمير راجع لمحمد ، أو لنبيينا ، والحبيب إما بمعنى محب فيكون اسم فاعل ، أو بمعنى محبوب ، فيكون اسم مفعول ، وعلى كل فالمراد هو الحبيب لله أو لأئمة لأنه أعظم محب لله ، وأفضل محبوب له ، وهو أيضاً محب لأئمة ، ومحبوب لها ، إذ من شرط كمال الإيمان أن يكون أحب من المال والولد والنفس ، فقد قال عمر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ « لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَالِي وَوَلَدِي وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، ذُونِ نَفْسِي » (١) فقال له عليه الصلاة والسلام « لَا يَكْمَلُ إِيْمَانُكَ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ » فقال عمر رضى الله عنه « أَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي » فقال له عليه الصلاة والسلام : « قَدْ كَمَلَ إِذْنُ إِيْمَانِكَ » وهذا ترقُّ لسيدنا عمر في الحال ببركته ﷺ ، أو أن ذلك كان كامناً في نفسه ، غير أنه لحدوته لم يتنبه لذلك إلا بعد أن نبهه ﷺ ، وهذا هو اللائق بالأدب ، لكنه بعيد جداً ، وقوله « الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مَقْتَحَمٍ » أى الذى تتوقع شفاعته ، وهى طلب الخير للغير عند كل هول ، فاللام بمعنى عند ، والهول هو الأمر المخوف حال كون ذلك الهول بعض الأهوال المفزعة ، موصوف ذلك الهول بأنه مقتحم فيه ، أى واقع فيه الناس ، فهو من باب الحذف والايصال ، فحذف الجار ، واتصل الضمير ، والاحتحام هو الوقوع فى الشيء كرها ، يقال اقتحم زيد الأمر ، إذا وقع فيه كرها ، وإنما عبر بالرجاء مع أن شفاعته ﷺ مقطوع بها ، إشارة إلى أنه لا ينبغي للشخص أن ينهمك فى المعاصى ، ويتكل على الشفاعة ، وله ﷺ شفاعات ، منها شفاعته فى فصل القضاء حين يتمنى الناس الانصراف من المحشر ولو للنار ، لشدة الهول ، وهذه هى الشفاعة العظمى ، وتسمى المقام المحمود ، لأنه يحمد عليها الأوكون والآخرون ، وهى مختصة به ﷺ ، ومنها شفاعته ﷺ فى دخول جماعة الجنة بغير حساب ، بل يقومون من قبورهم لقصورهم ، وهذه مختصة به ﷺ أيضاً ، ومنها شفاعته ﷺ فى جماعة استحقوا النار ، لا يدخلوها ، بل يدخلون الجنة ، وكذلك هذه مختصة به ﷺ ، =

(١) أعتقد - والله أعلم - أن سيدنا عمر قال هذا من باب الاستعلام الخفى عن مثل هذه الحالة كيف يكون صاحبها وما حاله ؟ وهل يكون فيه نقص أو لا ؟ فلما قال له سيدنا رسول الله ﷺ ما قال ، فزع سيدنا عمر رضى الله عنه وأرضاه إلى ما يرضى الله ورسوله . والحقيقة الكامنة فى نفسه رضى الله عنه وأرضاه أن الله تعالى ورسوله أحب إليه . والله تعالى أعلم .

دَعَا إِلَى اللَّهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلِ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ (٣٨)

= ومنها شفاعته ﷺ في جماعة دخلوا النار أن يخرجوا منها ، وهذه غير مختصة به ﷺ ، بل تكون لغيره أيضاً من العلماء والأولياء ، ومنها شفاعته ﷺ في رفع درجات إناس في الجنة ، وهذه لم يثبت اختصاصها به ﷺ ، لكن جَوَّزَهُ النووي ، ومنها شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عن بعض الكفار ، كعمه أبي طالب على القول بأن الله لم يحيه فآمن به ﷺ (١) ، وهو المشهور ، والذي يحب أهل البيت يقول بأن الله أحياه وآمن به ﷺ ، والله قادر على كل شيء ، ولا ينافي شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عن بعض الكافرين قوله تعالى : ﴿ لا يخفف عنهم ﴾ (*) لأن المنفى إنما هو تخفيف عذاب الكفر فلا ينافي أنه يخفف عنهم عذاب غير الكفر ، على أحد الأجوبة في ذلك .

(٣٨) قوله « دعا إلى الله إلخ » أى دعا إلى دين الله ، كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك ﴾ (٢) وهو الإسلام ، ففي كلام المصنف حذف مضاف ، والمفعول محذوف أى عبادته ، وهو شامل للملائكة ، فقد دعاهم ﷺ تشریفاً لهم ، وتعريفاً لما لم يكونوا يعرفونه ، لأنهم إذا عرفوا من آدم عليه السلام ما لم يكونوا يعرفونه ، فليعرفوا منه ﷺ ما لم يكونوا يعرفونه بالطريق الأولى ، وقوله « فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منقصم » أى كما قال تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ (٣) والمراد من الحبل السبب ، كما هو أحد إطلاقيه ، والفصم بالفاء القطع من غير إبانة ، بخلاف القصم بالقاف فإنه القطع مع الإبانة ، ونفى الأضعف يستلزم نفى الأقوى ، فكونه غير منقصم يستلزم كونه غير منقصم ، وإنما لم يقل فالمجيبون له إلخ وإن كان هو المناسب للدعاء ، تنبيهها على أن مجرد الإجابة بالقول ونحوه لا يكفي في النجاة من المهالك ، بل لا بد من الاستمسك به ﷺ ، كما يفعل من يصعد من مهوى في تعلقه بالحبل ، والتزامه به ، وإن قصر في الاستمسك ، ولو لحظة ، هوى .

(١) وللشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى بحث طيب في إسلام أبي طالب في كتابه « خاتم التبيين » صلى الله عليه وسلم .

(*) الآية ١٦٢ سورة البقرة

(٢) سورة النحل ، الآية : ١٢٥

(٣) الآية ٢٥٦ سورة البقرة

فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ (٣٩)

= وفائدة هذا البيت حفظ الإيمان والأمان من سلبه ، بأن يقال بعد كل صلاة عشر مرات مفتوحة بالصلاة والسلام على النبي بصيغة مخصوصة ، وهى « اللهم صل وسلم على نبيك البشير الداعى إليك بإذنك السراج المنير » .

(٣٩) قوله « فاق النبيين إلخ » أى زاد ﷺ على النبيين ، وكذا على غيرهم بالطريق الأولى ، « فى خلق » بفتح الخاء وسكون اللام ، وهو الصورة والشكل ، وفى خلق بضمهما وهو ما طبع عليه الإنسان من الخصال الحميدة ، كالعلم ، والحياء ، والجود ، والشفقة ، والحلم والعدل ، والعفة ، وأمثال ذلك ، فقد اجتمع فيه ﷺ ما تفرق فى غيره ، من تلك الخصال ، وقد ذكر بعضهم أن من تمام الإيمان أن يعتقد الإنسان أنه لم يجتمع فى أحد من المحاسن الظاهرة والباطنة مثل ما اجتمع فيه ﷺ (١) .

واعترض على الناظم بأن مقتضى كلامه أنه ﷺ فاق النبيين فى بعض الخلق بفتح الخاء وسكون اللام ، وبعض الخلق بضمهما ، لأن كلا منهما نكرة ، وهى فى سياق الإثبات لا تعم ، وهذا ليس بمدح تام ، لأنه يحتمل بعد ذلك أن يساويهم فى البعض الآخر ، ويحتمل أن يفوقه فيه .

وعلى هذا فإن كان ما فاقوه فيه مثل ما فاقهم فيه ، حصلت المعادلة ، وإن كان أكثر انعكس ما قصده المصنف من المدح .

(١) وذلك لقوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » رواه ابن سعد ، والبخارى فى الأدب ، والحاكم ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والإمام أحمد ، والخرائطى فى أول المكارم ، وروى الإمام مالك فى الموطأ قوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

قال العلماء رضى الله عنهم : ومعناه أن جميع الأنبياء جاؤا بمكارم الأخلاق وبقبت بقية ، فأوتى رسول الله ﷺ أخلاق الأنبياء والبقية الباقية ، فكان عليه الصلاة والسلام متما ومكتملاً للبناء عليه الصلاة والسلام .

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيمِ (٤٠)

= وأجيب بأن المراد « فى خلقهم وفى خلقهم » ، فهما مضافان فى المعنى ، فيعمان ، على أن النكرة فى سياق الإثبات قد تعم ، ولما لم يلزم من كونه فاقهم فى ذلك ، نفى مقاربتهم له ، نفاها بقوله « ولم يدانوه » أى لم يقاربوه ، وقوله « فى علم ولا كرم » أى ولا غيرهما ، وإنما اقتصر المصنف عليهما ، لأن العلم رأس الفضائل (١) ، والكرم رأس الفواضل (٢) ، ولا يرد على ذلك ما ورد من النهى عن التفضيل بين الأنبياء ، كقوله ﷺ « لا تفضلوا بين الأنبياء » (٣) لأنه محمول على تفضيل يؤدى إلى تنقيص ، وليس فى ذلك تنقيص لأحد من النبيين ، لأننا نعتقد أنهم متصفون بالكمال ، والنبي أكمل ، قال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ (٤) قال ابن عباس : المراد بالبعض الأول : محمد ﷺ .

(٤٠) قوله « وكلهم من رسول إلخ » هذا البيت كالدليل للبيت قبله ، والجار والمجرور متعلق بقوله ملتمس ، والإضافة فى رسول الله للعهد ، والمعهود هو سيدنا محمد ﷺ ، والمراد من قوله ملتمس : آخذ ، وإن كان الالتماس معناه فى الأصل الطلب ، وقوله « غرفا من البحر أو رشفا من الديم » أى حال كون بعض الملتمسين مغترفا من البحر ، وبعضهم مرتشفا من الديم ، فهو إشارة إلى اختلاف أحوال الملتمسين ، فأولوا العزم مثلاً أكثر التماسا من غيرهم ، فـ « أو » فى ذلك للتنويع والتقسيم ، والغرف مصدر غرف بمعنى أخذ ، والبحر ضد البر ، سمي بذلك لعمقه واتساعه ، والرشف : المص ، والديم : جمع ديمة وهى المطر الدائم يوما وليلة من غير رعد (٥) ، =

(١) الفضائل جمع فضيلة . (٢) الفواضل : جمع فاضلة ، وهى الأمر الزائد .

(٣) متفق عليه من البخارى ومسلم ، ولهذا الحديث سبب ، وهو أن أحد اليهود زمن النبى ﷺ قال : والذى اصطفى موسى على العالمين ، يقصد تنقيص النبى ﷺ ، فقام رجل من الصحابة فصك اليهودى ، وقال : والذى اصطفى محمداً على العالمين ، فنيه رسول الله ﷺ أصحابه إلى أن الذى يقصده اليهود إنما هو سب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلذلك نهاهم عن أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود . والله تعالى أعلم . (٤) سورة البقرة : ٢٥٣

(٥) جمع ديمة ، قال فى القاموس : والديمة - بالكسر - مطر يدوم فى سكون بلا رعد ويرق .

وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمْ مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحِكْمِ (٤١)

= والمراد من البحر والديم هنا علمه وحلمه ﷺ ، فكل منهما استعارة تصريحية ، وكل من الغرف والرشف ترشيح ، وإنما عبر في جانب البحر بالغرف ، وفي جانب الديم بالرشف ، لأن الغرف مناسب للبحر ، لكثرتة دون الديم ، لأنها تجري على وجه الأرض فلا يجتمع منها ماء غالباً حتى يغترف .

(٤١) قوله « وواقفون إلخ » عطف على قوله « ملتمس » ، لكن نظر في أحدهما للفظ « كل » (١) وفي الآخر لبعده ، ومعنى كونهم واقفين لديه عند حدهم ، أنهم ثابتون عنده ﷺ في العلم والحكم عند الحد الذي حد لهم من ذلك فلا يتجاوزونه ، أما هو ﷺ فلم يزل يترقى بعد ذلك ، فنهاية مراتبهم في العلم والحكم مبدأ ما أوتي به ﷺ منهما ، فوقوفهم لديه ﷺ وقوف ذي الغاية عند مبدأ غيره ، وقوله « من نقطة العلم أو من شكله الحكم » بيان لحدهم ، والمعنى على التشبيه والإضافة في الموضعين على معنى « من- » ، أى الذى هو كنقطة من العلم ، أو كشكلة من الحكم ، والمراد من العلم والحكم علم الرسول وحكمه كما قاله بعض الشارحين ، وقيل « المراد بهما علم الله وحكمه » .

وحاصل المعنى على الأول أنهم ثابتون لديه ﷺ في العلم والحكم عند حدهم الذى هو كالنقطة من علم الرسول أو كالشكل من حكمه ﷺ .

وحاصل المعنى على الثانى : أنهم ثابتون لديه في العلم والحكم عند حدهم الذى هو كالنقطة من علم الله ، أو كالشكل من حكمه تعالى ، فعلمهم بالنسبة لعلمه ﷺ ، كنقطة من علم الله ، وحكمهم بالنسبة لحكمه ﷺ كشكلة من حكمه تعالى ، وهذا أبلغ في مدحه ﷺ من الأول ، لكن الأقرب الأول ، وعلى كل فـ « أو » ، للتنويع والتقسيم ، وإنما خص النقطة بالعلم والشكلة بالحكم لأن النقطة تميز الحروف المشبهة الصور ، والعلم خاصته التمييز ، لأنه صفة تقتضى تمييزاً لا يحتمل النقيض بوجه ، والشكلة بها يضاف الحكم لصاحبه مع زوال اللبس والاختلال ، والحكمة فائدتها وضع الشيء في المكان الذى يستحقه على أكمل وجه ، لئلا يختل النظام .

(١) من قوله « كلهم من رسول الله ملتمس » .

فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصَوْرَتُهُ ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ (٤٢)
مَنْزَرَهُ عَنْ شَرِيكَ فِي مَحَاسِنِهِ فَجَوْهَرُ الْحَسَنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمٍ (٤٣)

(٤٢) قوله « فهو الذي تمَّ معناه وصورته » مفرع على قوله « فاق النبيين » إلخ لكن على اللف والنشر المشوَّش ، لأن معناه يرجع للخلق بضمّتين ، وصورته ترجع للخلق بفتح الخاء وسكون اللام ، فإن المراد من معناه كمالاته الباطنية ، كما هو المراد من الخلق بضمّتين ، والمراد بصورته صفاته الظاهرية كما هو المراد بالخلق بفتح الخاء وسكون اللام ، وقوله « ثم اصطفاه حبيباً بارئاً من النسمة » أي ثم اختاره حبيباً خالق الخلق ، والنسمة بفتح النون المشددة : جمع نسمة بفتحات ، وهي الإنسان ، وإنما خص الوصف المذكور من بين أوصافه تعالى تنبيهاً على أنه تعالى خلقه على تلك الصورة ، ووفقه لتلك الأخلاق الحميدة ، ومن ذلك يعلم أن « ثم » ليست للترتيب في الصفات كما قاله بعضهم ، بل للترتيب في الذكر والإخبار ، ويمكن حمل كلام بعضهم على ذلك بأن يجعل على تقدير مضاف ، والأصل للترتيب في ذكر الصفات .

(٤٣) قوله « منزله إلخ » أي وهو منزله إلخ ، وقوله عن شريك أي عن كل شريك ، لأنه نكرة في سياق النفي معنًى ، فإن المعنى : لا يوجد له شريك ، والنكرة في سياق النفي ، ولو معنًى ، تعم ، وقوله « في محاسنه » أي صورة ومعنى ، وقد تنازعه كل من منزله وشريك ، والمحاسن جمع محسن على القياس ، وقيل جمع حسن على غير قياس .

واعترض على المصنف بأن النبيين مشاركون له ﷺ في المحاسن ، كالنبوة والرسالة ، فكيف يقول « منزله عن شريك في محاسنه » وأجيب بأن ما عندهم من المحاسن مثل النقطة أو الشكلة ، كما يدل عليه ما ذكره سابقاً في العلم والحكم ، وحينئذ فلا مشاركة ، وقوله « فجواهر الحسن » إلخ مفرع على قوله « منزله عن شريك » إلخ والمراد من جوهر الحسن ذاته وحقيقته ، وقوله « فيه » أي الكائن فيه ، وقوله غير منقسم : أي بينه وبين غيره لاختصاصه به ، بخلاف يوسف فإنه أعطى شطر الحسن ، وإنما لم يفتتن به ﷺ كما افتتن بيوسف عليه السلام ، لأن جماله ﷺ ستر بجلاله (١) فلم يمكن أحداً أن يتأمل فيه حتى يفتتن به (٢)

(١) فما رآه أحد ﷺ إلا هابه ، وقد ورد أن أعرابياً جاءه ، فلما رآه أرعد وارتعدت فرائضه ، فقام إليه ﷺ وسكن من روعه ، وقال له « هَوْنٌ عليك فإنني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » . (رواه ابن ماجه والحاكم عن أبي مسعود البدرى ، ورواه الحاكم عن جرير) .
(٢) وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها فيه ﷺ : =

دَعَ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحاً فِيهِ وَاحْكُمْ (٤٤)

(٤٤) قوله « دَعَ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى إلخ » هذا البيت احتراص عما يوجهه قوله : « منزّه عن شريك في محاسنه » من شموله لصفات الإله ، فدفع ذلك بهذا البيت ، وفيه إشارة إلى قوله ﷺ « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ، ولكن قولوا عبد الله ورسوله » (١) والمراد بما ادَّعته النصارى في نبيهم قولهم بأنه إله ، لأنهم يقولون بأن الله إله ، وعيسى إله ، ومريم إله ، وبعض فرقهم يقول بأنه ابن الله ، كما قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (*) والنصارى هم قوم عيسى وسموا بذلك لأنهم نصره (٢) . والإضافة في نبيهم للرد عليهم في دعواهم الألوهية له ، مع أنهم يسلمون أنه نبيهم ، والنبي ليس إلها ، فلا تنافي الإضافة أن سيدنا محمداً نبيهم أيضاً خلافاً لما قد يتوهم من ظاهر الإضافة من أنه ﷺ ليس نبياً لهم ، وقوله « واحكم بما شئت مدحا فيه » أي احكم بما شئت مما يدل على شرفه وعلو شأنه وعظم جاهه من جهة المدح فيه ﷺ ذاتا وصفات ، أخذاً من قوله « وانسب » إلخ . وقوله « واحكم » =

= فلو سمعوا في مصر أوصاف خذّه
وصحب زليخا لو رأين جبينه
وقال سيدنا حسان رضى الله عنه أيضا :
له راحة لو أن معشار جردوها
له هم لا منتهى لكبارها
(١) وفي لفظ رواد البخارى « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » . (*) الآية ٣٠ سورة التوبة .
(٢) إننا نخالف الشيخ رحمه الله تعالى في هذا كل المخالفة ، لأن قوم عيسى الذين أرسل إليهم : هم بنو إسرائيل ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ (الصف : ٦) ، وأما النسبة ، فلو كانوا ناصروا المسيح عليه الصلاة والسلام لسمو « أنصاراً » لا نصارى .

وقد افترقت بنو إسرائيل على ثلاث فرق : فرقة ثبتت على الإسلام الذي جاء به وسلمهم ، وفرقت تهودت - اتخذت اليهودية ديناً - وفرقت تنصرت : اتخذت النصرانية ديناً .
واليهودية نسبة إلى يهوذا بن يعقوب ، حرفت منها الذال دالا .
والنصرانية : نسبة إلى نصرانة : بلدة بالشام نشأت بها عقيدة النصارى ، ولذلك تكون النسبة صحيحة : نصراني .

ولو كانوا نصره لاقتضى هذا أن يكون عيسى أيضاً نصرانياً ، وعيسى ﷺ وأنصاره مسلمون والحمد لله بنص القرآن : ﴿ قَالَ الْخَوَارِيزِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٥٢) والله أعلم .

وَأَنْسَبَ إِلَى ذَاتِهِ مَا شَتَّتَ مِنْ شَرَفٍ وَأَنْسَبَ إِلَى قَدْرِهِ مَا شَتَّتَ مِنْ عِظَمٍ (٤٥)
فَإِنْ فَضَّلَ رَسُولُ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَيُغْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِقَمٍ (٤٦)

= أى راع الحكمة فى مدحك له ﷺ بأن تأتى بالمدح اللائق بجنابه الشريف وقدره المنيف ، دون غير اللائق بذلك الجناح ، فليس قوله « واحكم » حشوا كما قيل ، لأنه أفاد أنه وإن جاز لك مدحه ﷺ بما شئت ، غير ما ادعته النصارى فى نبيهم ، يتعين عليك مراعاة الحكمة فى مدحه ﷺ . ومن هذا يُعلم أن ما يقع من التغزل بأبيات مشتملة على صفات الأحداث لا يجوز حملة على النبى ﷺ ، لأن ذلك إساءة أدب ، لكونه لا يليق بالجناح الشريف ، ولذلك لم يقع مثل هذا من أحد من مدّاحه ﷺ كحسان والمصنف ، وابن رواحة .

(٤٥) قوله « وانسب إلى ذاته إلخ » هذا البيت تفصيل لما أجمله فى قوله « واحكم بما شئت مدحا » إلخ ، ويؤيد ذلك ما فى بعض النسخ من التعبير بالفاء بدل الواو ، وبعض الشارحين حمل قوله « واحكم بما شئت إلخ » على أن المراد أنك تحكم بصحة ما شئت مما سمعته من جهة المدح الكائن من غيرك ، وحمل قوله « وانسب إلى ذاته » إلخ على أن المراد أنك تباشر المدح وتنشئه ، والأول أقرب كما لا يخفى . وقوله « ما شئت من شرف » أى الذى شئت من صفات الشرف ، كتناسب الأعضاء ، والبياض المشرب بحمرة ، ونظافة الجسم ، وطيب العرق ، وفصاحة اللسان ، وبلاغته القول ، ووقور العقل ، وذكاء اللب ، وغير ذلك . وقوله « وأنسب إلى قدره ما شئت من عظم » أى وانسب إلى كماله الذى شئت من صفات العظم كالكرم والعفو والصفح والحلم والعلم وأمثال ذلك ، و « من » فى الموضعين لبيان الجنس ، وخص الذات بالشرف لمناسبتها لها فى العلو ، وخص القدر بالعظم لمناسبتها له فى عدم النهاية .

(٤٦) قوله « فإن فضل رسول الله إلخ » .

هذا البيت تعليل للبيت قبله ، فكأنه قال : لأن فضل رسول الله إلخ .

وقوله : « ليس له حد » أى ليس له غاية ومنتهى ، لأنه ﷺ لم يزل يترقى فى الكمال كل لحظة ، قال سيدى على وفا : ويشير لهذا قوله تعالى : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (*) لأن معناه الإشارى : وللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة ، لأنه ﷺ يترقى فى التأخرة إلى كمالات زائدة عما ترقى إليه فى المتقدمة ، ولهذا قال =

لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عَظَمًا أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرَّمَمِ (٤٧)

= ﴿٤٧﴾ : « إِنَّهُ لِيَغَانُ (١) عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ » ، أَيْ إِنَّهُ لَتَتَرَاكُمُ الْأَنْوَارُ عَلَى قَلْبِي ، فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَمَّا قَبِلَ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ لِأَبِي الْحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ لَمَّا رَأَاهُ فِي النَّوْمِ وَسَأَلَهُ عَنْ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ : « إِنَّهُ غَيْنُ أَنْوَارٍ لَا غَيْنَ أَغْيَارٍ يَا مُبَارَكَ » .

وَقَوْلُهُ « فَيَعْرَبُ عَنْهُ نَاطِقٌ بِغَمٍّ » أَيْ فَيَفْصَحُ عَنْ فَضْلِهِ ﷺ مُتَكَلِّمٌ بِلِسَانٍ ، فَمَعْنَى يَعْرَبُ يَفْصَحُ ، وَهُوَ بِالنَّصَبِ فِي جَوَابِ النَّفْيِ ، وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ لِفَضْلِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَمَعْنَى « نَاطِقٌ » مُتَكَلِّمٌ ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْفَمِ اللَّسَانُ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْفَمِ ، لِأَنَّهُ مُحَلٌّ ، فَهُوَ مُجَازٌ مَرْسَلٌ مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْمَحَلِّ عَلَى الْحَالِ فِيهِ ، وَقَوْلُهُ « بِغَمٍّ » بَعْدَ « نَاطِقٌ » لِلتَّأَكِيدِ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِكَ سَمِعْتَ بِأَذْنِي ، وَنَظَرْتَ بِعَيْنِي ، أَوْ لِلإِشَارَةِ إِلَى التَّعْمِيمِ فِي النَّاطِقِ فَيَشْمَلُ الْعَرَبِيَّ وَالْعَجَمِيَّ ، كَمَا قِيلَ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ فَإِنْ كَلَّمَكَ مِنْ قَوْلِهِ « فِي الْأَرْضِ » بَعْدَ « دَابَّةٍ » ، وَقَوْلُهُ « يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » بَعْدَ « طَائِرٍ » لِلتَّعْمِيمِ فِيهِمَا .

(٤٧) قَوْلُهُ « لَوْ نَاسَبَتْ إلخ » كَأَنَّ الْمُصَنِّفَ ادَّعَى أَنَّ آيَاتِهِ لَمْ تَنَاسِبْ قَدْرَهُ فِي الْعَظَمِ ، وَذَكَرَ هَذَا الْبَيْتَ اسْتِدْلَالًا عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى قِيَاسِ اسْتِثْنَائِي نِظْمَةٍ هَكَذَا : لَوْ نَاسَبَتْ آيَاتُهُ قَدْرَهُ فِي الْعَظَمِ لَكَانَ مِنْ جَمَلَةِ آيَاتِهِ أَنْ يَحْيِيَ اسْمَهُ دَارِسَ الرَّمَمِ حِينَ يَدْعَى بِهِ ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَحْيِيَ اسْمَهُ دَارِسَ الرَّمَمِ حِينَ يَدْعَى بِهِ ، فَلَمْ تَنَاسِبْ آيَاتُهُ قَدْرَهُ فِي الْعَظَمِ ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ ، لِأَنَّ الْوَاقِعَ أَنَّ قَدْرَهُ ﷺ أَعْظَمُ مِنْ آيَاتِهِ حَتَّى مِنَ الْقُرْآنِ الْمَتْلُوِّ بِخِلَافِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْمَتْلُوِّ ، وَهُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِذَاتِهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ أَعْظَمُ مِنْهُ لِأَنَّ الْقَدِيمَ أَفْضَلُ مِنَ الْحَادِثِ ، وَمَا شَاعَ عَلَى الْأَلْسِنَةِ مِنْ أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، فَكَلَامٌ بَاطِلٌ ، وَلَا يَصِحُّ حَمْلُهُ عَلَى الْقُرْآنِ الْقَدِيمِ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ ، خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ الشَّرْطِيَّةَ =

(١) الْغَيْنُ : التَّغْطِيَةُ ، وَمَعْنَى « لِيَغَانُ عَلَى قَلْبِي » أَيْ يَقْطِي عَلَى ، وَالَّذِي ذَكَرَهُ سَيِّدِي أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ هُوَ الْحَقُّ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قُلُوبُهُمْ مَحْفُوظَةٌ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَقَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ كَافٍ فِي ذَلِكَ وَوَافٍ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ هُمْ أَخْصُ عِبَادِهِ وَأَخْصُ الْخَاصَّةِ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ، وَمُسْلِمٌ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَلَفْظُهُ : « إِنَّهُ لِيَغَانُ عَلَى قَلْبِي ، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » .

لَمْ يَمْتَحِنَا بِمَا تَعْيَا الْعُقُولُ بِهِ حِرْصاً عَلَيْنَا فَلَمْ تَرْتَبْ وَلَمْ تَهْمِ (٤٨)

= وحذف الاستثنائية والنتيجة ، ووجه الملازمة فى الشرطية أن الإحياء المذكور أعظم آية ، وبه تكون الآيات مناسبة لقدره ﷺ ، أى يكون مجموعها بواسطة كون الإحياء المذكور منه مناسباً لقدره الشريف ، لا كل فرد منها ؛ لأنه لا يلزم من جعل الإحياء المذكور منها أن يكون كل فرد منها مناسباً لقدره ﷺ ، لا يقال : كيف لم يجعل الإحياء من آياته ﷺ مع جعله من آيات عيسى عليه السلام ، لأننا نقول الكلام فى إحياء اسمه دارس الرمم حين يدعى به ، وهذا كما لم يجعل من آياته ﷺ ، لم يجعل من آيات عيسى عليه السلام ، وإنما الذى جعل من آيات عيسى إحياءه الموتى بإذن الله ، ولا يخفى أن « قدره » مفعول مقدم ، وآياته فاعل مؤخر ، والمراد من قدره ، كمال قربه من الله تعالى ، والمراد بآياته أعلام (١) نبوته ، كالمعجزات ، وقوله عظما منصوب على نزع الخافض كما أشرنا إليه ، ويصح أن يكون تمييزاً ، بل هو الأولى ، لأن النصب على نزع الخافض سماعى ، لكن كثر فى كلام المؤلفين حتى جرى مجرى القياسى ، وقوله « أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم » أى أحيا الله بسبب اسمه دارس الرمم حين يدعى به كأن يقال : يا الله بمحمد أحى هذا الميت ، فإسناد الإحياء إلى اسمه مجاز عقلى ، وصلة « يدعى » محذوفة ، أى به ، والظرف متعلق بقوله « أحيا » ، و « دارس الرمم » مفعول أحيا ، فهو منصوب ، وجوز بعضهم أن يكون مرفوعاً على أنه نائب فاعل يدعى ، ودعاؤه باسمه كأن يقال : يا ميت احى باسم محمد ﷺ ، و « دارس » بمعنى مدرّس ، وإضافته لما بعده من إضافة الصفة للموصوف ، أى الرمم المدرّسة ، والرمم جمع رمة ، وهى الشىء البالى ، والمدرّوسة : التى زيد فى بلائها .

وخاصية هذه الأبيات ، التى أولها « محمد سيد الكونين » (٢) إلى آخر هذا البيت شدة قلب المغازى فى سبيل الله ، فإنه يكتبها ويمحوها بالماء الموجود فى شهر برمودة وشربها ، فإنه بعد ذلك لا يخاف من الحرب ، ولا يزول ، وكذلك من كتبها بماء ورد وزعفران وشربها ، فإن الله يشبته عند سؤال منكر ونكير .

(٤٨) قوله « لم يمتحنا إلخ » أى لم يختبرنا بشىء تعجز عنه عقولنا ، ولا تهتدى لوجهه لشدة رغبته فى هدايتنا ، بل أتى بالحنيفية الواضحة ، فلم نتردد فيما أتانا به ولم تنحير فيه ، فالامتحان : الاختبار ، و « ما » واقعة على شىء ، والمعنى بالأمر : =

(٢) البيت ٣٤

(١) يفتح الهزة : الدلائل عليها .

أَعْيَا الْوَرَى فَهَمُّ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يَرَى فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَحٍ (٤٩)

= العجز عنه ، وعدم الاهتداء لوجهه ، والعقول : جمع عقل ، وهو قوة يميز بها بين المصالح والمفاسد ، والحرص على الشيء : شدة الرغبة فيه ، والارتباب : الشك ، والهيام : التحير ، ولا يخفى أن قوله « حرصا علينا » على تقدير مضاك ، أى حرصا على هدايتنا ، وهو مفعول لأجله ، وقد كان ﷺ يضرب الأمثال بالمحسوسات ، ليتضح ما يخفى إدراكه على بعض العقول ، فإن قيل : كيف يصح قول المصنف « لم يمتحنا بما تعيا العقول به » مع أن فى القرآن التشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله ؟ أجيب بأن المراد : لم يمتحنا فيما كلفنا به بما تعيا العقول به ، وحينئذ فلا يرد التشابه لأنه لا يتعلق به تكليف « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، على أن التحقيق أن الوقف على قوله تعالى : « والراسخون فى العلم » (*) فهم يعلمون تأويله ، ويعلمونه لغيرهم (١).

(٤٩) قوله « أعياء الورى إلخ » : لما أخبر المصنف فيما تقدم بعجز اللسان عن التعبير بفضائله ﷺ بقوله : « فإن فضل رسول الله ليس له حد » إلخ ، أخير هنا بعجز العقول عن إدراك كمالاته ، بقوله « أعياء الورى » إلخ ، والإعياء : الإعجاز ، والورى : الخلق ، وقوله « فهم معناه » أى إدراك حقيقته ﷺ ، مع ما خصه الله به من المعارف الإلهية والأسرار الربانية ، وإسناد الإعياء إلى الفهم مجاز عقلى ، لأن الذى =

(*) آل عمران : ٧

(١) هذا قول بعض أهل العلم لكن الأصح قول بعض آخر معناه أن الراوى فى قوله - والراسخون فى العلم تفيد العطف ، ويكون المعنى أن التشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ، والله سبحانه وتعالى لا يحب المشاركة فى شيء أبداً ، وعلى هذا يكون المعنى فاسداً ويكون الوقف الصحيح على قوله تعالى : (إلا الله) ويكون الراوى فى قوله تعالى : (والراسخون فى العلم) وار الاستئناف ، و « الراسخون » مبتدأ ، وجملة « يقولون آمنا به » خبر المبتدأ . والله أعلم بأسرار كتابه .

وقد ذكر الإمام الغزالي رحمه الله تعالى فى كتابه « الأربعين فى أصول الدين » مبينا معنى التأويل الذى قصد به العلماء أن التأويل لا يناله كل أحد فقال : « ولو نال كل أحد مقام التأويل لما قال ﷺ داعيا لابن عباس رضى الله عنهما « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ، ولما قال يعقوب ليوسف عليهما السلام « كذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » قال صاحب الكشف معنى فى تفسيرها : يعنى معانى كتب الله وسنن الأنبياء عليهم السلام وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها : تفسرها وتشرحها وتدلهم على مودعات حكمها .

كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعْدٍ صَغِيرَةٍ وَتُكِلُ الطَّرْفَ مِنْ أُمَمٍ (٥٠)

= أعيانهم إنما هو الله تعالى ، وقوله « فليس يرى » إلخ تفريع على قوله « أعيان الورى » إلخ . وفى « ليس » ضمير الشأن ، وهو مفسر بما بعده ، كما هو القاعده ، ويُرى بالبناء للمفعول ، وهى بصرية ، و « فى القرب والبعد » متعلق ببرى ، و « فيه » متعلق بمنفخم ، و « فى » بمعنى « عن » ، والضمير المتصل بها راجع لفهم معناه ، وقوله « غير منفخم » نائب فاعل يرى ، والمنفخم : العاجز ، وحاصل المعنى أنه أعجز الخلق فهم حقيقته فليس يبصر شخص غير عاجز عنه فى القرب والبعد منه ﷺ ، والمتبادر أن المراد القرب والبعد بحسب المكان ، أى فليس يرى فى المكان القريب والمكان البعيد منه ﷺ غير عاجز عن إدراكه ، ويحتمل أن المراد القرب والبعد بحسب الزمان ، أى فليس يرى فى الزمان القريب والزمان البعيد منه ﷺ غير عاجز عن إدراكه ، ويحتمل أيضاً أن المراد القرب والبعد فى المعنى ، فأهل الباطن والناظرون له ﷺ فى عالم الشهود تضعف بصائرهم عن إدراكه ﷺ لقوة إشرافه عليه الصلاة والسلام مع قريهم منه ﷺ ، وأهل الظاهر الناظرون له ﷺ فى عالم المحس لا يدركون إلا شخصاً مصوراً وجسماً مقدراً لبعدهم منه ﷺ .

(٥٠) قوله « كالشمس إلخ » أى هو كالشمس إلخ ، فهو خبر لمبتدأ محذوف ، والمقصود تشبيهه ﷺ بالشمس فى أنه لا يحاط بكنهه وحقيقته فى حالتى القرب والبعد ، كما وضّح ذلك المصنف بقوله « تظهر للعَيْنين » إلخ لأنه قصد بذلك بيان وجه التشبه ، وقوله « من بعد » أى فى حالة البعد ، فمن بمعنى « فى » ، ويُعدّ بضميتين كما هو لغة فى بُعد بضم الباء وسكون العين ، وقوله « صغيرة » أى حال كونها صغيرة بقدر المرأة مثلاً ، فهو حال من فاعل تظهر ، وقوله « وتكل الطرف » بضم التاء وكسر الكاف من « تكل » وسكون الراء من « الطرف » : أى وتعيب البصر وتضعفه لقوة شعاع نورها ، وهذا هو الأقرب . وقيل لعظم جرمها ، فإنه قيل إنها قدر كرة الأرض مائة مرة ونيفا وستين مرة ، فلا يمكن الطرف أن يحيط بها ، وقوله « من أمم » أى فى حالة القرب ، فمن بمعنى « فى » ، والأمم بفتح الهمزة القرب ، والمراد القرب منها فرضاً ، فهو فرضى فقط ، وأما بعدها فهو واقع مطلقاً ، وقيل إن البعد يكون فى حال طلوعها وغروبها ، والقرب يكون فى غير ذلك ، والأوّل أقرب ، ولذلك اقتصر عليه بعض الشارحين .

وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ قَوْمٌ نِيَامَ تَسْلُوا عَنْهُ بِالْحُلُمِ (٥١)

(٥١) قوله « وكيف يدرك إلخ » هذا البيت في قوة التعليل ، لقوله « أعيأ الوري فهم معناه إلخ » وكيف : للاستفهام الإنكارى ، وهو بمعنى النفى ، أى لا يدرك إلخ ، واحتراز بقوله « فى الدنيا » عن الآخرة ، فإنهم يدركون فيها حقيقته ﷺ ، لأنه يحصل لهم إذ ذاك الانتباه ويكمل نور أبصارهم ويصانهم فيدركون الحقائق والدقائق والأسرار ، فيظهر لهم حينئذ قدره ﷺ ومنزلته ، ولذلك قدروا حينئذ على رؤية الحق سبحانه وتعالى لعدم رؤيتهم له تعالى فى الدنيا لضعف (١) قواهم ، وكونها عرضة للفتاء ، فإذا رزقوا قوى قوية مثبتة رأوا الباقي بالباقي (٢) ، والمراد بحقيقته ﷺ قدره ومنزلته ، وقوله « قوم نيام » أى قوم غافلون عن النظر فى حقيقته ، وهذا وصف لازم لا مخصص ، كما يؤخذ من قوله ﷺ : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » (٣) . والمراد بالقوم جميع الوري ، وقوله « تسلوا عنه بالحلم » بضم اللام كما هو لغة فى الحلم بسكونها ، أى اكتفوا عن النظر فى حقيقته تفصيلاً بما يشبه الحلم ، بما أدركوه بالخبر جملة ، كذا يؤخذ من كلام بعض الشارحين ، ويحتمل أنه على ظاهره من أنهم اكتفوا عن النظر فى حقيقته بما يرونه فى منامهم ، إن صحت لهم رؤيته فى النوم ، وقد اقتصر على هذا بعض الشارحين ، والأصح أن رؤيته ﷺ فى النوم حق ، وإن رؤى =

(١) رؤية الحق سبحانه وتعالى فى الآخرة حق لا شك فيه ، لكن بالتجلى لا بالإحاطة - أى يتجلى الله للمؤمنين ، ويحجب عن الكافرين ، بدليل قوله تعالى فى حق الكافرين : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ (المطففين : ١٥) ، فإذا كان الكافرون محجوبين ، فالمؤمنون غير محجوبين وهى قضية مسلمة لا جدال فيها ولا نقاش .

(٢) أى لأن الله تعالى يعيد خلق النظر يوم القيامة للبقاء ، فيرى الباقي بالباقي ، وإن كان بين البقائين بون بعيد وافر كبير . فإن الله تعالى ياق بذاته والعبد ياق ببقاء الله له ، لأن الله حكم على المؤمن والكافر ، وكل أهل الجنة والنار وغيرهم بالبقاء ﴿ يا أهل الجنة خلودوا ولا موت ، ويا أهل النار خلودوا ولا موت ﴾ والله تعالى أعلم .

(٣) لأنهم فى الدنيا غافلون عن الآخرة ، فإذا ماتوا انكشفت لهم الحقائق .

فَمَبْلُغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ (٥٢)
وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسُلَ الْكَرَامُ بِهَا فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمْ (٥٣)

= على غير هيئته التي كان عليها في الدنيا لحديث « من رأى فقد رأى حقاً » ،
وقيل : لا تكون حقاً إلا إن رأى على هيئته الشريفة (١) .

(٥٢) قوله « فمبلغ العلم فيه إلخ » هذا البيت مفرع على قوله « أعياء الورى فهم
معناه » إلخ ، فيترتب على ذلك أن ما يبلغه علم الناس في حقه ﷺ : أنه بشر ، لا إله
ولا ملك ، وأنه خير مخلوقات الله كلهم إنسا وجنا وملكا وغيرهم ، وقوله « فيه »
أى في حقه من حيث الذات ومن حيث الصفات ، وقوله « أنه بشر » راجع للذات ،
وقوله « وأنه خير خلق الله كلهم » راجع للصفات ، فعلم من ذلك القصور عن إدراك
الكنه في الجانبين ، والبشر : اسم لبنى آدم ، سموا بذلك لبدؤ بشرتهم ، وهى ظاهر
الجلد ، وخير : أصله « أخير » حذفت منه الهمزة لكثرة الاستعمال ، ثم نقلت حركة
الياء للخاء ، فصار خير ، فهو أفعل تفضيل . ولذلك لا يثنى ولا يجمع ، وأما قوله
تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارُ ﴾ (*) فالمجموع فيه خير مخفف خير
بالتشديد ، والمخلوق بمعنى المخلوقات ، على سبيل المجاز المرسل ، بحسب الأصل ،
لكن صار حقيقة عرفية .

(٥٣) قوله « وكل آى أتى الرسل إلخ » أى وكل المعجزات التى أتى بها الرسل
الكرام لأعمهم فلم تتصل بهم إلا من معجزاته ﷺ ، أو من نوره الذى هو أصل الأشياء
كلها ، فالسماوات والأرض من نوره ، والجنة والنار من نوره ، ومعجزات الأنبياء من
نوره (١) ، وهكذا ... فالآى بمعنى المعجزات ، جمع آية بمعنى المعجزة ، والرسل =

(١) من رآه ﷺ فقد رآه حقاً ، إلا أن أهل العلم قالوا : من رآه على غير صورته الأصلية ،
فإنما تكون الرؤيا بقدر الرائي وعلى حسب طاقته هو ، ويقدر قيمة المصطفى ﷺ عنده ، أما حقيقته
ﷺ فلا يطيقها أحد كائناً من كان . (*) سورة ص الآية ٤٧ .

(٢) للحديث الصحيح الثابت - عند أهل الحق - أن سيدنا جابر بن عبد الله قال : يا رسول الله
بأبى أنت وأمى أخيرنى عن أول شىء خلقه الله تعالى قبل الأشياء ؟ قال : يا جابر إن الله تعالى
خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى « إلى
آخره » وهو حديث طويل فيه خلق كل الأشياء من نور حضرة المصطفى ﷺ . فراجع فى مسند
عبد الرزاق ، وقوله « من نوره » أى النور الذى خلقه الله تعالى ، لا أن الله تعالى « نور » فأخذ
قطعة منه فجعلها محمداً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وإنما هو نور منسوب إليه ، نسبة المخلوق
للخالق .

فإنه شمسٌ فضلٌ هم كواكبها يُظهرن أنوارها للناس في الظلم (٥٤)

= بسكون السين ، ويقال في غير النظم رسل بضمها جمع رسول ، والكرام جمع كريم ، وقوله « بها » متعلق بأتى ، والضمير راجع للآي ، و « إنما » للحصر ، والمراد بنوره معجزاته ، وسميت نورا لأنه يهتدى بها ، ويصح حمله على النور المحمدي الذي هو أصل المخلوقات كلها ، كما حمله عليه بعض الشارحين ، و « من » للابتداء ، والباء للإلصاق ، لا يقال : كيف تكون المعجزات التي أتى بها الرسل الكرام لأئمتهم من نوره ﷺ ، مع أنهم متقدمون عليه في الوجود ؟ لأننا نقول هو ﷺ متقدم على جميع الأنبياء من حيث النور المحمدي .

(٥٤) قوله « فإنه شمس فضل إلخ » هذا البيت تعليل للبيت قبله ، والمعنى على التشبيه ، أي فإنه كالشمس في الفضل ، وقوله « هم كواكبها » أي الرسل : كواكب الشمس ، والمعنى على التشبيه أيضاً ، أي مثل كواكبها ، ووجه التشبيه فيهما أن الشمس جرم مضئ بذاته ، والكواكب أجرام غير مضئية بذاتها ، لكنها صقيلة تقبل الضوء ، فإذا كانت الشمس تحت الأرض فأضاء نورها من جوانبها ، فيطلب الصعود ، لأن النور يطلب مركز العلو فيصادف أجرام الكواكب الصقيلة المقابلة له ، فيرتسم فيها ، فتضىء في الظلمات ، وتظهر أنوار الشمس فيها للناس من غير أن ينقص من نور الشمس شيء ، فتوره ﷺ لذاته ، ونور سائر الأنبياء ممتد من نوره من غير أن ينقص من نوره شيء ، فيظهرون ذلك النور في الكفر الشبيه بالظلم فلذلك قال المصنف : « يُظهرن أنوارها للناس في الظلم » وكما أن الشمس إذا بدت لم يبق أثر للكواكب ، فكذلك شريعته ﷺ لما بدت نسخت غيرها من سائر الشرائع ، كما يشير لذلك قوله في بعض النسخ :

حتى إذا طلعت فسي الأفق عمُّ هداها العالمين ، وأحيث سائر الأمم وظاهر هذا البيت ، أنه ﷺ مرسل للأمم السابقة ، لكن بواسطة الرسل ، فهم نواب عنه ﷺ ، وبهذا قال الشيخ السبكي ومن تبعه أخذاً من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ (*) والذي عليه الجمهور أنه ﷺ مرسل لهذه الأمة دون الأمم السابقة ، فالمسألة خلافية ، والحق الأول (١) .

(١) أي قول السبكي ومن تبعه ، لأنه ما من نبي أرسل إلى قوم إلا وبشر به ﷺ ، وأمر قومه باتباعه إن خرج فيهم بنص القرآن . وقرأ في ذلك كتاب « شفاء السقام » . للحافظ السبكي فقد أورد فيه أدلة صحيحة على ما قاله رحمه الله ورضي عنه . (*) الآية ٨١ آل عمران .

أَكْرَمَ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالْبَشْرِ مُتَّسِمٌ (٥٥)
كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالدَّرِّ فِي شَرَفٍ وَالدَّهْرِ فِي كَرَمٍ ، وَالذَّهْرِ فِي هِمَمٍ (٥٦)

(٥٥) قوله « أكرم بخلق نبي إلخ » أى ما أكرم خلق نبي إلخ ، فأكرم فعل تعجب لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ، وقاعله ظاهر ، وهو الخلق بفتح الحاء وسكون اللام ، لكن دخلت عليه الباء الزائدة لتحسين اللفظ ، وقوله « زانه خلق » أى حسنه خلق بضم الحاء واللام ، بمعنى زاده حسنا ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (*) وقال أنس : « كَانَ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا » . وقوله « بالحسن مشتمل بالبشر متسم » أى متصف بالحسن ، فاشتماله به من اشتمال الموصوف بالصفة ، متصف بالبشر ، وهو بكسر الباء وسكون الشين المعجمة : بشاشة الوجه وطلاقة ، والاتسام : الاتصاف ، ولا يخفى أن قوله بالحسن متعلق بمشتمل ، وهو بالجر على أنه صفة لنبي ، فهو من باب الوصف بالمقرد بعد الوصف بالجمله ، وكذا يقال فى قوله « بالبشر متسم » . وحاصل المعنى : ما أحسن صورة نبي حسنه خلق ، متصف بالحسن ، متصف بالبشاشة وطلاقة الوجه .

(٥٦) قوله « كالزهر فى ترف إلخ » صفة رابعة لنبي ، وتشبيهه ﷺ بالزهر فى الترف وبالبدر فى الشرف راجع إلى صورته الشريفة ، وتشبيهه ﷺ بالبحر فى الكرم وبالدهر فى الهمم راجع إلى خلقه الكريم ، والزهر : نور النبات بفتح النون ، والترف : بفتح التاء المثناة الفوقية والراء المهملة النعومة ، قال أنس : « مَا مَسَسْتُ حَرِيرًا وَلَا دِيْبَاجًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ » . والبدر هو القمر ليلة كماله ، وهى ليلة أربعة عشر ، وإنما سُمى فى تلك الليلة بدراً لأنه يبدر الشمس بالطلوع ، والشرف بفتح الشين المعجمة والراء المهملة : العلو ، وشرف البدر على سائر الكواكب الليلية ، وشرف النبي ﷺ على سائر الخلق ، وكرم البحر مذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْبَسًا وَنَاقًا وَمِنْهُ يَخْرُجُ الْكَبَاجُ وَالْحَبُوبُ حَاصًّا ﴾ (١) . وكرم النبي ﷺ مذكور فى الأحاديث الكثيرة ومنها حديث أنس قال : « مَا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ (أى لأجل الإسلام) شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ » قال : فسأله رجل غنما بين جبليْن ، فأعطاه إياها ، فأتى قومه فقال : يَا قَوْمِ أَسْلَمُوا فَوَاللَّهِ إِنْ مُحَمَّدًا يُعْطَى عَطَاءً مَنْ لَا يَخَافُ الْفَقْرَ » . والدهر : الزمن ، والهمم : جمع همة وهى العزم على =

(*) الآية ٤ سورة القلم .

(١)

كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ جَلَالَتِهِ فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمٍ (٥٧)

= الشئ والإرادة له ، ونسبة الهمم إلى الدهر على عادة العرب ، فإنهم يجعلون للدهر عزومات وإرادات ويشبهون الممدوح به في تلك العزومات والإرادات ، وسبب ذلك أن الحادثات الدقيقة إنما تقع في الدهر فينسبون لها إليه على سبيل المجاز العقلي ، كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، ولقد تغالى أى تجاوز الحد من قال :

لَهُ هَمٌّ ، لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا وَهَمُّهُ الصَّغْرَى : أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ
لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ مِعْشَارَ عَشْرِهَا عَلَى الْبَرِّ : كَانَ الْبَرُّ أُنْدَى مِنَ الْبَحْرِ (١)

ووجه الغلو أى مجاوزة الحد ، أنه أثبت لممدوحه همما صغرى وكبرى ، وجعل همته الكبرى لا تنتهى لها ، وجعل همته الصغرى أجل من الدهر ، أى من همم الدهر ، والمصنف جعل همم النبى مثل همم الدهر ، فيلزم من ذلك أن همم الممدوح أجل من هممه ﷺ ، وهو باطل ، وبعضهم نسب هذين البيتين لحسان يمدح بهما النبى ﷺ ، وعليه فلا غلو لأنه ﷺ كان كذلك ، وهذا أبلغ فى مدحه ﷺ من كلام الناظم ، لكن لم يوجد ذلك فيما جُمع من شعر حسان .

(٥٧) قوله « كأنه وهو فرد » إلخ ، صفة خامسة لنبى ، وكأن للتشبيه ، والضمير اسمها ؛ وجملة « وهو فرد » حال من المفعول فى « تلقاه » ، فالوار للحال ، ومن جلالته أى من أجل جلالته ، فهو تعليل للتشبيه المستفاد من « كأن » ، وحين تلقاه ظرف لما هو معنى « كأن » من التشبيه . وقوله « فى عسكر » و « فى حشم » خبر كأن ، وتقدير البيت كأنه حين تلقاه وهو فرد فى عسكر وفى حشم من أجل جلالته ، وقصد المصنف تشبيهه ﷺ وهو منفرد بنفسه إذا كان فى عسكر وفى حشم ، وهو ﷺ إذا كان فى عسكر وفى حشم له هبة ووقار ، فكذلك وهو منفرد ، فيكون له أيضا هبة ووقار من أجل جلالته : الجلالة : العظمة ، والعسكر : الجيش ، والحشم : بفتح الحاء والشين المعجمة الخدم ، والخطاب فى « تلقاه » لكل من صلح للخطاب ، وحكى أن بعضهم رأى فى المنام أن الصديق رضى الله عنه يزف النبى ﷺ بهذا البيت ، والذي بعده .

(١) لو كان هذا الشعر فى حق رسول الله ﷺ لكان القائل صادقا أما فى حق غيره فكذب محض . والله أعلم .
لأن همة المصطفى ﷺ لا يساويها شئ إذ هى هبة من الله لأكرم خلق الله تعالى ﷺ .

كَأَنَّمَا اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفٍ مِنْ مَعْدَنِي مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسِمٍ (٥٨)
لَا طِيبَ يَعْدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أَعْظَمَهُ طُوبَى لِمَنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَنِمٍ (٥٩)

(٥٨) قوله « كأَنَّمَا اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفٍ » إلخ صفة سادسة لنبي ، وقد جرى المصنف في البيت السابق وهو قوله « كالزهر في ترف » إلخ على ما جرت به العادة في التشبيه ، وجرى في هذا البيت على عكسه ، لأنه شبه اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفِهِ بِكَلَامِهِ وَثَغْرِهِ ۞ اللذان يبرزان من معدني منطقته ومبتسمه ، والأصل أن يشبه كلامه وَثَغْرَهُ ۞ اللذان يبرزان من معدني منطقته ومبتسمه بِاللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفِهِ ، بجامع الحسن في كل ، فالمصنف عكس التشبيه ، كما في قول الشاعر :

وبدا الصباح كأنَّ غُرَّتَهُ وَجَهُ الْخَلِيفَةِ حِينَ يَمْدَحُ

وفي ذلك إشارة إلى أن الفرع لقوة وجه الشبه فيه صار أصلاً ، والأصل لضعف وجه الشبه فيه صار فرعاً ، ويسمى التشبيه المقلوب ، وهو أبلغ في المدح ، واللؤلؤ هو الدر المسمى بالجواهر ، والمكنون : المصون ، و « في صدف » متعلق بالمكنون ، والصدف : المحار الذي يتولد فيه ، وهو وعاء له يحفظه حتى ينشق عنه ، كما أن القلب وعاء للكلام النفسى ، حتى يبرزه اللسان ، وكما أن الشفتين المنضمتين على الثغر كالوعاء له ، وإنما قيد اللَّوْلُؤُ بِالْمَكْنُونُ فِي صَدَفٍ لأنه يكون في الصدف أحسن منظراً منه خارج الصدف ، والإضافة في معدني منطق منه ومبتسم للبيان ، أى من معدنين هما منطق منه ومبتسم ، ويصح أن تكون من إضافة المشبه به للمشبه ، أى من منطق ومبتسم شبيهين بالمعدنين ، والمنطق : محل النطق ، وهو راجع لكلامه ۞ ، والمبتسم بفتح السين محل الابتسام ، لا بكسرها خلافاً لبعض الشارحين ، وهو راجع لثغره ۞ . ومعنى البيت كَأَنَّمَا اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفِهِ كَلَامِهِ وَثَغْرَهُ ۞ اللذان يبرزان من معدني منطق منه ومبتسم ، وفي كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول أى و « مبتسم » منه .

(٥٩) قوله « لَا طِيبَ يَعْدِلُ » إلخ : لما مدحه ۞ بما اتصف به من المحاسن قبل مفارقتها الدنيا ، مدحه بما اتصف به من المحاسن بعدها ، فقال لَا طِيبَ إلخ ، والطيب : ما يتطيب به من مسك ونحوه ، والترب يسكون الرائحة في التراب ، والضم : الجمع ، والأعظم : جمع عظم ، وطوبى : إما مصدر بمعنى التطيب أو اسم لشجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام ولا يقطعها .

وعلى الاول ، فهو بدل من اللفظ بفعله ، وهو طاب ، والأصل طاب المنتشق والمتلثم فحذف الفعل وأتى بالمصدر بدلاً من التلفظ به ، وزيدت اللام لتبيين الفاعل . =

.....

= وعلى الثانى فهو مبتدأ خبره ما بعده ، وعلى كل فيحتمل أنه إخبار ، وأنه دعاء ، وحاصل المعنى : لا طيب يساوى التراب الذى جمع الجسد الشريف ، وهو تراب قبره ﷺ ، تطيبا ، أو الشجرة التى فى الجنة لمنتشق منه وملتثم على التفسيرين السابقين فى طوبى ، ولما كان الطيب يستعمل على وجهين تارة ، يستعمل بالشم ، وتارة يستعمل بالتضمخ ، أشار للأول بقوله « منتشق » وللثانى بقوله « ملتثم » ، والمراد بالملتثم هنا المعفر موضع اللثام ، وهو الوجه ، وليس المراد المقبل أخذاً له من الالتئام وهو التقبيل ، لأن تقبيل القبر الشريف ، وكذا ما فيه من التراب مكروه (١) . ومعلوم أن طيب التراب المذكور إنما سرى له من طيبه ﷺ الذى هو أعلى أنواع الطيب ، ولذلك قال أنس : « ما شمت عنبراً ولا مسكا ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ » ثم أن أطيبه ذلك التراب يحتمل أنها باعتبار ما عند الله تعالى ، ويحتمل أنها باعتبار ما عند غيره أيضاً ، لكن لا يدرك ذلك إلا من كشف له الغطاء من الأولياء المقربين ، لأن أحوال القبر من الأمور التى لا يدركها إلا من ذكر ، فاندفع ما يقال : لو كان التراب المذكور من الطيب لزم أن يدرك طيبه كل أحد كالمسك ، فإنه يدرك طيبه كل أحد ، على أنه لا يلزم من قيام المعنى بمحل إدراك كل أحد له ، لجواز انتفاء شرط أو وجود مانع ، وعدم الإدراك لا يدل على انتفاء المدرك ، ألا ترى أن المزموم لا يدرك رائحة المسك ، مع أنها قائمة به ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فيما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفرة النار » ولا شك أن قبره ﷺ روضة من رياض الجنة ، بل أفضلها ، وقد قال أيضاً عليه الصلاة والسلام « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » وكل من القبر والمنبر داخل فى حكم ما بينهما ، أما القبر فللخبر العام الذى ذكر ، وأما المنبر فلقوله ﷺ فى آخر الحديث « ومنبري على حوضي ، والحوض من الجنة » وإذا تقرر كون هذا المكان من الجنة ، لم يبق عند العاقل المصدق بالشريعة امتراء فى أنه لا طيب يغدله ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول : أى وملتثم منه ، كما تقدم فى البيت السابق .

(١) كيف وقد قبلت السيدة فاطمة رضى الله عنها تراب قبر أبيها ﷺ ، وقالت :

« ماذا على من شمت ترية أحمد
صبت على مصائب لو أنها
ألا يشم مدى الزمان غواليا
صبت على الأيام عدن لياليا » إ هـ

والغالية : طيب معروف .

أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طَيْبِ عُنْصُرِهِ يَا طَيْبَ مُفْتَتَحٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمٍ (٦٠)
يَوْمَ تَفْرَسُ فِيهِ الْفُرْسُ أَنَّهُمْ قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنَّقَمِ (٦١)

(٦٠) قوله « أبان مولده إلخ » الإبانة : الكشف والإظهار ، والمولد : مصدر ميمي يصلح لأن يراد به الولادة أو زمانها أو مكانها ، وعلى كل من الاحتمالات الثلاثة لا بد من تقدير مضاف ، والأصل أبان آيات مولده ، و « عن » للتعدية ، والطيب الخلوص عما لا ينبغي فى النسب ، و « العنصر » بضم العين المهملة وسكون النون وضم الصاد هو الأصل ، والمراد به أباه الذين تناسل هو منهم ، وقوله « يا طيب إلخ » نداء للطيب على سبيل التعجب لأن العرب إذا استعظمت شيئا نادته على سبيل التعجب ، أى : يا طيب مفتتح إلخ احضر ليتعجب منك ، والمراد بالمفتتح بفتح التاء بين المثنائين : مَنْ فوق آدم عليه السلام ، وبالمختتم كذلك : سيدنا عبد الله ، خلافا لما قاله بعض الشارحين من أن المراد بالمفتتح هاشم ، وبالمختتم النبى ﷺ ، لأن افتتاح عنصره ليس بهاشم ، بل بآدم ، واختتامه ليس بالنبى ﷺ ، بل بسيدنا عبد الله ، وإذا تعجب من طيب المفتتح والمختتم لزم أن يتعجب من طيب ما بينهما ، وفى بعض النسخ بدل المفتتح : المبتدأ ، والضمير فى قوله « منه » راجع للعنصر ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول ، أى ومختتم منه ، كما فى البيتين قبله ، وحاصل معنى البيت : أظهرت وكشفت آيات مولده عن خلوص آبائه ﷺ عما لا ينبغي فى النسب يا طيب مفتتح إلخ احضر ليتعجب منك . ومن آيات مولده ﷺ ما ذكره عن أمه أنها قالت : لقد أخذنى الطلق ، وإنى لوحيدة فى المنزل ، وعبد المطلب فى طوافه يوم الإثنين ، فسمعت وجبة (أى سقطة) هالتنى ، ورأيت كأن جناح طير أبيض مسح فؤادى ، فذهب رعبى ، وكلُّ وجع أجده ، وكنت عطشى فإذا بشرية بيضاء فشربتها ، فأصابنى نور عال « إلى آخر الحديث ، وقد ذكره بطوله القسطلانى .

(٦١) قوله « يوم إلخ » أى هو يوم إلخ ، فهو خبر مبتدأ محذوف ، والضمير راجع لمولده ، بمعنى زمان الولادة فقط ، وإن كان محتملا فيما تقدم للحدث وللزمان وللمكان ، وقوله تفرس فيه الفرس : أى ظهر لهم بطريق الفراسة بكسر الفاء ، وهى قوة يدرك بها الإنسان المعانى اللطيفة بسبب المخايل الظاهرة ، بخلاف الفراسة بفتح الفاء فإنها الحذق فى ركوب الخيل (١) ، والفرس : بضم الفاء وسكون الراء أهل مملكة =

(١) قال فى القاموس : « والفراسة - بالكسر - اسم من التفرس ، وبالفتح : الحذق بركوب الخيل وأمرها » .

وبات ايوان كسرى ، وَهُوَ مُنْصَدِعٌ كَشْمَلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرِ مُلْتَمِمْ (٦٢)

= فارس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار بعد رفع كتابهم حين بدّلوه ، وإنما سُمُوا فرساً لأنه وُلد لأبيهم بضعة عشر رجلاً ، كلُّ منهم شجاع فارس ، فسُمُوا الفرس لذلك ، وقوله « أنهمو » بالإشباع ، وقوله « قد أنذروا » أى أعلموا بالبناء للمجهول ، وقوله « بحلول البؤس والنقم » أى بنزول البؤس والنقم بهم ، والجار والمجرور متعلق بأنذروا ، والحلول من حل يحل بالضم أو بالكسر ، إذا نزل ، والبؤس : هو الشدة المؤثرة فى القلب الهم والحزن ، و « النقم » جمع نعمة وهى العقوبة ، والمراد بالبؤس والنقم ما حصل لهم من خراب ملكهم وتشتيت أمرهم وتفرق قبائلهم وتمزيقهم كل ممزق كما دعا عليهم رسول الله ﷺ . وحاصل المعنى أن يوم ولادته ﷺ يوم ظهر للفرس فيه أنهم أنذروا بنزول الشدة والعقوبات بهم حيث قارنه ما سيذكره الناظم من الإرهاصات المؤسسة لنبوته ﷺ .

(٦٢) قوله « وبات إيوان كسرى » إلخ عطف على قوله تفرس إلخ ، أى وبات فى ليلة ولادته ﷺ إيوان كسرى إلخ . والإيوان كديوان بناء يبنى طولاً غير مسدود الوجه ، يعده الملك لجلوسه فيه لتدبير ملكه ، وقد كان سمك ذلك الإيوان مائة ذراع فى مثلها ، ومكث فى بنائه نيفاً وعشرين سنة ، ولهذا كان يظن إنه لا يهدمه إلا نفخة الصعق ، وقد أراد هارون الرشيد هدمه لما بلغه أن تحته مالا عظيماً فعجز عنه ، فأبقاه على حاله ، وكسرى بكسر الكاف لقب لكل من ملك الفرس ، والمراد به هنا أنوشروان بن قباد بن فيروز ، وقوله « وهو منصدع » أى والحال أنه منشق شقاً بيناً أشرف به على الهدم ، لا لخلل فى بنائه ، بل ليكون آية من آياته ﷺ ، ومع انصداعه سقط منه أربع عشرة شرافة من شرافاته ، وكانت اثنين وعشرين ، وقد روى أنه لما ارتج إيوان كسرى وسقط منه الأربع عشرة شرافة أحزنه ذلك ، فتوجه إلى النعمان ملك العرب يستفسره عن سر ما بدا ، فرفع النعمان الخبر إلى سطيح وقد أشرف على الضريح وهو القبر ، فقال : « يكون سبى وسبايات ، ويموت ملوك وملكات ، بعدد الشرافات » ، ثم قضى على سطيح . وقوله : « كشمَلِ أصحاب كسرى » بفتح الشين أى حالهم ، وقوله « غير ملتئم » خبر بات . وحاصل المعنى : وصار إيوان كسرى والحال أنه منصدع غير ملتئم كشمَلِ أصحاب كسرى ، فإنه بات أيضاً غير ملتئم ، بل تفرق ، ولم يتفق لأحد مثل ما اتفق لكسرى فى كثرة جيوشه وأعوانه ، ولم يزالوا فى تفرق وتشتت حتى جاءت بشائر الإسلام .

وَالنَّارُ خَامِدَةٌ الْإِنْفَاسِ مِنْ أَسْفٍ عَلَيْهِ ، وَالنَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمٍ (٦٣)

(٦٣) قوله « والنار خامدة الأنفاس » إلخ يجوز فيه رفع الجزأين على الابتداء ، والخبر والعطف حينئذ من عطف الجمل لأن هذه الجملة معطوفة على جملة قوله « وبات إيوان كسرى » إلخ ، ويجوز رفع الأول على أنه معطوف على « إيوان » ونصب الثانى على أنه معطوف على « غير ملتئم » ، وهكذا يقال فى قوله « والنهر ساهى العين » إلخ على لغة من أعرب المنقوص نصبا كإعرابه رفعا وجرا ، والعطف حينئذ من عطف المفردات ، والمراد من النار نار الفرس التى كانوا يعبدونها ، وكان لها خَدَمَةٌ يوقدونها ، ولم تخدم قبل تلك الليلة بألف عام ، وفى عبارة بعضهم : بألفى عام ، ومعنى كونها خامدة الأنفاس كونها منطفئة للهب مع بقاء الجمر ، فخمود النار انطفاء لهبها مع بقاء جمرها ، وأما الهمود فانطفاء لهبها مع جمرها ، والأنفاس : جمع نفس بفتح الفاء ، والمراد به هنا لهب النار ، على طريق الاستعارة التصريحية ، وقوله « من أسف » أى من أجل أسف ، فمن للتعليل ، والأسف بفتح الهمزة والسين : شدة الحزن ، وقوله « عليه » متعلق بأسف ، والأظهر أن الضمير المجرور بعلی راجع للإيوان ، وجوز بعض الشارحين أن يكون راجعا إلى النبى ﷺ ، ووجه ذلك بأن ولادته ﷺ سبب فى ترك عبادتها ، وهذا من حسن التعليل تقريبا بهم ، وهو أن يدعى لحكم علة مناسبة ، لكنها غيره موافقة للواقع ، كما فى قوله :

وما نزل الغيث إلا لكى يقبل بين يديك الشرى

وقوله « والنهر ساهى العين » قد عرفت إعرابه ، والمراد بالنهر : نهر الفرات ، الذى كان به قوامهم ، وكان قد ضل الطريق ، ووقع فى ساة ، وهى بادية بين دمشق والعراق ، والمراد بكونه ساهى العين أنه ساكن العين التى هى مادته عن الجرى ، على سبيل الاستعارة ، ويحتمل أن فى الكلام استعارة بالكناية ، فيكون قد شبه النهر بإنسان ساهى العين ، تشبيها مضمرا فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو « ساهى العين » ، وقوله « من سدم » أى من أجل سدم ، فمن للتعليل ، والسدم بفتح السين والذال : الحزن ، وهذا من حسن التعليل أيضاً ، وبعضهم جعل إثبات الأسف للنار والسدم للنهر مجازا عقليا ، لتزليل كل منهما منزلة العاقل ، وقد عرفت أنه من حسن التعليل ، فلا حاجة لذلك ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول أى من سدم عليه ، كما تقدم فى نظائره .

وَسَاءَ سَاوَةٌ أَنْ غَاظَتْ بِحَيْرَتِهَا وَرَدُّ وَارِدُهَا بِالْغَيْظِ حِينَ ظَمِيَ (٦٤)
كَأَنَّ بِالنَّارِ مَا بِالمَاءِ مِنْ بَكلٍ حَزْنًا ، وبِالماءِ ما بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمٍ (٦٥)

(٦٤) قوله « وساء ساوة » إلخ أى وساء أهل ساوة إلخ ، فهو على تقدير مضاف على حد قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ (*) أى أهلها ، وسواة اسم لمدينة من مدن القريس وهى بين همدان والرى ، وقوله « أن غاظت بحيرتها » فاعل ساء ، ومعنى غاظت (بضاد معجمة ، قيل وبضاد مهملة) غار ماؤها وذهب بالمرة ، حتى أن لهب النار ينبع من قعرها ، كأنما طبخت أرضها ، وكانت هذه البحيرة بركة عظيمة تسير فيها السفن للبلاد التى على ساحلها ، وكان طولها ستة أميال فى مثلها عرضا ، وقيل ستة فراسخ فى مثلها عرضا ، وقال البكرى : كان طولها عشرة أميال وعرضها ستة ، وكان حولها بيع وكنائس ، فخريت ، ومن ذلك يعلم أن التصغير فيها ليس للتحقيق (١) ، وقوله « وردّ واردها » إلخ « أى وأن ردّ واردها » إلخ ، فهو معطوف على مدخول أن فى قوله « أن غاظت بحيرتها » والباء فى قوله « بالغيط » للملابسة ، أو المصاحبة ، أى ملابسا للغيط أو مصاحبا له ، والجار والمجرور متعلق برّد ، وقوله « حين ظمى » ظرف لواردها ، أى الذى يردّها ويأتى إليها ليستقى من مائها حين عطش .

وحاصل المعنى : وأحزن أهل المدينة المسماة بساوة أمران : أحدهما غيظ مائها ، والثانى ردّ الذى يردّها ليستقى منها بالغيط حين عطش .

(٦٥) قوله « كأن بالنار » إلخ لا يخفى أن بالنار خير كأن مقدم ، وما بالماء اسمها مؤخر ، والأصل كأن ما بالماء بالنار ، وما : اسم موصول بمعنى الذى ، وقوله من بلل : بيان لها ، وقوله « حزنا » أى للحزن ، فهو علة لقوله « كأن بالنار ما بالماء من بلل » ، وقوله : « وبالماء ما بالنار من ضرَم » ، فيه ما تقدم فيما قبله ، أى وكأن بالماء ما بالنار من ضرَم ، والضرَم : الالتهاب ، وفيه الحذف من الثانى لدلالة الأوّل أى حزنا ، وحاصل المعنى أن النار التى خمدت تلك الليلة صارت كأن بها ما بالماء من البلل ، فصارت مبتلة لحزنها ، وأن الماء الذى غاض تلك الليلة صار كأن فيه ما بالنار من الضرَم لحزنه أيضا ، فكأن ما بكل من نار فارس وماء بحيرة ساوة انتقل للآخر من الحزن ، وخص الناظم من أوصاف الماء البلل دون البرودة مثلا ، ومن =

(*) سورة يوسف : ٨٢

(١) لأن بحيرة : بضم الباء تصغير : بحر .

وَالْجِنُّ تَهْتَفُ وَالْأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى وَمِنْ كَلِمِ (٦٦)

= أوصاف النار الإضرار دون الحرارة مثلا ، لأن البلب هو الذى يخرج النار عن حقيقتها ، بخلاف البرودة فإنها لا تخرجها عن حقيقتها ، قال الله تعالى : ﴿ يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ (*) والإضرار هو الذى يخرج الماء عن حقيقته ، بخلاف الحرارة ، فإنها لا تخرجه عن حقيقته ، فإنه يقال : ماء حار ، ولا يقال ماء مضطرب ، لأن الاضطراب يستلزم غاية اليأس ، فإن قيل : الجمادات كلها لا توصف بالكفر ، بل منقاد خاضعة لله ، قال تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (**) فكيف يقول الناظم حزنا ، واللائق أن يكون ذلك فرحا ؟ أجيب بأن النار تحزن على نفسها من أجل أنها لا توقد ، والماء يحزن على نفسه من حيث أنه لا يجرى ، فكل منهما شبيه بالحزين لأجل ذلك ، هذا إن كان المراد حزن ذاتهما كما هو المتبادر ، وإن كان المراد حزن أهلهما ، فلا إشكال : لأن أهلهما يحزنون على تغيير ملكهم وتشتيت أمرهم .

(٦٦) قوله « والجن تهتف » إلخ أى وصارت الجن تهتف فى الجبال والأودية ، فمن ذلك ما جاء أنه حين ولد ﷺ هتف هاتف على الحجون (١) وهو يشد ويقول : فأقسم ما أنثى من الناس أنجبت ولا ولدت أنثى من الناس واحدة كما ولدت زهرية (٢) ذات مفخر مجنب لؤم القبائل ماجدة

ومنها أن هاتف سواد بن قارب أنشده أبياتا ثلاث ليل فيها الحث على المجى لرسول الله ﷺ والإيمان به وعظيم مدحه . والجن : هم أولاد إبليس ، كما أن البشر أولاد آدم ، وقيل : الجن أولاد الجان ، فأبليس أبو الشياطين ، والجان أبو الجن ، والقول الأول أقوى (٣) . والتهتف : قيل الصوت مطلقا ، وقيل الصوت الخفى ، وقوله =

(١) بفتح الحاء ، جبل بمحلة مكة المكرمة . (*) (**) الإسراء : ٤٤ .

(٢) هى السيدة آمنة أم النبى ﷺ .. رضى الله عنها وأرضاها ، وهى من بنى زهرة : بضم الزاى .

(٣) الأصناف ثلاثة : بنو آدم ، والجن ، والملائكة : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » رواه الإمام أحمد والإمام مسلم ، وليس هناك صنف رابع اسمه الشياطين ، وإنما هم من ذرية إبليس لعنة الله ، ولعن كافرهم معه . والجن أجناس وقبائل كما أن بنى آدم أجناس وقبائل .

عَمُوا وَصَمُوا فَإِعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ تَسْمَعْ ، وَبَارِقَةُ الْإِنْذَارِ لَمْ تُشَمَّ (٦٧)
مِنْ بَعْدٍ مَا أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ بِأَنَّ دِينَهُمُ الْمُعْجُجَ لَمْ يَقُمْ (٦٨)

= « والأنوار ساطعة » أى والأنوار التى خرجت مع محمد ﷺ عند ولادته لامعة ظاهرة ،
ففى الحديث عن آمنة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : لما ولدته خرج من فرجى نور
أضاء له قصور الشام ، فولدته نظيفا ما به قدر « وإلى ذلك يشير عمه العباس بقوله :
وَأَنْتَ لَمَّا وَلِدْتَ أَشْرَقْتَ أَلْأَرْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأَفْقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِيَاءِ وَفِي النُّورِ وَ سُبُلُ الرِّشَادِ نَخْتَرِقُ
وقوله « والحق يظهر من معنى ومن كلم » أى والحق الذى هو أمره ﷺ من نبوته
ورسالتة يظهر من معنى ، كالأنوار ، ومن كلم كهتف الجن ، ففى ذلك مع قوله
« والجن تهتف والأنوار ساطعة » لف ونشر مشوش .

(٦٧) قوله « عموا وصموا إلخ » هذا البيت واقع فى جواب سؤال مقدر ، فكأن
شخصا قال له : إذا كان الحق يظهر من معنى ومن كلم ، فما بال الكفار جحدوا نبوته
ﷺ ؟ فأجابه المصنف بأنهم عموا وصموا إلخ فالضمير راجع للكفار ، فلكونهم لم
ينتفعوا بما شاهدوه من المعنى ، ولا بما سمعوه من الكلم ، حيث جحدوا نبوته ﷺ ، مع
كون الحق يظهر من معنى ومن كلم ، كأنهم عموا عن مشاهدة المعنى ، كالأنوار ،
وصموا عن سماع الكلم كهتف الجن ، ففى ذلك مع قوله « والحق يظهر من معنى ومن
كلم » لف ونشر مرتب ، وقوله « فَإِعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ تَسْمَعْ » أى بإظهار البشائر به
ﷺ كهتف الجن لم تسمع لهم سماع قبول ، وهذا مرتب على قوله « وَصَمُوا » وإِذَا
قال : « لم تسمع » بالتاء الفوقية ، لأن المضاف إليه أكسب المضاف التأنيث ، وقوله
« وَبَارِقَةُ الْإِنْذَارِ لَمْ تُشَمَّ » أى ولامعة الإنذار به ﷺ ، أى تخويفهم به ، كالأنوار لم
تنظر لهم نظر قبول ، فالمراد بالبارقة : اللامعة ، وهى فى الأصل اسم للسيف اللامع ،
يقال بيده بارقة ، أى سيف لامع ، والمراد بقوله « لم تشم » لم تنظر ، يقال شام البرق :
نظر إليه ، وهذا مرتب على قوله « عموا » ، ففى ذلك مع قوله « عموا وصموا »
لف ونشر ، معكوس .

(٦٨) قوله « من بعد ما أخبر » إلخ متعلق بقوله « عموا وصموا » وفى ذلك
غاية التوبيخ بهم ، حيث جحدوا من بعد ما علموا حقيقة الحال من كاهنهم الذى كانوا
يصدقونه ويتبعونه فيما يقوله ، و « ما » مصدرية ، فيؤول الفعل بعدها بمصدر ، =

وَيَعْدَ مَا عَيْنَا فِي الْأَفْقِ مِنْ شُهَبٍ مُنْقَضَةٍ وَفَقَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَنَمٍ (٦٩)

= و « الأقوام » مفعول مقدم ، و « كاهنهم » فاعل مؤخر ، والكاهن من كان له تابع من الجن يخبره بخبر السماء ، لاستراقه السمع ، فيحدثهم بذلك ، لكن يزيد على الكلمة الحق مائة كذبة ، وقوله « بأن دينهم المعوج لم يقم » أى بأن ما هم عليه من الدين المعوج ، لاشتماله على عبادة الأصنام ، لا قيام له ، مع وجوده ﷺ ، والمراد أنه أخبرهم بما يفيد ذلك ، لأنه أخبرهم بأنه يبعث رسول الله ﷺ بذهاب دينهم المعوج .

(٦٩) قوله « ويعد ما عاينوا » إلخ أى ومن بعد ما عاينوا إلخ ، فهو معطوف على بعد ، فى قوله « من بعد ما أخبر » إلخ فيقرأ لفظ بعد بالجر نظرا لذلك ، ويصح قراءته بالنصب نظرا لمحل الجار والمجرور ، و « ما » موصولة بمعنى الذى ، والعائد محذوف ، والتقدير عاينوه أى شاهدوه وأبصروه ، وقوله « فى الأفق » بسكون الفاء ، كما هو لغة فى الأفق بضمها ، والمراد به هنا السماء : لا حقيقته ، التى هى أطراف السماء الماسة للأرض لعدم وجود الشهب فى ذلك ، وقوله « من شهب » بيان لما عاينوه ، والشهب : جمع شهاب (١) وهو شعلة من نار ساطعة ، وليس هو النجم كما قد يتوهم لأنه لا ينقض ولا يستقط ، وقوله « منقضة » أى ساقطة من السماء على الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع من الملائكة ليلة ولادته ﷺ ، ولم يكن للكفار عهد بمثل ذلك ، وإن كان لهم به عهد فى الجملة ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السموات كلها ، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات بسقوط الشهب عليهم ، ولما ولد ﷺ زيد فى حراسة السماء ، فمنعوا من سائرهما بسقوط الشهب عليهم بكثرة ، لكن كانوا يقعدون فى مقاعد قريبة من السماء بحيث يسمعون صريف الأقلام أى صوت أقلام الملائكة التى تكتب ما يقع فى العالم . ولما بعث ﷺ منعوا من ذلك بالشهب أيضا ، كما قال الله تعالى حكاية عنهم ﴿ وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴾ (*) . وقوله : « وفق ما فى الأرض » أى مثل ما فى الأرض فى الانقضاء والسقوط ، لأن أصنام الدنيا أصبحت منكوسة تلك الليلة ، و « ما » موصولة بمعنى الذى ، وقوله « من صنم » بيان لها ، أى من جنس الصنم الصادق بالكثير ، والصنم والوثن بمعنى واحد ، وقيل الصنم ما كان مصورا والوثن ما كان غير مصور ، وقيل الصنم ما كان من حجر ، والوثن ما كان من غيره كنجاس .

(*) سورة الجن : ٩

(١) شهاب : بكسر الشين ، قال فى القاموس : « شهاب ككتاب : شعلة من نار ساطعة » .

حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ مُنْهَزِمٌ مِّنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمٍ (٧٠)
كَأَنَّهُمْ هَرَبًا أَبْطَالُ أَبْرَهَةَ أَوْ عَسْكَرُ الْحَصَى مِنْ رَاحَتِهِ رُمِيَ (٧١)

(٧٠) قوله « حتى غدا » إلخ أى ولم تزل الشهب تنقض إلى أن غدا إلخ ، فهو غاية لمحذوف ، و « حتى » بمعنى ، إلى وغدا بمعنى صار ، وقوله عن طريق الوحي : متعلق بمنهزم الواقع اسما لغدا ، وطريق الوحي : هو السماء ، والوحي : الكلام الخفى ، والكتاب والإشارة ، والرسالة ، والإلهام ، إلى غير ذلك ، والمنهزم : الهارب ، وقوله « من الشياطين » بيان لمنهزم مشوب بتبعيض ، وقوله « يقفو إثر منهزم » أى يتبع أثر هارب آخر . وحاصل المعنى ولم تزل الشهب تنقض إلى أن صار هارب من الشياطين عن السماء التى هى طريق الوحي يتبع أثر هارب آخر ، وهلم جرا .

(٧١) قوله « كأنهم هربا » إلخ الضمير للشياطين ، وهربا حال ، أى فى حال كونهم هاربين ، والأبطال جمع بطل ، وهو الشجاع القوى جدا ، وسمى بطلا لبطلان همم الشجعان عند ملاقاته ، أو لأن الدماء تبطل عنده ، فلا يؤخذ بثأرها ، وأبرهة بالصرف للضرورة ، وإلا فهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، ومعناه بلسان الحبشة أبيض الوجه ، والمراد به هنا ملك اليمن . والعسكر الجيش كما تقدم ، والحصى حجارة صغيرة صلبة ، والراحتان : بطن الكف ، وقوله رمى بالبناء للمجهول : صفة لعسكر ، ويتعلق به كل من قوله بالحصى ، وقوله من راحتيه ، والمقصود تشبيه الشياطين فى حال هربهم من الشهب بأبطال أبرهة أو بالعسكر الذى رمى بالحصى من راحتيه ﷺ ، والمصراع الأوّل إشاره إلى قصة أصحاب الفيل ، والمصراع الثانى إشارة إلى غزوة بدر ، على ما رواه البخارى ، من أن رمى الحصى كان فى غزوة بدر ، أو إلى غزوة حنين ، على ما رواه مسلم ، من أن رمى الحصى كان فى غزوة حنين ، ولا مانع من تعدّد الرمى ، وأشار بقوله « رمى » بالبناء للمجهول ، إلى أن النبى ﷺ وإن باشر الرمى ظاهراً لكن الرامى حقيقة هو الله ، قال تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (*) ولما رماه ﷺ فى وجوه الأعداء لم يبق منهم أحد إلا دخل التراب فى عينيه ، وانهزموا جميعا ، فتبعهم المسلمون بأسروهم ويقتلونهم ، وحاصل قصة أصحاب الفيل أن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج ، فقال : أين يذهبون ؟ ف قيل : يحجون بيت الله بمكة ، قال : وممّ هو ؟ قيل : من الحجارة =

(*) سورة الأنفال الآية ١٧ .

نَبِّدَا بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحِ بَيْطِنِهِمَا نَبِّدَا الْمَسِيحَ مِنْ أَحْشَاءِ مُلْتَقِمِ (٧٢)

= فقال : والمسيح لأبنين لكم بيتا خيراً منه ، فبنى لهم كنيسة ^(١) من الرخام الأسود والأحمر والأصفر ، وحلأها بالذهب والفضة وأنواع الجواهر ، وأراد صرف الحج إليها ومنع الناس من الذهاب إلى مكة ، فلما اشتهر الخبر عند العرب خرج رجل من كنانة مفضبا ، وتقوَّط فيها ، ولطخ قبلتها بالعدرة ، ولحق بأرضه ، فأغضب ذلك أبرهة ، وحلف لينتقضن الكعبة حجرا حجرا ، وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه فيله ، فلما قدم إليه الفيل خرج في ستين ألفا ، فلما بلغ المغمس ^(٢) { بضم الميم الأولى ، وفتح الغين المعجمة ، وتشديد الميم الثانية مفتوحة أو مكسورة } أمر أبرهة رجلا بالغارة إلى مكة ، فمضى إليها واستاق إبل قريش وغنمهم ، فهموا بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا يطيقون قتاله ، فتركوه ، ثم لما تهيأ أبرهة لدخول مكة برك الفيل ، فضربوه في رأسه ، ليقوم ، فأبى ، فوجهوه إلى غير مكة ، فقام بهرول ، ثم وجهوه إلى مكة فبرك ، ثم أرسل الله عليهم الطيور الأبايل ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره ، والآخران في رجليه ، فذهبوا هارين يتساقطون بكل طريق ، وكان الحجر يصيب رأس الرجل ، فيخرج من دبره ومن أسفل مركوبه ^(٣) ، وإلى هذه القصة أشار سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ إلى آخر السورة .

(٧٢) قوله « نبِّدَا بِهِ » إلخ أى نبِّدْهُ ﷺ نبِّدَا إلخ ، فنَبِّدَا مصدر منصوب بفعل محذوف من لفظه أو منصوب بقوله « رمى » فى البيت قبله ، فيكون العامل فيه موافقا له فى المعنى ، كما فى قولك جلست قعودا ، وقوله « به » أى بالخصى ، وهو متعلق بنَبِّدَا ، وقوله « بعد تسبيح بَيْطِنِهِمَا » أى بعد تسبيح الخصى فى بطن الراجحتين الشريفتين بمعنى الكفين ، وظاهر كلام المصنف أن الخصى المرمى به سبيح فى كفيه ﷺ ، وكان الناظم وقف على ذلك ، أو أنه قصد التسبيح الثابت فى غير ذلك ، كما رواه أنس حيث قال : أخذ النبى ﷺ كفا من حصى فسبح فى كفه حتى سمعنا التسبيح ، ثم وضعه فى يد أبى بكر ، فسبح أيضا ، ثم فى يد عمر فسبح أيضا ، ثم =

(١) هى كنيسة القُلَيْس بضم القاف وفتح اللام المشددة . قال فى القاموس : وكَتَبْتُ : ببيعة بصنعا ، وبيعة بكسر الباء ، لا بفتحها كما ينطقها الناس .

(٢) قال فى القاموس : والمغمس ، كمعظم ومحدث عین بطريق الطائف فيه قبر أبى رغال : دليل أبرهة ، ويرجم . (٣) يعنى من أسفل الدابة التى يركبها .

جاءتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلَا قَدَمٍ (٧٣)

= فى أيدينا ، فما سبيح ، وبذلك اندفع ما اعترض به بعضهم على المصنف ، من أنه لم يثبت أن الحصى الذى رمى به فى يوم بدر أو حنين سبيح فى كفه قبل أن يرمى به ، وقوله « نبذ المسيح من أحشاء ملتقم » أى كنبذ المسيح ، الذى هو يونس عليه السلام ، من أحشاء الملتقم له ، والأحشاء ما انضمت عليه الأضلاع ، وقيل : الأمعاء ، والملتقم له هو الحوت ، قال الله تعالى : ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ (*) فلولا أنه كان من المسيحين ، للبت فى بطنه إلى يوم يبعثون فنبذناه بالعرء وهو سقيم أى قابتلعه الحوت وهو آت بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر ، وركوبه السفينة بلا إذن من ربه ، فلولا أنه كان من الذاكرين بقوله كثيرا فى بطن الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ لصار بطن الحوت له قبرا إلى يوم القيامة ، فألقيناه من بطن الحوت بوجه الأرض بالساحل من يومه ، أو بعد ثلاثة ، أو سبعة أيام ، أو عشرين ، أو أربعين يوما ، وهو عليل كالفرخ الممعط ^(١) وقال تعالى : ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ ^(٢) أى فنادى فى الظلمات الثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، بأن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فى ذهابى من بين قومى من غير إذن ، ومراد المصنف التشبيه به فى أن كلاً أمر خارق للعادة ، وفى كلامه من المحسنات البيعية الاستتباع ، لأنه بعد أن تكلم على انقضاء الشهب على الشياطين ، وتشبيهم فى حال هربهم بأبطال أبرهة ، أو بالعسكر الذى رمى بالحصى من راحتيه الشريقتين ، استتبع الكلام على تسبيح الحصى بكفيه ﷻ ، وحقيقة الاستتباع أن يضمن كلام سبق لمعنى معنى آخر ، كما فى قول ابن نباتة :

ولا بدُّ لى من جهلة فى وصاله فمن لى بخلٍ أودعَ الحلمَ عنده

فإنه سبق للإخبار بكونه حليما ، وضمنه الشكاية بأنه ليس فى الإخوان من يصلح لإيداع الحلم عنده .

(٧٣) قوله « جاءت لدعوته الأشجار إلخ » أى أنت لطلبه الأشجار إلخ ، فالمجىء : الإتيان ، والدعوة : الطلب ، والأشجار : جمع شجرة ، وقوله « ساجدة » حال من الأشجار ، والمراد بالسجود هنا معناه اللقوى ، وهو الخضوع ، وجملة قوله « تمشى » إلخ إما حال من الأشجار ، فتكون حالا مترادفة ، أو من الضمير فى =

(٢) سورة

(*) سورة

(١) المنتوف الریش .

كأَنَّمَا سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ فروعها مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِاللِّقَمِ (٧٤)

= « ساجدة » فتكون حالا متداخلة ، وقوله « على ساق » متعلق بتمشى ، والساق : ما تحت الفروع من الشجرة ، وقوله « بلا قدم » صفة للساق ، أو متعلق بتمشى ، وأشار بذلك لما روى أن أعرابيا سأل النبي ﷺ آية ، فقال له : قل لتلك الشجرة رسول الله يدعوك ، فمالت عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها ، حتى قطعت عروقها ، ثم جاءت تحجر عروقها في الأرض ، فوقفت بين يديه ، وقالت : السلام عليك يا رسول الله قال الأعرابي : مرها فلترجع إلى منبتها ، فأمرها فرجعت ، ودلت عروقها في منبتها فاستوت فيه (١) . وفي بعض الروايات : فقال الأعرابي ائذن لي أن أسجد لك ، فقال ﷺ « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » (٢) قال : فأذن لي أن أقبل يدك ورجليك ، فأذن له ، وإنما لم يأذن له ﷺ بالسجود إيدانا بأن السجود لا يكون إلا لله ، لأن مكانه من الدين عظيم ، لما فيه من غاية الخضوع ، ومن ذلك ما رواه مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ ذهب يقضى حاجة الإنسان فنظر فلم يجد شيئا يستتر به ، وإذا بشجرتين بشاطئ الوادي ، فانطلق إلى إحداهما فأخذ ببعض أغصانها فقال : انقادى معى بإذن الله ، فانقادت معه حتى أتى الشجرة الأخرى ، فأخذ ببعض أغصانها ، فقال : انقادى معى بإذن الله ، فانقادت معه ، حتى إذا كان بالمتصف مما بينهما لأم بينهما ، وقال لهما : التثما على بإذن الله ، قالتا متا ، ثم بعد انقضاء حاجته افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق .

(٧٤) قوله « كأَنَّمَا سَطَرَتْ » إلخ هذا البيت لبيان اعتدالها في مشيها القويم وسلوكها السنن المستقيم ، والمعنى : كأَنَّمَا سَطَرَتْ تلك الأشجار في حال مشيها سَطْرًا للذي كتبت فروعها ، وهو الخط البديع ، أى الذى لم يعهد مثله ، المرسوم فى اللقم ، =

(١) القصة بطولها ورمتها فى كتاب « الشفاء » للقاضى عياض رحمه الله تعالى فى فصل المعجزات .

(٢) وقوله ﷺ : « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد » إلى آخر الحديث رواه بريدة فى هذه القصة ، وروته السيدة عائشة رضى الله عنها أيضا ولفظه : « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولو أن رجلا أمر امرأة أن تنتقل من جبل أحمر إلى جبل أسود ، أو من جبل أسود إلى جبل أحمر لكان تَوَلَّها أن تفعل » .
[رواه ابن ماجه عن السيدة عائشة رضى الله عنها]

مثل الغمامة أنى سار سائرةً تقيه حرٌ وطيس للهجير حمى (٧٥)

= بفتح اللام والقاف ، أى وسط الطريق لكونها مشت مشى استقامة ، فلما لم يكن فى مشيها ميل ولا عوج شبه مشيها على ذلك الوجه بتسطير الكاتب سطرًا مستقيماً ليكتب عليه ، وعلم من ذلك أن « ما » فى قوله لما كتبت موصولة ، والعائد محذوف و « من » للبيان والإضافة فى قوله « بديع الخط » من إضافة الصفة للموصوف ، وقد شبه أثر فروعها فى الأرض المقيد للمعتبر ، كالأعرابى السابق ، بالخط الدال على اللفظ المفيد للمتدبر للمعانى على طريق التصريح .

(٧٥) قوله « مثل الغمامة » إلخ أى هى مثل الغمامة إلخ فهو بالرفع خبر لمبتدأ محذوف ، ويصح قراءته بالنصب على أنه حال من الأشجار ، أى حال كونها مثل الغمامة إلخ ، والمراد أنها مثلها فى الانقياد له ﷺ معجزة وآية لرد المعارض ، فقد انقاد له عليه الصلاة والسلام الأعالى والأسافل ، فالأشجار من الأسافل ، والغمامة من الأعالى ، لأنها السحابة ، وقوله « أنى سار سائرة » أى فى أى موضع سار هى سائرة ، أو كيف سار هى سائرة ، فأنى بمعنى فى أى موضع ، أو بمعنى كيف ، وعلى كل فسائرة بالرفع خبر لمبتدأ محذوف ، ويصح نصبه على أنه حال من الغمامة ، وجملة قوله « تقيه » إلخ خبر ثان على الأول ، وحال ثانية على الثانى ، وقوله « حر وطيس » أى حر الشمس الشبيهة بالوطيس فى الحرارة ، فالوطيس فى كلام المصنف مستعارة للشمس ، على طريق الاستعارة التصريحية ، وإن كان فى الأصل هو « التنور » . وقوله « للهجير » أى عند الهجير ، فاللام بمعنى « عند » وهو ظرف لحر وطيس ، أو لقوله تقيه ، والهجير والهجرة بمعنى واحد ، وهو وسط النهار إذا كان حاراً . وقوله « حمى » يصح جعله فعلاً ماضياً فتكون الجملة صفة لوطيس ، أو فى موضع الحال من الهجير ، أى حال كونه قد حمى ، وتكون حالا مؤكدة لما علمت من معنى الهجير ، ويصح جعله اسم فاعل بمعنى حام ، فيكون نعتاً للوطيس ، أو للهجير ويكون وصفاً كاشفاً ، وهذا البيت إشارة إلى ما روى من أن أبا طالب خرج إلى الشام ومعه النبى ﷺ فى أشياخ من قریش ، إلى أن أشرفوا على بحيرا (١) الراهب ، وكان فى صومعته ، فنزلوا عنده وحطوا رحالهم ، وكانوا يبرون به قبل ذلك فلا يخرج إليهم ، وفى هذه المرة خرج إليهم ، وجعل يتخللهم حتى جاء للنبي ﷺ فقال : هذا سيد العالمين =

(١) بفتح الباء ، وكسر الحاء .

أَقْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنْشَقِّ إِنَّ لَهُ
مِنْ قَلْبِهِ نَسْبَةً مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ (٧٦)

= هذا رسول الله الذى يبعثه رحمة للعالمين ، فقال له أشياخ قريش : وما أعلمك بهذا ؟ فقال : إنكم من حين أشرفتم من مكة والغمامة تظلمه فوق رأسه ، ولم يبق حجر ولا شجر إلا خر له ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبى ، وإنى لأعرفه بخاتم النبوة ، ثم رجع فصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم به كان ﷺ فى رعاة الإبل ، فأرسلوا له ، فأقبل وعليه غمامة تظلمه ، فلما جلس - وكانوا قد سبقوه إلى فىء الشجرة - مالت عليه ، فقال : انظروا إلى فىء الشجر مال إليه « (١) » .

(٧٦) قوله « أقسمت بالقمر » إلخ أى أقسمت برب القمر إلخ ، لأن أهل الشرع ينعون الحلف بغير الله تعالى ، وإن جرت عليه عادة الأدباء (٢) ، لكن محل المنع فى حقنا ، وأما فى حقه تعالى فله أن يحلف بما شاء من مخلوقاته ، لأنها من آثاره ، قال تعالى : ﴿ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ﴾ (٣) الآية ، وإنما عبر بالماضى دون المضارع إشارة إلى أن اعتقاده مطوى عليه منذ عقل ، وقوله « المنشق » أى الذى انشق آية له ﷺ ، لأن أهل مكة سألوه آية فأراهم انشقاق القمر فلقطين ، فكانت فلقة فوق الجبل وفلقة دونه ، فقال رسول الله ﷺ « اشهدوا » فقال كفار قريش : قد سحرنا محمد ، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى يظهر هل رأوا مثل هذا ، فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقا ، فقال كفار قريش : هذا سحر مستمر ، فنزل قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ (٤) وجملته قوله « أن له » إلخ جواب القسم ، والضمير الأوّل للقمر المنشق ، والضمير الثانى للنبي ﷺ ، وقوله « من قلبه » متعلق بنسبة ، وقدمه عليها للاهتمام ، و « من » بمعنى الباء ، والمراد بالنسبة المناسبة والمشابهة فى الانشقاق ، أما انشقاق القمر فقد =

(١) وبهذا يكون هذا الراهب قد أسلم .

(٢) وأيضاً لأن حذف ما يعلم جائز لغة ، وإنما حذف لتستقيم وزن البيت ، وأتى بلفظ « القمر » ليتكلم عن انشقاقه بقوله المنشق « والله تعالى أعلم .

(٣) سورة الشمس الآية ٣ .

(٤) القمر الآية : ١ - ٢ . وانشقاق القمر له ﷺ لا يعارض فيه إلا مكابر ، لأن الحديث مروي فى أغلب كتب الحديث ، وأولها البخارى كما ذكر ذلك صاحب « الشفاء » ، والقرآن صريح فى ذلك .

وما حوى الغار من خيرٍ ومن كرمٍ وكلُّ طرفٍ من الكفار عنه عَمِي (٧٧)

= علمته ، وأما انشقاق قلبه الشريف فقد وقع أربع مرات ، وقد جمعها بعضهم فى قوله :

وشقُّ صدرِ المصطفى وهو فى دار بنسى سعدٍ بلا مرية
كشقه وهو ابن عشر ، ثم فى ليلة معراج ، وعند البعثة

وزيد خامسة عند عشرين سنة ، لكنها لم تثبت ، وقوله « مبرورة القسم » أى أن القسم عليها مبرور فيه ، يقال برّ فى يمينه إذا صدق فيها ، والمتبادر أنه صفة للنسبة لكن جعلوه صفة لموصوف محذوف دل عليه السياق ، والتقدير يميننا مبرورة القسم ، وفيه شىء ، لأن اليمين بمعنى القسم فيصير التقدير قسما مبرور القسم ، ولا يخلو عن ركة ، إلا أن يقال : إنه من باب الإظهار فى مقام الإضمار ، وقد علمت ما فيه الغنية عن ذلك .

(٧٧) قوله « وما حوى الغار » إلخ أى واذكر ما حوى الغار إلخ ، أو وأقسمت بما حوى الغار ، إلخ . وعلى الثانى فجواب القسم معلوم مما قبله ، والغار ثقب فى الجبل ، وكان فى جبل ثور بأسفل مكة ، وقوله « من خير ومن كرم » بيان لما حوى الغار ، وظاهره أن المراد نفس الصفتين من غير تقدير مضاف ، وعليه فما باقية على معناها كما ذكره بعضهم ، والأظهر جعله على حذف مضاف ، أى من ذى خير ، ومن ذى كرم ، وعلى هذا فما بمعنى « من » لأن ما لغير العاقل . ومن للعاقل (١) ، والمراد بالخير الأخلاق الحميدة ، وبالكرم الجود ، فهما متغايران تغاير الأعم والأخص ، وكل منهما لكل من النبى ﷺ ومن أبى بكر ، ويحتمل أن الأوّل للنبى ﷺ ، والثانى لأبى بكر ، وعلى هذا فإنما خصّه بالكرم لأنه أثر رسول الله ﷺ بنفسه وماله ، ولذلك لما أتيا إلى الغار تقدم أبو بكر فى الدخول لاحتمال أن يكون فيه ما يؤذى ، فيتلقاه عن رسول الله ﷺ ، فلم يجد شيئا ، فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه فى حجر أبى بكر ، وكان هناك حجر فيه حيات وأفاعى ، فخشى أبو بكر أن يخرج منه شىء يؤذى النبى ﷺ فآلقه قدمه ، فجعلت الحيات والأفاعى تضربنه وتلسعنه ، ولم يتحرك مخافة أن يوقظ النبى ﷺ ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا بكر =

(١) وقد يأتى العكس ، على قلة .

فَالصُّدُقُ فِي الْغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمِ (٧٨)

= ما يبكيك ؟ قال : لَدَغْتُ ، فقتل عليه رسول الله ﷺ فذهب ما يجده ، لكنه كان يعاوده ذلك حتى كان سبب موته على المشهور ، وفي بعض التواريخ أنه مات بسم آخر ، لأنه أكل مرة مع أعرابي ، فقال له الأعرابي : ارفع يدك يا خليفة رسول الله ، فإن هذا الطعام فيه سم سنة ، وأنا وأنت غوت في يوم واحد . وكان كذلك (١) . وقوله « وكل طرف » إلخ أى والحال أن كل طرف إلخ ، فالواو للحال ، والطرف بسكون الراء هو البصر ، وقوله « عنه » أى عن ما حوى الغار ، وقوله « عمى » يحتمل جعله فعلا ، وجعله اسما ، وقد لبث النبي وأبو بكر في الغار ثلاث ليال ، وجاء الكفار حوالى الغار ينتظرون ، فأعماهم الله تعالى . قال أبو بكر : نظرت إلى أقدامهم فوق رؤوسنا ، فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا ، فقال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، وفي التنزيل ﴿ ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٢) .

(٧٨) قوله « فالصدق » إلخ أى فذو الصدق إلخ فهو على حذف مضاف ، أو يؤول الصدق بالصادق ، أو يجعل من باب المبالغة ، وقوله « والصديق » : أى فى الغار ، ففيه الحذف من الثانى لدلالة الأول ، وقوله « لم يرما بكسر الراء » أى لم يبرحا ، وأصله يرما ، حذفت منه الياء تبعا لحذفها فى إسناده إلى المفرد كما فى قولك زيد لم يرم ، فإن أصله يريم ، حذفت منه الياء مع الجازم لالتقاء الساكنين ، وقوله « وهم يقولون » أى والحال أنهم يقولون إلخ ، والضمير راجع للكفار المعلومين من السياق ، وجملة قوله « ما بالغار من أرم » مقول القول ، وأرم بفتح الهمزة وكسر الراء بمعنى أحد ، وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله ، و « من » زائدة ، وإنما قالوا ذلك لكونهم رأوا حوم الحمام حول الغار ، ونسج العنكبوت على فمه ، فظنوا أنهما ليسا فيه كما أشار إليه الناظم بالبيت بعد هذا ، وذلك أنه تقدم رجل منهم فنظر حمامتين على قم الغار ، فقال : ليس فى الغار شيء ، رأيت حمامتين على قم الغار فعرفت أنه ليس فيه أحد ، فقال رجل آخر : ادخلوا الغار ، فقال أمية بن خلف : وما أرىكم بالغار ؟ (أى وما حاجتكم به) إن فيه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد .

(٢) التوبة : ٤٠

(١) هو طبيب العرب : الحارث بن كلدة .

ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحْمِ (٧٩)
وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدَّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأَطْمِ (٨٠)
مَا ضَامَنِي الدَّهْرُ يَوْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ إِلَّا وَنَلْتُ جِسَارًا مِنْهُ لَمْ يُضْمِ (٨١)

(٧٩) قوله « ظنوا الحمام » إلخ هذا البيت كالتعليل لما قبله ، كما علمت . وقوله « على خير البرية » متعلق بقوله « لم تنسج » أو بقوله « لم تحم » ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول ، أو بالعكس ، وقوله « لم تنسج » بكسر السين وضمها راجع للعنكبوت ، وقوله « ولم تحم » بضم الحاء راجع للحمام فقيه لف ونشر مشوش ، وسبب ظنهم ذلك أن هذين الحيوانين متى أحسا بالإنسان فرأ منه ، ولم يعلموا أن الله تعالى يحفظ من شاء من عباده بما شاء من خلقه .

(٨٠) قوله « وقاية الله » إلخ أى حفظ الله لهما من الكفار أغناهما عن مضاعفة من الدروع بأن يلبس الشخص درعا فوق درع للحفظ من العدو ، أو أن تنسج الدرع حلقتين ، وتلبس للحفظ من العدو ، فالمراد بالمضاعفة من الدروع أن يلبس الشخص درعا فوق درع ، وقيل : أن تنسج الدرع حلقتين ، وقوله « وعن عال من الأطم » أى : وأغنت عن عال من الحصون ، التى يتحصن فيها من العدو ، فالأطم بضم الهمزة والطاء بمعنى الحصون . جمع اطمه ، وهى الحصن وفى هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (*) الآية .

(٨١) قوله « ما ضامننى الدهر يوما » إلخ هكذا فى بعض النسخ ، وفى بعضها « ما سامنى الدهر ضيماً » إلخ ، والمعنى على الأول ما ظلمنى الدهر فى يوم إلخ ، وعلى الثانى : ما أرادنى وقصدنى الدهر بظلم إلخ ، وعلى كل فلا بد من تقدير مضاف أى أهل الدهر ، وإلا فالدهر لا يظلم ولا يريد الظلم ، وإن جرت عادة العرب بنسبة الظلم إليه لوقوعه فيه ، وقوله « واستجرت به » أى طلبت منه أن يجيرنى من ذلك ، فالسين والتاء للطلب ، وقوله « إلا ونلت جواراً منه » أى إلا وأعطيت جواراً بكسر الجيم وضمها أى حمى وحفظاً من الرسول ، وقوله « لم يضم » بالبناء للمجهول أى لم يحتقر ، بل يحترم .

قوله « ما ضامننى إلخ » هو الذى بعده فائدتها أن من كان مسجوناً أو خائفاً من سلطان ، وداوم على قراءتهما سبع عشرة مرة بعد كل صلاة ، فإن الله يفرج عنه همه ويجعل له من أمره مخرجاً .

(*) سورة التوبة الآية ٤٠

ولا التَمَسْتُ غِنَى الدارينِ مِنْ يَدِهِ إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمٍ (٨٢)
لا تُنْكِرِ الْوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ ، إِنْ لَهُ قَلْبًا إِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنَمْ (٨٣)

(٨٢) قوله « ولا التمسست » إلخ معطوف على قوله « ما ضامنى الدهر » إلخ ، والاتماس عند بعضهم اسم للطلب من المساوى ، والمراد منه هنا الطلب بخضوع (١) وذلة . وقوله « غنى الدارين » أى دارى الدنيا والآخرة ، والغنى فى الأولى بالكفاية ، وفى الثانية بالسلامة من العذاب ، وقوله « من يده » أى من نعمته ، فالمراد من اليد هنا النعمة ، وقيل : المراد منها الذات الكريمة ، وقوله « إلا استلمت » أى إلا أخذت فالمراد بالاستلام هنا الأخذ ، كما فى قولهم استلمت معروفه ، على سبيل التجوز لأنه فى الأصل اللمس باليد أو الفم ، كما فى قولهم « استلمت الحجر » ، وقوله « الندى » بفتح النون مع القصر هو العطاء والكرم ، وقوله « من خير مستلم » بفتح اللام ، أى من خير مستلم منه ، فصلته محذوفة والمستلم منه هو المأخوذ منه ، وإنما كان ﷺ خير مستلم منه لأنه لا يرد سائله ، ويده خير الدنيا والآخرة (٢) . فإن قيل إخباره عن نيل غنى الدنيا منه ﷺ صحيح ، لأنه مشاهد فى الحس ، بخلاف إخباره عن نيل غنى الآخرة منه ﷺ ، فإنه غير مشاهد فى الحس ، فكيف يصح إخباره عنه ؟ أجب بأنه مشاهد بقوة يقين الإيمان . وفى هذا البيت الذى قبله براعة المطلب ، وهى كما قاله الزلجاني فى كتاب « المعيار » أن يلوح بالطلب بالفاظ عذبة خالية عن الإجحاف ، مقترنة بتعظيم الممدوح ، تشعر بما فى النفس دون كشفه .

وقيود هذا الحد كلها موجودة فى هذين البيتين .

(٨٣) قوله « لا تنكر الوحي » إلخ هذا شروع فى مبدأ الوحي ، وقوله « من رؤياه » حال من الوحي ، ومن للابتداء ، أى لا تنكر الوحي حال كونه مبتدأ من رؤياه فى النوم ، فإن بدء الوحي كان بالرؤيا الصالحة فى النوم ، وكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقوله « إن له قلبا » إلخ تعليل لما قبله ، أى إن له ﷺ =

(١) والمراد أنه استشفع بالنبي ﷺ فى غنى الدارين .

(٢) وقد سبق قول حسان رضى الله عنه له ﷺ :

له راحة لو أن معشار جودها	على البر كان البر أندى من البحر
له همم لا تنتهى لكبارها	وهمت الصغرى أجل من الدهر .

وَذَاكَ حِينَ بُلُوغٍ مِنْ نُبُوتِهِ فَلَيْسَ يُنْكِرُ فِيهِ حَالَ مُحْتَلِمٍ (٨٤)

= قلبا له اليقظة الدائمة حتى إذا نامت عيناه الشريقتان لم ينم قلبه ، لأنه مهبط الوحى ، وقد شق وظهر من التعلق بغير الله ، وملئ حكمة وإيمانا فصارت اليقظة الدائمة من صفاته ، فحسن أن يخاطب ويتعلق به الوحى ، وقد ورد فى الصحيحين : إن عيني تنامان ولا ينام قلبى ، لا يقال : يشكل على ذلك أن النبى ﷺ نام مع أصحابه فى الوادى فلم يوقظهم إلا حر الشمس (١) لأننا نقول : نظر القلب إنما هو فيما غاب عن الشاهد ، ومشاهدة طلوع الشمس من وظيفة العين ، وقد كانت أخذت حظها من النوم .

وهذا البيت والذي بعده فائدتهم الخفة من المرض ، من كتبهما فى صحيفة فخار ومحاهما بشراب العرق سوس ، وشربهما على الريق ، فإنه يخف بإذن الله تعالى .

(٨٤) قوله « وذاك » إلخ لما كان البيت المتقدم يوهم أن الوحى من رؤياه فى النوم الدائم ، دفع ذلك بقوله وذاك إلخ ، واسم الإشارة راجع للوحى من رؤياه فى النوم ، وقوله « حين بلوغ من نبوته أى حين وصول إلى نبوته ، فالبلوغ بمعنى الوصول ، و« من » بمعنى « إلى » ، والمعنى والوحى من رؤياه فى النوم كائن ، وحاصل حين الوصول إلى نبوته ، وحكمة ذلك الاستئناس بملاقة الملك فى النوم ليطبق ذلك فى اليقظة بعد ، إذ لو جاء فى اليقظة ابتداء لأمكن أن لا يطبق ملاقاته ، فلما استأنس بذلك أتاه فى اليقظة . وقوله « فليس » إلخ تفريع على قوله « وذاك حين بلوغ » إلخ ، و« ينكر » بالبناء للمفعول ، و« حال محتلم » نائب فاعل ، والضمير من قوله « فيه » للحين المذكور ، وفى بعض النسخ « منه » بدل « فيه » والضمير عليه للنبى ﷺ ، والمراد بحال المحتلم : الوحى من رؤياه فى النوم . لأن المحتلم هو النائم ، وحاله ما يراه فى نومه ، والحاصل أن ذلك إنما كان فى ابتداء النبوة ، وقد تبيى على رأس أربعين سنة ، وذلك حد مبدأ النبوة ، وإذا كان كذلك فلا ينكر الوحى من رؤياه حينئذ ، وإن كانت مرتبته ﷺ أعلى المراتب ، وكان مقتضى ذلك أن لا يكون الوحى إليه فى النوم ، لأن الوحى فى النوم أدنى من الوحى فى اليقظة .

(١) وهناك علة أخرى ، وهى إذا أنامهم الله تعالى إلى إيقاظ حر الشمس فنزل حكم الصلاة بعد الشمس إذا نام المسلم إلى هذا الوقت . « فالإقامة هنا للتشريع وليست هى طبيعته ﷺ . والله تعالى أعلم .

تَبَارَكَ اللَّهُ مَا وَحَى بِمُكْتَسَبٍ وَلَا نَبِيٍّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهِمٍ (٨٥)

(٨٥) قوله « تبارك الله إلخ » هذا البيت استدلال على ما قبله ، ومعنى تبارك الله : تنزهه الله وتعالى وارتفع عما يقوله الكافرون علوا كبيرا ، وقوله « ما وحى بمكتسب » أى ليس وحى ، وإن قل ، بمكتسب لأحد بسعيه فيه ، بأن يحصله بأسباب ، لأن اكتساب الشيء تحصيله بأسبابه ، التى جرت العادة الغالبة بحصوله عقبها ، وإذا لم يكن مكتسبا ، بل بتخصيص الله به من يشاء من عباده ، فلا ينكر وقوعه فى الرؤيا ، كما لا ينكر وقوعه فى اليقظة ، فإن فعل الفاعل المختار لا يختص بحالة دون الأخرى ، فالذى عليه أهل الحق أن الوحى ليس مكتسبا ، خلافا لزاعمى ذلك ، وهم الفلاسفة ، فإنهم زعموا أنه مكتسب بالخلوة والرياضة ، وهو كفر صراح ، فيجب الإيمان بأن ذلك بمحض فضل الله ، قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (١) ومثل الوحى الولاية ، فليست مكتسبة أيضاً ، بل بفضل الله يؤتیه من يشاء (٢) وقوله « ولا نبى على غيب بمتهم » أى ولا نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمتهم على إخبار غيب أى على الإخبار بأمر غائب ، فهو على تقدير مضاف ، والغيب بمعنى الغائب ، وهو صفة لموصوف محذوف ، وإنما لم يكن النبى متهما على الإخبار بالغيب ، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب ، كسائر المعاصى ، ولا يرد قوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (*) وقوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ (**) ونحو ذلك ، لأن ما يقع منهم من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » (٣) فإن المقرب أعلى درجة من البار ، فإذا فعل البار حسنة يراها =

(١) الأنعام : ١٢٤ ، وقوله جل وعلا ﴿ يجعل ﴾ قاض بأنها غير مكتسبة ، وإنما هى جعل من الله تعالى وتخصيص لشخص معين لا يصلح غيره .

(٢) لا شك أن الولاية من فضل الله تعالى ، ولكن قد يتفضل الله سبحانه على عبد بالهبة ، فيهبه الولاية ، وقد يتفضل على عبد بأن يلهمه سلوك طريق الولاية ، فلا ينالها إلا بعد جهد ومشقة وعناء ، والكل هبة تكريم من الله تعالى للعبد المفاض عليه ، ونسأل الله سبحانه أن يلهمنا حسن الأدب معه ومع رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً .

(٣) أى أن الحسنات عند البار ، هى نفسها سيئة عند المقرب ، ولنضرب لك مثلاً : إذا كان عندك ولدان أحدهما أقل من الآخر فى سلوكه ، والآخر أعلى وأفضل ، فلو أن الأقل فعل حسنة ، وكانت بالنسبة له سيئة لأن مقامه أعلى ، هذا هو معنى « حسنات الأبرار سيئات المقربين » إذ الكل حسن ، ولكنه يختلف باختلاف منزلة الشخص .

وقد ضربت لك هذا للتقريب والله سبحانه يعقل من الجميع ، ولكن المقرب نفسه هو الذى يلوم نفسه على فعل ، هو أقل . والله تعالى أعلم بالمراد .

(*) سورة الفتح الآية ٢ (**) سورة الشرح الآية ٢

كَمْ أَبْرَأْتُ وَصَبًا بِاللَّمْسِ رَاحَتُهُ وَأَطْلَقْتُ أَرِيًّا مِنْ رَيْقَةِ اللَّمَمِ (٨٦)

= كلامهم كذبا ، ويستحيل صدور الكذب من الملائكة (١) أ هـ . من القسطلاني
ببعض تغيير واختصار .

وهذا البيت ، والذي بعده ، فائدتهم الكتابة للمصروع بين عينيه ، والكتابة فى
خرقة زرقاء وتُجعل فتيلة ، ويحرق طرفها بالنار ، وتجعل تحت أنف المصروع ، فمتى
حصل الدخان فى أنف المصروع صاح ، فيخرج صارخا ، ويُحمى الذى بين عينيه ،
فيذهب الصارع ، ولا يعود أبدا . وإذا خرج العارض فاكتب البيتين حرزاً مع شىء من
القرآن ، وعلقهما على المصاب ، فإنك ترى العجب .

(٨٦) قوله « كم أبرأت » إلخ أى كثيرا من المرات أبرأت إلخ ، فكم خبرية بمعنى
كثيرا ، ومميزها محذوف ، وقوله « وصبا » بكسر الصاد ، أى مريضا ، ويجوز فتح
الصاد ، أى مرضا ، لكن على تقدير مضاف ، أى ذا مرض ، والأول أولى ، وهو
مفعول لأبرأت ، وجعله بعضهم تمييزاً لكم ، وجعل مفعول أبرأت محذوفاً ، وقوله
« باللمس » أى بسبب اللمس ، وقوله « راحته » فاعل بأبرأت ، وأشار بذلك إلى ما
روى من أن عين قتادة أصيبت يوم أحد ، ووقعت على وجنته ، فأتى رسول الله ﷺ
وقال له : إن لى امرأة أحبها ، وأخشى أنها إن رأتنى على هذه الحالة قذرتنى ،
وارتفع حبى من قلبها ، فأخذ النبى ﷺ عينه بيده ، وردها إلى موضعها وقال : اللهم
أكسبها جمالا ، فكانت أحسن عينيه . ومن أن محمد بن حاطب احترقت يده بالنار ،
فجاء للنبي ﷺ فمسح عليها فبرأت من ساعتها . ومن أن شرحبيل الجعفى كانت
بكفه سلعة (٢) تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة ، فشكاها للنبي ﷺ ، فما زال
يبطحها بكفه حتى لم يبق لها أثر ، وغير ذلك من وقائع كثيرة . وقوله « وأطلقت » =

(١) قول الله تعالى : ﴿ هل أتاك نيا الخضم إذ تسوروا المحراب ﴾ القرآن واضح فى أنهم كانوا
خصماء ، وتسورهم المحراب ، لأنه كان فى يوم عبادته ، ولو رجعنا إلى قوله تعالى : ﴿ يا داود إنا
جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ لعرفنا أن الله تبارك وتعالى لما جعله ملكا على بنى إسرائيل : علمه
طريقة الحكم ، إذ ليس له أن يأخذ بكلام خصم دون الآخر فلما كان الآخر مظلوما لا ظالما ، لما قال
له ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ كانت هذه الآية قاعدة من قواعد الحكم إلى أبد
الدهر ، ومن المعروف أن كثيرا من المفسرين حشا تفسيره من كلام اليهود ، ولكن على سبيل الحكاية
لا العقيدة . إلا من شذ منهم .

(٢) السلعة : الشقة .

= وأما ما صدر من إخوة يوسف عليهم الصلاة والسلام ، فلا يرد لأنه قد اختلف
 فى نبوتهم ، فعلى القول بعدم نبوتهم لا إشكال ، وعلى القول بنبوتهم فيؤول ما صدر
 منهم بما أوكلت به قصة آدم ، وأما هم يوسف بزيخا فهو أمر جبلى لا اختيارى حتى يكون
 مذموماً ، والرغبة فى النساء محمودة ، إذ عدمها يدل على العُنة ، وهى نقيصة ،
 ولما هم يوسف بمقتضى الجبلية امتنع لكونه رأى برهان ربه ، وذلك معنى قوله تعالى :
 ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ (١) . وأما قصة داود عليه الصلاة والسلام ،
 وهى أنه خطر بباله أنه إن مات وزيره فى الحرب تزوّج بزوجه ، لما علم من حسننها ،
 فأرسل الله إليه ملكين فى صورة رجلين اختصما إليه إلى آخر القصة المذكورة فى
 سورة ص ، فلا ترد أيضاً لأن ما وقع منه ليس معصية ، لكنه غير لائق بمقامه ،
 ولذلك عوتب عليه ، وبكى حتى نبت العشب من دمعه ، وذكر بعض المفسرين أن
 جماعة من الناس حقيقة تسوّروا قصره ليقتلوه فلما رآهم خاف كما قال الله تعالى :
 ﴿ ففرغ منهم ﴾ (*) وإنما خاف لما تقرر فى العرف من أنه لا يتصور دور الملوك من
 غير إذنهم إلا ذو ريبة ، فلما رآوه مستيقظا خافوا من فعلهم ، واخترعوا خصومة لا أصل
 لها ، زعماً منهم إنما قصدوه لأجلها دون ما توهمه ، ثم ادعى واحد منهم على الآخر ،
 كما أخبر الله تعالى ، فقال داود فى الجواب : ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك ﴾ (*)
 إلخ ، وحمل الآية على هذه القصة أولى ، لأن الملائكة لا يظلم بعضهم بعضاً ، فيكون =

(١) هذا الذى قاله الشيخ رحمه الله تعالى ليس الصحيح ، لأن الهمّ منه لم يكن لما يظن بعض
 الناس ، وإنما لدفعها عن نفسه ، وذلك لما راودته عن نفسه فقال - معاذ الله - عرفت منه أنه لا
 يقبل على الحرام ، فهتت هى أيضاً لإهانتها ، وأما أمر الزنا فقد عرفت قاناً أنه لا يفعله ، وقوله
 تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ قاض فى ذلك ، لأن الواو تفيد المغايرة ، فالسوء
 شئ والفحشاء : الزنا . وصرف الله تعالى عنه هذا وذاك ، وقوله ﴿ إنه ربي أحسن مثواي إنه لا
 يفلح الظالمون ﴾ يقول لها إن هذا الرجل ربانى فى بيته ، فكيف أخونه فى عرضه ، هذا ظلم له -
 إنه لا يفلح الظالمون - والخوض فى أعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مزلّة إلى الكفر .
 والعياذ بالله . (*)

كَمْ أَبْرَأَتْ وَصِيًّا بِاللَّمْسِ رَاحَتُهُ وَأَطْلَقَتْ أَرِيًّا مِنْ رَيْقَةِ اللَّيْمِ (٨٦)

= كلامهم كذبا ، ويستحيل صدور الكذب من الملائكة (١) أ هـ . من القسطلاني ببعض تغيير واختصار .

وهذا البيت ، والذي بعده ، فائدتهما الكتابة للمصروع بين عينيه ، والكتابة في خرقة زرقاء وتُجعل فتيلة ، ويحرق طرفها بالنار ، وتجعل تحت أنف المصروع ، فمتى حصل الدخان في أنف المصروع صاح ، فيخرج صارخا ، ويُحمى الذي بين عينيه ، فيذهب الصارع ، ولا يعود أبدا . وإذا خرج العارض فاكتب البيتين حرزاً مع شيء من القرآن ، وعلقهما على المصاب ، فإنك ترى العجب .

(٨٦) قوله « كم أبرأت » إلخ أى كثيرا من المرات أبرأت إلخ ، فكم خبرية بمعنى كثيرا ، ومميزها محذوف ، وقوله « وصبا » بكسر الصاد ، أى مريضا ، ويجوز فتح الصاد ، أى مرضا ، لكن على تقدير مضاف ، أى ذا مرض ، والأوّل أولى ، وهو مفعول لأبرأت ، وجعله بعضهم تمييزاً لكم ، وجعل مفعول أبرأت محذوفاً ، وقوله « باللمس » أى بسبب اللمس ، وقوله « راحته » فاعل بأبرأت ، وأشار بذلك إلى ما روى من أن عين قتادة أصيبت يوم أحد ، ووقعت على وجنته ، فأتى رسول الله ﷺ وقال له : إن لى امرأة أحبها ، وأخشى أنها إن رأتنى على هذه الحالة قدرتنى ، وارتفع حبى من قلبها ، فأخذ النبي ﷺ عينه بيده ، وردّها إلى موضعها وقال : اللهم أكسبها جمالا ، فكانت أحسن عينيه . ومن أن محمد بن حاطب احترقت يده بالنار ، فجاء للنبي ﷺ فمسح عليها فبرأت من ساعتها . ومن أن شرحبيل الجعفى كانت بكفه سلعة (٢) تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة ، فشكاها للنبي ﷺ ، فما زال يبطحها بكفه حتى لم يبق لها أثر ، وغير ذلك من وقائع كثيرة . وقوله « وأطلقت » =

(١) قول الله تعالى : ﴿ هل أتاك نبيّ الخصم إذ تسوّوا المحراب ﴾ القرآن واضح فى أنهم كانوا خصماء ، وتسوّوهم المحراب ، لأنه كان فى يوم عبادته ، ولز رجعنا إلى قوله تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ لعرفنا أن الله تبارك وتعالى لما جعله ملكا على بنى إسرائيل : علمه طريقة الحكم ، إذ ليس له أن يأخذ بكلام خصم دون الآخر فلربما كان الآخر مظلوما لا ظالما ، لما قال له ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ كانت هذه الآية قاعدة من قواعد الحكم إلى أبد الدهر ، ومن المعروف أن كثيرا من المفسرين حشا تفسيره من كلام اليهود ، ولكن على سبيل الحكاية لا العقيدة . إلا من شد منهم .

(٢) السلعة : الشقة .

وَأُحِيتِ السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ دَعْوَتُهُ حَتَّى حَكَتْ غُرَّةً فِي الْأَعْصَرِ الدُّهْمِ (٨٧)

= أى رحلت راحته ، وقوله « أربا » بفتح الهمزة وكسر الراء بوزن فرحا ، أى ذا أرب وحاجة ، وهى أعم من أن تكون عطاء أو شفاء أو خلوصا من إثم ، وبعضهم ضبطه بضم الهمزة وفتح الراء ، وفسره بالعقد ، وقوله « من ريقة اللمم » أى من عقدة الجنون ، فالريقة بكسر الراء وسكون الموحدة : العقدة ، واللمم بفتح اللام الجنون ويصح تفسيره بالذنوب والمعاصي ، وفى الكلام استعارة تصريحية حيث شبه تعلق الجنون أو الذنوب والمعاصي بالإنسان بالحبل الذى فيه عرى تربط فيها أعناق الغنم ، لئلا تذهب ، واستعير لفظ المشبه به ، وهو الريقة للمشبه ، وأشار بذلك إلى ما روى من أن امرأة أتت للنبي ﷺ بأبن لها به جنون ، فمسح بيده المباركة صدره ، فثع ثعة بالمثلثة والعين المهملة ، أى قاء قيئة ، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ، ويرى لوقتة .

(٨٧) قوله « وأُحِيتِ السنة الشهباء » إلخ أى وأُخْصِبَتِ السنة الشهباء إلخ ، ففيه استعارة تصريحية تبعية ، لأنه شبه الإخصاب بالإحياء ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، واشتق من الإحياء بمعنى الإخصاب أحييت بمعنى أخصبت ، أو استعارة بالكناية ، وتخيل ، لأنه شبه السنة الشهباء بإنسان ميت تشبيها مضرا فى النفس وحذف لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو الإحياء ، ولا يخفى أن السنة مفعول مقدّم ، ودعوته فاعل مؤخر ، والشهباء : صفة للسنة ، وهى قليلة المطر ، سميت بذلك لأنها تشبه الفرس الشهباء ، وهى التى يغلب بياضها على سوادها ، وإنما أشبهتها لغلبة بياض الأرض فيها ، لعدم النبات ، على سوادها بالنبات ، وقوله « دعوته » أى بالسقيا ، وقوله « حتى حكّت غرة فى الأعصر الدهم » غاية لقوله « وأُحِيتِ » إلخ ، وغرة بالنصب على أنه مفعول لحكت ، وغرة كل شىء أحسنه ، والأعصر جمع عصر ، وهو الزمن ، والدهم بضم الدال والهاء جمع أدهم ، وهو الأسود لسواد الأرض فيه بالزرع ، شديد الخضرة ، حتى يرى أنه أسود ، فتلك السنة كثر خصبها جدا ، حتى كأنها غرة فى تلك الأعصر ، وأشار بذلك إلى ما رواه الشيخان عن أنس « أن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فقال : يا رسول الله هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغثنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه ، وقال : اللهم أغثنا (ثلاثا) وما نرى فى السماء من سحاب ولا قرعة (- بفتح القاف والزاي - أى قطعة سحاب) فطلعت سحابة ثم أمطرت ، والله ما رأينا الشمس سبتا (١) ثم دخل رجل فى الجمعة الأخرى ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، =

(١) أى أسبوعا ، ثمانية أيام .

بِعَارِضٍ جَادٍ أَوْ خَلَّتْ الْبِطَاحُ بِهَا سَيِّبٌ مِنَ الْيَمِّ أَوْ سَيْلٌ مِنَ الْعَرَمِ (٨٨)

= فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله بمسكها عنا ، فرقع يديه ثم قال : اللهم حوالينا ، ولا علينا إلخ ، فأقلعت ، أى انكشفت ، وخرجنا نمشى فى الشمس ، وسئل أنس : أهو الرجل الأول ؟ قال : لا أدرى .

(٨٨) قوله « بعارض » إلخ أى أحييت السنة الشهباء دعوته بعارض إلخ ، فالجار والمجرور متعلق بأحييت ، ويصح تعلقه بحكت ، والمراد بالعارض السحاب الذى أرسله الله تعالى بسبب دعوته ﷺ ، وقوله « جاد » أى جاد هذا العارض (وهو السحاب) بالمطر الكثير ، وفى قوله « جاد » نوع احتراس ، لأن العارض قد يكون مهلكا ، وقد يكون الاحتراس فى قوله « وأحييت » ، وقوله « أو خلت » أى أو ظننت ، وأو بمعنى « الواو » ، وإنما عبر بأو ليستقيم الوزن ، وبعضهم جعلها بمعنى إلى ، فالمعنى إلى أن ظننت ، كما فى قول الشاعر :

لأستسهلن الصعبَ أو أدركَ المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

فأو فيه بمعنى إلى ، والمعنى إلى أن أدرك المنى . وقوله « البطاح » بالنصب على أنه مفعول أول لقوله خلت ، وجملة قوله « بها سيب من اليم أو سيل من العرم » سدت مسد المفعول الثانى ، والبطاح جمع أبطح : وهو الوادى المتسع الذى فيه دقات الحصى ، والضمير فى قوله « بها » راجع للبطاح ، و « السيب » الجرى ، واليم : البحر ، ومن الداخلة عليه ابتدائية ، والعرم بفتح العين وكسر الراء فى الأصل : اسم لما يمسك الماء من بناء وغيره ، وهو أيضا اسم لواد ، و « من » الداخلة عليه للإبتداء ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ ﴾ أى سيل الوادى المسوك بالسد الذى بنته بلقيس ، وهو بناء عظيم محكم - على ما ذكره أهل التفسير والتاريخ - وإنما خُصَّ اليم بالسيب ، والعرم بالسيل ، لأن ماء اليم لكثرتة يجرى فى الأرض المنبسطة إلى أسفل ، وإلى فوق ، وماء العرم غالبا إنما يقع فى أعلى الأرض ، فلا يجرى إلا سائلا ، وأو الثانية للتخيير ، فالمعنى أنت بالخيار ، فيما أن تشبه الماء الكائن على سطح الأرض بسبب البحر ، وإما أن تشبهه بسيل السد ، أو للتشكيك ، فالناظر يتشكك فى الماء الكثير الكائن على سطح الأرض ، هل هو سيب من البحر أو سيل من السد .

دَعْنِي وَوَصِّفِي آيَاتِ لَهُ ظَهَرَتْ . ظَهَرَ نَارِ الْقَرْيَ لَيْلًا عَلَى عِلْمِ (٨٩)
فَالدَّرُ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمٍ (٩٠)

(٨٩) قوله « دعنى » إلخ لما ذكر الناظم جملة من معجزاته ﷺ قدّر أن العدو المعاند والكافر الجاحد قال له : كف عن ذكر هذه الآيات التى لا نسلّمها ، فأجابه بقوله « دعنى » ، إلخ كأنه يقول له : كيف تنكرها ولا تسلّمها وقد ظهرت ظهوراً تاماً ؟ وقوله « ووصفى آيات » أى ذكرى لها بالنظم ، أخذاً مما يأتى ، وهو معطوف على الياء من دعنى ، أو مفعول معه ، أى اتركنى وذكرى آيات ، أو مع ذكرى آيات ، والمراد بالآيات المعجزات الدالة على نبوته ﷺ ، وهو مفعول لوصفى ، وقوله « له » متعلق بمحذوف صفة لآيات ، أى آيات كائنة له ﷺ ، أو متعلق بقوله « ظهرت » الواقع صفة للآيات ، ووصفها بذلك كاشف ، لأن الظهور لازم لكل آية من آياته ﷺ ، ويصح أن يكون احترازاً عما ثبت بالآحاد ، فكأنه يقول للمنكر : أنا لا أصف إلا ما لا يمكن إنكاره لثبوته بالتواتر ، وأما ما ثبت بالآحاد فلا ، لأنه يمكن إنكاره ، وقوله « ظهرت » ظهور نار القرى ، أى ظهرت ظهوراً مثل ظهور نار القرى بكسر القاف الذى هو الضيافة ، وقوله « ليلاً » ظرف لظهور نار القرى ، وقوله « على علم » أى على جيل ، وقد جرت عادة الكرام من العرب بإيقاد تلك النار على الجبل ، ليهتدى الضيفان إلى منازلهم ، والتنكير فى الليل والعلم للنوعية ، أى ليلاً حالكا ، أى شديد السواد على علم شامخ ، أى مرتفع ، أو للتعظيم .

(٩٠) قوله « فالدر » إلخ لما كان قد يقال إذا كانت آياته ﷺ ظهرت ظهور نار القرى ليلاً على علم فما فائدة وصفك لها بهذا النظم ؟ أجاب : بأنها وإن كانت آياته ﷺ ظاهرة ظهوراً تاماً يزداد ظهورها بذكرها ، ويزداد حسننها بنظمها ، ولا ينقص قدرها منشورة ، لأنه ذاتى لها ، فلا يفارقها ، سواء كانت نثراً أو نظماً ، نعم ما يحصل من زيادة الالتذاذ بسماعها منظومة ينقص مع الإخبار بها منشورة ، لأن ما يزيد بوصف ينقص بسلب ذلك الوصف ، واستدل على ذلك بأمر محسوس يدرك فيه ما ذكره بقوله « فالدر » إلخ أى فالدر المعلوم حسنه ، وهو اللؤلؤ يزداد حسناً ، والحال أنه منتظم فى السلك لترتيبه وتنزيله فى المنازل المتناسبة ، وليس ينقص قدراً حال كونه غير منتظم ، لأن حسنه ذاتى له ، فلا يفارقه سواء كان منظوماً أو غير منظوم ، نعم الحسن الحاصل عند نظمه لما يحصل له من الترتيب والتناسب ينقص عند عدم نظمه ، =

فما تطاولَ آمالي المديحِ إلى ما فيه من كرمِ الأخلاقِ والشيمِ (٩١)

= لما علمت من أن ما يزيد بوصف ينقص بسلب ذلك الوصف . وكل من قوله « حسنا » وقوله « قدرا » تمييز محول عن الفاعل ، والتقدير فى الأول : يزداد حسنه ، وفى الثانى . وليس ينقص قدره ، وقد علم مما تقرر أن الوار فى قوله « وهو منتظم » واو الحال ، وأن قوله « غير منتظم » حال من فاعل ينقص ، وفائدة قوله « وليس ينقص قدرا غير منتظم » الاحتراس الرفع لما يتوهم من أن ازدياد الحسن بالنظم يوجب نقص القدر عند عدم النظم .

(٩١) قوله « فما تطاول » إلخ لما كان قوله دعنى ووصفى إلخ قد يوهم أن آماله تطاولت بالمديح إلى استقصاء ما فيه ﷺ من الصفات ، دفع ذلك بقوله « فما تطاول » إلخ ، والفاء عاطفة ، ويحتمل أن « ما » نافية ، وتطاول فعل ماض ، وآمالى فاعل ، والمديح منصوب بنزع الخافض ، والمعنى على هذا : فلم تطاول آمالى بالمديح الصادر منى إلى استقصاء ما فيه ﷺ من كرم الأخلاق والشيم ، لعلى باليأس من ذلك ، والعجز عما هنالك ، ويحتمل أن « ما » استفهامية فتكون للاستفهام الإنكارى ، وهى مبتدأ ، و « تطاول » مصدر مرفوع على أنه خبر ما الاستفهامية ، فإنها مبتدأ كما علمت ، وآمالى مضاف إليه ، والمديح منصوب بنزع الخافض مثل ما مر على الوجه الأول ، والمعنى على هذا : فما فائدة تطاول آمالى بالمديح إلى تمام ما فيه ﷺ من كرم الأخلاق والشيم ، مع أنها لا تتناهى وما ذكرناه من أن المديح منصوب بنزع الخافض ، على النسخ التى فيها آمالى بالإضافة لياء المتكلم المحذوفة لالتقاء الساكنين ، وفى بعض النسخ آمال بلا ياء ، وعليه شرح القسطلانى ، وجعل المديح مجرورا ، لأنه مضاف إليه ، لكن على تقدير مضاف أى آمال صاحب المديح ، والتطاول فى الأصل مدّ العنق ، والآمال جمع أمل ، وهو الرجاء ، وقد شبه الآمال بذى عنق يتطاول أى يمد عنقه إلى ما يريد إدراكه تشبيها مضرا فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو التطاول ، وفى كلامه استعارة بالكناية ، وتخيل ، والمديح هو الثناء الحسن ، وقوله « إلى ما فيه » أى إلى استقصاء ما فيه ﷺ ، وهو متعلق بتطاول ، وقوله « من كرم الأخلاق والشيم » ، بيان لما فيه ، والإضافة فى ذلك من إضافة الصفة للموصوف ، أى من الأخلاق والشيم الكريمة ، والأخلاق جمع خلق بضمين ، وهو الطبيعة ، والشيم : بكسر الشين المشددة وفتح الياء جمع شيمة ، وهى الخلق بضمين ، فعطف الشيم على الأخلاق من =

آياتُ حقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحدَثَةٌ قديمةٌ صِفَةُ الموصوفِ بالقِدَمِ (٩٢)

= قبيل عطف المرادف ، وهو فى مقام المدح سائغ ، وأيضاً قد يكون كرم الأخلاق عن استعمال وتكلف ، فرفع ذلك بقوله والشيم ، فهو احتراش ، فكأنه قال : كرم أخلاقه ﷺ من كرم طباعه ، لا بالاستعمال والتكلف لذلك من غير أن يكون طبيعة .

وهذا البيت إلى آخر « قد تنكر العين » (*) خاصيتها لمن كان لا يحسن العبادة ، ولمن كان ألكناً لا تستقيم له حجة ، فليكتب هذه الآيات فى صحيفة فخار بما ورد وزعفران ، ويحجها ويشربها عند إرادة النوم وقيامه من النوم ، فإنه يصير فصيح اللسان ، وتقوى حجته ، ويرزقه الله القوة على العبادة بإذن الله تعالى .

(٩٢) قوله « آيات حق » إلخ أى من معجزاته ﷺ آيات حق إلخ ، فأيات مبتدأ خبره مقدر قبله ، وهو الجار والمجرور ، وإضافة آيات لحق من إضافة الموصوف للصفة ، أى آيات موصوفة بأنها حق ، وجميع ما سيأتى إلى قوله فى البيت الثانى عشر « وكالميزان معدلة » صفات للآيات ، وما يقع بين الصفات من متعلقاتها ، ومقصود المصنف بالذات مدح النبى ﷺ ، لكن لما ذكر أن من معجزاته ﷺ الآيات الحق ، التى هى القرآن ، استطرده بذكر صفاتها ، وقوله « من الرحمن » أى من عند الرحمن لا من عند محمد ، كما زعمه كفار قريش ، وقوله محدثة أى أحدثها الله تعالى كما جاء فى التنزيل ، قال تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ (٢) وفى بعض النسخ « محكمة » بدل محدثة ، وقد جاء بها التنزيل أيضاً قال تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ (٣) وقوله « قديمة » استشكل بأنه ينافى قوله محدثة على النسخة الأولى ، لأن الشئ لا يكون محدثاً وقديماً معاً ، وإلا أدى إلى اجتماع النقيضين ، وهو محال ، وأجيب بأنها محدثة باعتبار الألفاظ ، قديمة باعتبار المعانى ، فهى محدثة قديمة باعتبارين ، لا باعتبار واحد ، حتى يؤدى إلى اجتماع النقيضين ، وهذا الجواب مبنى على أن الألفاظ التى نقرأها تدل على الكلام القديم ، الذى هو صفة قائمة بذاته تعالى ، كما قاله السنوسى وغيره من المتقدمين ، لكن ناقش فى ذلك العلامة ابن قاسم ، واختار أنها تدل على =

(١) الشعراء : ٥ (٢) الأنبياء : ٢ ، ومعنى « محدث » أى محدث نزوله .

(٣) أول سورة هود صلى الله عليه وسلم . (*) أى الآيات من ٩١ إلى ١٠٥ .

لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا عَنْ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمٍ (٩٣)

= معنى مساو للمعنى الذى تدل عليه الصفة القديمة ، مثلاً ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يدل على طلب إقامة الصلاة ، وبحيث لو كشف عنا الحجاب لفهمنا من الكلام القديم مثل هذا المعنى ، ويمكن أن يكون المراد أن هذه الألفاظ تدل على الصفة القديمة بطريق اللزوم العرفى لا العقلى ، لأنه يلزم عرفاً من أن يكون له تعالى كلام لفظى ، بمعنى أنه خلقه فى اللوح المحفوظ ، أن يكون له كلام نفسى ، فإن كل من أسند له كلام لفظى لزم عرفاً أن يسند له كلام نفسى ، إذ هو يدل عليه كما قال الأخطل :

إِنْ الْكَلَامَ لَفَى الْفَوَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفَوَادِ دَلِيلًا

وبهذا كله ظهر قوله « صفة الموصوف بالقدم » فليس المراد أن الألفاظ التى نقرؤها صفة للموصوف بالقدم ، الذى هو الله تعالى ، لأنها حادثة ، بل المراد أن معناها صفة له تعالى ، وهو مبنى على ما مرّ ، وإلا فمعنى الألفاظ التى نقرؤها منه ما هو قديم كمدلول قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَى الْقَيُّومُ ﴾ (*) ومنه ما هو حادث ، كمدلول قوله تعالى : ﴿ إِنْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (**) فبعضه قديم وبعضه حادث ، وبالجملته ففى هذه المسألة نزاع طويل ، والحاصل أن الألفاظ التى نقرؤها لها دالتان : دلالة بالوضع ، وهى التى اعتبرها العلامة ابن قاسم ، فإن المدلول بهذه الدلالة مساو للمدلول الذى تدل عليه الصفة القديمة ، ودلالة بالالتزام العرفى لا العقلى ، وهى التى اعتبرها السنوسى وغيره من المتقدمين ، فإن المدلول بهذه الدلالة هو الصفة القديمة ، فكل من المسلكين صحيح ، كما فى حواشى الكبرى .

(٩٣) قوله « لم تقترن » إلخ أى لأنها قديمة من حيث معناها على ما فيه ، فمدلولاتها قديمة على ما علمت ، والزمان حادث ، والقديم لا يقترن بالحادث ، لأنه لو اقترن به لكان حادثاً ، وقوله و « هى » أى هذه الآيات ، وقوله « تخبرنا عن المعاد » أى عن عود الخلق بعد انعدامهم ، فالمعاد بمعنى عود الخلق إلى الله تعالى فى الدار الآخرة ، بعد انعدامهم فى دار الدنيا ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ ﴾ (٢) . وقوله و « عن عاد » أى وتخبرنا عن قبيلة عاد ، التى بعث إليها هود عليه الصلاة والسلام ، وذلك كقوله =

(١) سورة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الآية : ١٠٤

(*) آية الكرسي سورة البقرة : ٢٥٥ (٢) الروم : ١١ (**) القصص : ٢٨

دامتُ لَدَيْنَا ففاقتُ كُلَّ مُعْجَزَةٍ مِنْ النُّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدِّمْ (٩٤)

= تعالى : حكاية عنهم ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك ﴾ (١) الآية ، وسميت هذه القبيلة باسم أبيها عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح ، وكان عمره ألف سنة ومائتى سنة ، ورأى من صلبه أربعة آلاف ولد ، وتزوج ألف امرأة ، وكان كافرا يعبد القمر ، ثم إنه يقال للاولين منهم عاد الاولى ، ولم بعدهم عاد الآخرة ، ويقال لهم أيضاً : ارم ، تسمية باسم جددهم ارم ، وقيل إن ارم اسم أرضهم وبلدتهم التى كانوا فيها ، وقيل : إنها مدينة بناها شداد بن عاد لبنة من فضة وأخرى من ذهب ، فى صحن عدن ، لما سمع بذكر الجنة وما فيها ، وجعل فيها قصورا من الذهب والفضة ، وأساطينها أى أعمدتها من الزبرجد والياقوت ، وجعل فيها فيها أنهارا مطردة ، وأصنافا من الشجر ، وأتم بناءها فى ثلاثمائة سنة ، وعند كمالها ارتحل إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء ، فأهلكتهم ، وقد أطنب المؤرخون فى صفتها ، وهذا خلاصة خبرها . وقوله « وعن ارم » بكسر الهمزة ، وفتح الراء المهملة أى وتخبرنا عن ارم ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ ألم تركيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ (٢) . وقد عرفت أن ارم تسمى عاداً الأخرى ، وإرم فى الآية عطف بيان على عاد ايذاناً بأنهم غير عاد الاولى ، لكن قضية سياق الآية أن المراد بإرم البلد وهو أحد الأقوال السابقة ، وإنما كرر المصنف « عن » فى الثلاثة لأنها أنواع مختلفة فلا يحسن جمعها فى واحد ، ولأن لكل أخباراً تخصه ، وقيل كررها للوزن ، وحسنه أن مقام المدح يحسن فيه الإطناب .

(٩٤) قوله « دامت لَدَيْنَا » إلخ أى استمرت عندنا ، فتسبب عن ذلك أنها فافت كل معجزة صادرة من النبيين غير نبينا ﷺ ، وقوله « إذ جاءت ولم تدم » تعليل لقوله « ففاقت كل معجزة من النبيين » أى إذ جاءت عنهم ولم تستمر ، بل لم تظهر على أيديهم إلا مرة واحدة ، وذلك حين التحدى ، ثم لم تظهر بعد ذلك ، وإليه أشار ﷺ بقوله « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيتُ وحياً يُتلى » (٣) وهو باق على الدوام ، وسبب ذلك أنه ﷺ =

(١) سورة سيدنا هود صلى الله عليه وسلم ، الآية : ٥٢ (٢) سورة الفجر : ٦ - ٨

(٣) راجع فى هذا وأمثاله « الشفاء » للتقاضى عياض رحمه الله تعالى .

مُحَكَّمَاتٌ فَمَا تُبْقِيْنَ مِنْ شُبْهِ لَذِي شِقَاقٍ وَمَا تَبْغِيْنَ مِنْ حَكَمٍ (٩٥)

= خاتم النبيين ، فشريعته باقية إلى يوم الدين ، فناسب أن تكون معجزته كذلك ، والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي ، وهو دعوى النبوة أو الرسالة ، وهي مأخوذة من الإعجاز ، لأنها تعجز الخصوم عن أن يأتوا بمثليها ، وقد نظم بعضهم أقسام الخارق للعادة فقال :

إذا ما رأيت الأمر يخرق عادةً	فمعجزة إن من تبيى لنا صدراً
وإن بان منه قبل وصف نبوة	فالارهاص سمه تتبع القوم في الأثر
وإن جاء يوماً من وكلى ، فإنه	الكرامة في التحقيق عند ذوى النظر
وإن كان من بعض العوام صدورهُ	فكنسوه حقاً بالمعونة واشتهر
ومن فاسق إن كان وفق مُرادهُ	* يسمى بالاستدراج ، فيما قد استقر
وإلا فيُدعى بالإهانة عندهم	وقد تمت الأقسام عند الذى اختبر

وزاد بعضهم السحر ، وقيل : إنه غير خارق ، لأنه معتاد عند تعاطى أسبابه .

(٩٥) قوله « محكمات » إلخ أى والآيات المذكورة محكمات ، إلخ ، ومعنى محكمات : متقنات النظم فى البلاغة والفصاحة ، بحيث لا يقدر البشر على الإتيان بمثليها ، فدل ذلك على أنها من عند الله ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ (١) وكلهم قد عجزوا عن معارضته ، ﴿ قُلْ لَنْ أَجْتُمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (٢) وقد كان كثير من الكفار يُسلم لما يدرك من فصاحة ألفاظه ، أو أن معنى محكمات : ذوات حكمة ، ويصح فيها فتح الكاف ، لأن الله أحكمها أى أتى بها ذات حكمة ، وكسرها لأنها دالة على الحكمة ، قال تعالى : ﴿ يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ (٣) قال الزمخشري : أى ذى الحكمة ، لأنه ناطق بها ، وقد كان كثير من الكفار يُسلم بمجرد سماع ما يتضمن المعانى الكثيرة من بعض آيات القرآن فى ألفاظ قليلة ، كما كان كثير منهم يُسلم لما يدرك من فصاحة ألفاظه ، لأن مثل ذلك لا يمكن أن يكون من كلام البشر ، وقوله « فما تبقيْنَ من شبه لذي شقاق » بضم التاء من تبقيْنَ ، لأنه من أبقى ، أى فما تترك تلك الآيات المحكمات شبهها لصاحب شقاق ، وهو الكافر ، لأنه مشاقق الدين إذ هو =

ما حُورِبَ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرْبٍ أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقَى السَّلْمِ (٩٦)

= فى شق ، والإسلام فى شق ، بل تزيلها ، ف « من » زائدة فى المفعول ، والشبه : جمع شبهة ، وهى ما يظن دليلاً وليست بدليل ، وإن شئت قلت : كلام مزخرف الظاهر فاسد الباطن ، والشقاق : المخالفة للحق ، والحاصل أن الكافر إذا ادعى أمراً مخالفاً للحق ، وأقام عليه شبهة ، كان القرآن هادماً لتلك الشبه ومزيلاً لها لما تضمنه من الحكم والفوائد ، وإنما قال « من شبه » بصيغة الجمع ، ولم يقل من شبهة بصيغة المفرد ، وإن كان المقرر أن عموم المفرد أشمل ، فإنه إذا انتفى الواحد انتفى الجنس كله جمعه ومفرده ، بخلاف نفى الجمع ، فإنه لا يستلزم نفى الواحد ، تنبيهها على أن طرق الباطل شتى ، فكأنه يقول : إن هذه الآيات لا تبقي شيئاً من أنواع الشبه الكثيرة المختلفة الأنواع ، فما من أحد تعرض له شبهة إلا ويجد شفاء منها فى القرآن ، فإنه الشفاء من كل داء ، والنجاة عند تفرق الأدواء ، وقوله « وما تبغي من حكم » بفتح التاء من تبغي ، أى ولا تطلبن حكماً ، بفتحيتين ، يعنى حاكماً يحكم على ذلك المخالف للحق بأنه على خلاف الصواب لظهور براهينها عليه ، ف « من » زائدة فى المفعول كالتى قبلها ، فهى زائدة فى الموضعين ، كما أن « ما » نافية فى الموضعين .

(٩٦) قوله « ما حوربت » إلخ أى ما حورب الآتى بها ، وهو النبى ﷺ فى الزمن الماضى ، إلا كان النبى ﷺ هو الغالب ، ورجع أشد الأعادى عداوة إليه ملقى السلاح ، وسلم له ﷺ إما بدخوله فى الإسلام ، وإما بتركه المحاربة من أجل شدة بلاعتها ، فإسناد المحاربة إليها مجاز ، لأن المحارب الآتى بها لاهى ، ويحتمل أن المراد بالمحاربة المعارضة ، فيكون المعنى : ما عورضت فى الزمن الماضى بأن أراد أحد أن يأتى بمثلها بحسب ظنه إلا عجز وعاد إليها أشد الأعادى عداوة مستسلماً منتقاداً من أجل شدة بلاعتها ، فقد شبه المعارضة بالمحاربة بجامع عدم الانقياد فى كل ، واستعار المحاربة للمعارضة واشتق منها « حوربت » بمعنى عورضت على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، و « قط » ظرف بمعنى الزمن الماضى ، و « عاد » من أخوات كان فترفع الاسم وتنصب الخبر ، ف « أعدى الأعادى » اسمها ، و « ملقى السلم » خبرها ، و « إليها » متعلق بعاد ، وكذا قوله « من حرب » ، و « من » فيه للتعليل ، فهى بمعنى من أجل ؛ وذكر بعضهم أنها للابتداء ، وحقيقة الحرب بفتحيتين : سلب المال ، لكن المراد به هنا الشدة أى شدة بلاعتها مجازاً من باب إطلاق اسم الملزوم وإرادة اللزوم ، لأنه يلزم من سلب المال الشدة ، ويحتمل أن المراد به سلب =

رَدَّتْ بِلاَغْتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا رَدُّ الْغَيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحَرَمِ (٩٧)
لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيَمِ (٩٨)

= الحجة التي هي كالمال ، لأن الشخص يخاف على حجته أن تُدْحَض ، وتضمحل ، فيفتضح ، كما يخاف على ماله . ومعنى « أعدى الأعدى » أشد الأعدى عداوة ، والأعدى جمع أعداء ، وهو جمع عدو ، فالأعدى جمع الجمع ، ومعنى السلم بفتحتين السلاح ، أو الاستسلام والانقياد ، وفي التنزيل ﴿ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾ (١) أى الاستسلام والانقياد .

(٩٧) قوله « ردت بلاغتها » إلخ أى أبطلت بلاغتها دعوى معارضها الإتيان بمثلها إبطالا مبالغا فيه ، فإذا ادّعى المعارض الإتيان بمثلها فى ظنه ، أبطلت بلاغتها دعواه ، كما وقع لمسيلمة الكذاب ، حيث عارض القرآن لما ادّعى النبوة ، وأراد أن يأتى بقرآن يشبه القرآن ، فقال فى معارضة سورة النزعات : « والطاحنات طحننا ، والعاجنات عجننا ، والخابزات خبزنا » ، فافتضح لا بارك الله فيه . والبلاغة هي المطابقة لمقتضى الحال ، مع الفصاحة التي هي الخلو من الحشو والتعقيد والغرابة ، وقوله « رد الغيور » أى ردا مثل رد الشخص الغيور الذي هو شديد الغيرة على النساء ، والإضافة فى ذلك من إضافة المصدر لفاعله ، وقوله « يد الجانى » منقول للمصدر الذى هو الرد ، وقوله « عن الحرم » متعلق بالمصدر المذكور ، والحرم بضم الحاء المهملة وفتح الراء جمع حرمة ، فكونه غيورا يقتضى أن يرد ويدفع يد الجانى عنهم ، وإن لم يكن من محارمه بمقتضى طبيعه ، فكيف برده يد الجانى عن حرمة هو كإمراته وأخته وغيرها ، فرده عنها أشد من رده عن غيرها ، وظاهر كلام المصنف أن إعجاز القرآن للبشر عن الإتيان بمثله بسبب ما اشتمل عليه من البلاغة التي لم يصلوا إليها ، وعلى ذلك ، فالقرآن ليس من جنس مقدورهم ، وهو قول الجمهور ، والقول الثانى إنه من جنس مقدورهم ، لكن الله تعالى صرفهم عن الإتيان بمثله ، ولذلك يسمى بقوله الصرفة ، وهو أدخل فى الإعجاز ، لأن عجزهم عما هو من جنس مقدورهم أدخل فى قيام الحجة عليهم من عجزهم عما هو ليس من جنس مقدورهم ، لكن يلزم عليه أن إعجاز القرآن ليس بنفسه ، بل بالصرفة ، فيكون غير معجز بنفسه ١١ فالحق القول الأول .

(٩٨) قوله « لها معان إلخ » أى لتلك الآيات معان كثيرة ، لا نهاية لها ، بل يمد بعضها بعضا كما أشار إليه بقوله « كموج البحر فى مدد » أى مثل موج البحر فى =

.....

= كونه يمد بعضه بعضا ، إذ ما من موجة إلا ويعددها موجة ، وهكذا ، وأشار بذلك إلى قول بعضهم : أقل ما قيل فى العلوم التى فى القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم ، وثمانمائة علم ، وما حُكى عن بعضهم من أنه قال : لكل آية ستون ألف فهم ، وما بقى من فهمها أكثر ، وقول على كرم الله وجهه « لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير الفاتحة » قال بعض العارفين : ويظهر وجه ما قاله رضى الله عنه من خمسة كنوز :

الأول : معنى « الحمد لله رب العالمين » ، فيحتاج فيه إلى بيان معنى الحمد ، وما يتعلق به ، ومعنى لفظ الجلالة ، وما يليق به من التنزيه ، ومعنى الرب ، ومعنى العالم على جميع أنواعه وأعداده .

الثانى : معنى « الرحمن الرحيم » ، فيحتاج فيه إلى بيان معنى هذين الاسمين ، وما يليق بهما من الجلالة ، وحكمة اختصاص هذا الموضع بهذين الاسمين ، فيحتاج فى ضمن ذلك إلى بيان جميع الأسماء .

الثالث : معنى « مالك يوم الدين » ، فيحتاج إلى بيان هذا اليوم ، وما فيه من المواطن والأحوال .

الرابع : معنى « إياك نعبد وإياك نستعين » فيحتاج فيه إلى بيان المعبود ، وجلاله ، والعبادة وكيفية صفاتها وأدائها على اختلاف أنواعها ، والعباد وصفته ، والاستعانة وكيفيةها .

الخامس : معنى « اهدنا الصراط المستقيم » إلى آخر السورة ، فيحتاج فيه إلى بيان الهداية وأنواعها ، والصراط المستقيم وعقباته ، وصراط المنعم عليهم ، والمغضوب عليهم ، والضالين ، وصفاتهم ، وما يتعلق بهذا النوع .

وقوله « وفوق جوهرة فى الحسن والقيم » عطف على قوله « كموج البحر فى مدح » أى و لها معان فوق الجواهر المستخرج من البحر فى حسنها البديع ، وفى قدرها وشرفها . و « فوق » ملازم للنصب على الظرفية ، وإن كانت مجازية ، ونحوه فى التزليل قال تعالى : « وفوق كل ذى علم عليم » (١) . والضمير فى « جوهرة » =

فلا تُعَدُّ ولا تُحصَى عجائبها ولا تُسَامُ على الإكثارِ بالسَّامِ (٩٩)

= للبحر والمراد بجوهره الدر المستخرج منه ، والحسن ضد القبح ، والقيم : بكسر القاف وفتح الياء جمع قيمة والمراد بها هنا ما لها من القدر والشرف مجازاً ؛ لأنها فى الأصل ما قطع به المقومون ، وبذلك اندفع ما قد يقال إن معانيها قديمة على ما تقدم ، والقديم لا يوصف بأن له قيمة ، ووجه الاندفاع أن المراد بالقيمة القدر والشرف لا المعنى الأصلي ، وفى هذا البيت الجمع ثم التفريق ، وهو أن يُدْخِلَ شَيْئَيْنِ فى معنى واحد ، ثم يفرق بينهما ، فقد أدخل هنا معانى القرآن والبحر فى المدد والكثرة ، ثم فرّق بينهما بأنّ حسنهما وقدرها يزيدان على حسن جوهره وقيمه .

(٩٩) قوله « فلا تعد ولا تحصى » إلخ هذا البيت مفرع على البيت قبله ، فالشطر الأوّل مفرع على الشطر الأوّل ، والثانى على الثانى ، وقوله « عجائبها » أى معانيها العجيبة ، والعجائب جمع عجيبة ، وهى الشئ العديم النظير أو قليله ، وقوله « ولا تسام » بضم التاء وفتح السين المهملة بعدها ألف لينه وفى آخره ميم أى لا توصف ، وقوله « على الإكثار » أى مع الإكثار منها الذى لا غاية له ، فعلى بمعنى « مع » . وقوله « بالسَّام » بتشديد السين المهملة وفتح الهمزة أى الملل ، والجار والمجرور متعلق بتسام ، وحاصل المعنى أنه إذا كان لها معان كمروج البحر فى الكثرة التى لا غاية لها ، وفوق جوهره فى الحسن والقدر والشرف ، ترتب على ذلك أنها لا تعد ولا تحصى معانيها العجيبة ، لعدم تناهيا ، ولا توصف بالملل مع الإكثار منها لحسنها ، فغيرها من الكلام ولو بلغ الغاية فيما يليق به من الحسن والبلاغة يوصف بالملل مع الإكثار منه ، فيمل مع التردد ، وبعادى إذا أعيد ، بخلاف آيات القرآن ، كما ورد فى الحديث (١) ، فقارئها لا يملها ، وسامعها لا يمجها ، بل الإكباب على تلاوتها يزيد لها حلاوة ، ويوجب لها محبة وطلاوة .

(١) وقد ذكر القاضى عياض رحمه الله فى « الشفاء » جزءاً من الحديث فقال : ولهذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه « لا يَخْلُقُ على كثرة الرد ولا تنقضى عبره ، ولا تنفنى عجائبه ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، لا يشبع منه العلماء ، ولا تزيغ منه الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، هو الذى لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرأنا عجبا يهدى إلى الرشدا ﴾ .

قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ لَقَدْ ظَفَرْتَ بِحَبْلِ اللَّهِ فَاَعْتَصِمِ (١٠٠)
 إِنَّ تَتْلَاهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارٍ لَظَى أَطْفَاتُ نَارٍ لَظَى مِنْ وَرْدِهَا الشَّبِيمِ (١٠١)

(١٠٠) قوله « قرت بها » إلخ أى سكنت واطمأنت بتلك الآيات عين قاريها ، بإبدال الهمزة ياء ساكنة لحصول السرور لها ، فإن عين الحزين تكون مضطربة ، وعين المسرور تكون ساكنة ، فقرت من القرار ، بمعنى السكون ، وقيل من القر بضم القاف وهو البرد ، والمعنى عليه بردت بدمعة الفرح ، ولم تسخن بدمعة الحزن عين قارئها ، والضمير المضاف إليه عائد على الآيات التى هى الألفاظ إن فُسِّرَ قاريها بتاليها ، فإن فسر بقاصدها من « قرأت إليه » أى قصدت إليه كان الضمير المذكور عائداً على المعانى . وقوله « فقلت له » أى فلما قرئت عينه بقراءة ألفاظها أو بقصد معانيها قلت لقارئها بمعنى تاليها أو قاصدها ، وقوله « لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم » أى والله لقد فزت بما يوصلك إلى الله ، فامتنع ببركة قراءته من عذاب الله ، أو امتنع باتباع أوامره واجتناب نواهيه من الوقوع فى المخالفة المؤذية إلى عقاب الله تعالى ، نعوذ بالله من المخالفة ، فاللام موطئة للتقسم ، وقد للتحقيق ، والحبل استعارة تصريحية مرشحة ، لأنه شبه القرآن بالحبل ، بجامع أن كلا سبب يتوصل به إلى الأشياء ، فالقرآن يتوصل به إلى ثوابه ، والحبل يتوصل به إلى أمور محسوسة ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، وذكر الاعتصام ترشيحاً لأنه يناسب المستعار منه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ففيه استعارة تصريحية مرشحة ، لأنه شبه فيه الإيمان بالعروة ، واستعيرت العروة للإيمان ، والاستمسك ترشيحاً لأنه يناسب المستعار منه .

(١٠١) قوله « إن تتلها » إلخ أى إن تقرأها إلخ ، وقوله « خيفة » أى خوفاً ، فيكون مفعولاً لأجله ، أو خائفاً فيكون حالا ، وقوله « من حر نار لظى » أى التى هى جهنم ، وقوله « أطفات » إلخ جواب الشرط ، وقوله « نار لظى » فيه إظهار فى مقام الإضمار ، لضرورة النظم ، وقوله « من وردها » بكسر الواو وسكون الراء أى من موردها ، فمن للتعليل ، والورد بمعنى المورد ، وهو المحل الذى يورد منه الماء ، وقوله « الشبيم » بفتح الشين المعجمة المشددة ، وكسر الموحدة : أى البارد ، وفى الكلام استعارة بالكناية ، حيث شبه الآيات بالماء ، تشبيهاً مضمرًا فى النفس ، بجامع الحياة بكل ، إذ الماء به حياة الأشباح ، والآيات بها حياة الأرواح ، أو بجامع إطفاء الحرارة بكل : فالما يطفىء حرارة العطش ، والآيات تطفىء حرارة نار جهنم .

كَأَنَّهَا الْحَوْضُ تَبَيَّضُ الْوَجْوهُ بِهِ مِنْ الْعَصَا وَقَدْ جَاؤَهُ كَالْحَمَمِ (١٠٢)
وَكَالصَّرَاطِ وَكَالْمِيزَانِ مَعْدِلَةً فَالْقِسْطُ مِنْ غَيْرِهَا فِي النَّاسِ لَمْ يَقُمْ (١٠٣)

= أعادنا الله منها بمنه وكرمه ، وطوى لفظ المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الورد ، والشيم ترشيح لأنه يناسب المشبه به ، وحاصل المعنى : إن تقرأها خوفا من حر نار لظى ، أو خائفا منه أطفأت عنك بتلاوتها نار لظى من أجل موردها البارد ، والشاهد لذلك ما فى مسلم : « اقرؤا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » .

(١٠٢) قوله « كأنها » الحوض إلخ أى كان الآيات المذكورة ماء الحوض إلخ ، ففيه مجاز بالحذف ، أو أنه عبر باسم المحل وأراد الحال به ، فيكون فيه مجاز مرسل ، وجملة قوله « تبيض » إلخ حال من الحوض ، على حذف المضاف السابق ، أو بمعنى « إنما » على ما علمت ، وقوله « الوجوه » أى ذوو الوجوه ، فهو على تقدير مضاف أو أنه عبر بالوجوه عن الذوات ، من باب التعبير باسم الجزء وإرادة الكل ، وقوله « به » أى بالحوض ، وقوله « من العصاة » أى حال كونهم بعض العصاة ، فمن للتبويض ، ويحتمل أنها بيانية ، وقوله « وقد جاؤه » إلخ أى والحال أنهم قد جاؤه إلخ ، فالواو للحال ، والضمير الفاعل راجع للعصاة ، والضمير المفعول راجع للحوض ، وقوله « كالحمم » أى حال كونهم كالحمم ، بضم الحاء المهملة ، وفتح الميم الأولى : أى مثل الفحم ، فالحمم جمع حمة بمعنى فحمة ، ووجه تشبيهها بالحوض المذكور أن الآيات تشفع فى تاليها وقد جاء مسود الوجه من المعاصى ، فيبيض وجهه بشفاعتها ، كما أن الحوض تبيض به وجوه العصاة حين يُصب عليهم منه بعد مجيئهم من النار كالفحم فى السواد الذى أصابهم من النار ، فيعودون بيضا كالقراطيس ، ثم يدخلون الجنة . ومراده بالحوض « نهر الحياة » لأن تلك صفته ، لما فى الخبر من اغتسال الجهنميين فى بحر الحياة ، ففى خبر الصحيحين : « فيخرجون منها (أى من النار) فيلقون فى ماء الحياة » وفى رواية « فيصب عليهم ماء الحياة » وفى هذا البيت التلميح للخبر السابق .

(١٠٣) قوله « كالصراط » إلخ أى وهذه الآيات كالصراط استقامة ، وإنما حذف ذلك ، أعنى استقامة ، لدلالة المعنى عليه ، والمراد « بالصراط » الدين الذى لا اعوجاج فيه ، وهو دين الحق ، أو المراد به الجسر الممدود على متن جهنم ، الذى هو أدق من الشعرة وأحد من السيف ، أو واسع فى حق ناس ، ضيق فى حق آخرين ، على الخلاف فى ذلك ، يسير الناس عليه إلى الجنة على قدر أعمالهم ، فإنه خط =

لَا تَعْجَبْنَ لِخَسُودٍ رَاحَ يَنْكِرُهَا تَجَاهُلًا وَهُوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ الْفَهِيمِ (١٠٤)

= مستقيم لا اعوجاج فيه بالنسبة لكل بعض من أبعاضه الثلاثة لا بالنسبة لجملته ، لأنه قد ورد أنه ألف سنة صعود ، وألف سنة استواء ، وألف سنة هبوط . وقوله « وكالميزان معدلة » أى وكالميزان من جهة العدل ، فمعدلة بمعنى عدلا ، تميز ، فإن قيل ليس من لوازم الميزان العدل ، أجيب بأن « أل » فى الميزان للعهد ، والمعهود هو الميزان الذى يكون فى يوم القيامة ، ومن لوازمه العدل ، أو المعهود : هو الميزان المستقيم ، ولو كان فى الدنيا ، وليست للاستغراق ، فيشمل كل ميزان ، وقوله « فالقسط من غيرها فى الناس لم يقم » أى فالقسط بكسر القاف ، الذى هو العدل المأخوذ من غيرها لم يقم فى الناس ، فإن قيل العدل المأخوذ من غيرها قد يقوم فى الناس ، كالمأخوذ من السنة أو الإجماع أو القياس ، أجيب بأن ذلك مأخوذ منها أيضا ، أما المأخوذ من السنة ، فلقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (١) . وأما المأخوذ من الإجماع والقياس ، فلأن مستندهما الكتاب والسنة . والمراد بالناس « الخصوص » ، وإلا لزم أن لا يكون فى أهل التوراة وغيرهم من أهل الكتب السماوية عدل ، وهو باطل (٢) .

(١٠٤) قوله « لا تعجبين » إلخ لما وصف الآيات بما ذكره استشعر شخصا قال له على وجه التعجب : إذا كانت الآيات بالمنزلة التى وصفت ، فكيف أنكرها كثير من الكفار ؟ فقال له « لا تعجبين » إلخ أى لا ينبغي العجب ، لأنه إذا ظهر السبب بطل العجب ، وها هنا قد ظهر السبب وهو الحسد ، فإنه هو الذى دعاه إلى إنكارها تجاهلا وإظهاراً للجهل ، مع علمه فى الواقع بما اشتملت عليه من أنواع الإعجاز ، وقوله « لخسود » ، متعلق بتعجبين ، ومعنى الخسود ذو الحسد ، وقوله « راح ينكرها » أى ذهب ينكر كونها من عند الله ، وأصل « راح » سار بالعشى ، ثم استعمل فى الذهاب ، والمراد أنه أنكر ما اتضحت دلالتة حتى صار كالأشياء المحسوسة بحاسة =

(١) الحشر : ٧

(٢) كلام الشيخ رحمه الله تعالى عن الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، أما ما حرقوه وكتبوه بأيديهم فضلال فى ضلال وأصحابه ليسوا من العدالة فى شىء ، قال الله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ .

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ (١٠٥)
يا خَيْرَ مَنْ يَمِّمَ الْعَافُونَ سَاحَتَهُ سَعِيًّا وَفَوْقَ مُتُونِ الْإِبْتِقِ الرَّسْمِ (١٠٦)

= البصر فى نصف النهار الذى هو أول وقت الرواح ، وقوله « متجاهلا » أى حال كونه متجاهلا ، أى مظهراً للجهل ، فإنكاره ليس لجهله حقيقة ، بل لحسده ، وإن كان قد أظهر الجهل ، وقوله « وهو عين الحاذق الفهم » أى والحال أنه عين الحاذق بالذال المعجمة أى الماهر ، الفهم : بفتح الفاء وكسر الهاء : أى الشديد الفهم ، وحينئذ فإنكارها عناد دعاه إليه الحسد ، فلا عجب لإنكارها للحسد ، وأثار بقوله « الفهم » إلى أن حذقه ليس ناشئا عن طول التجارب والتكرار ، لكونه كان بليد الطبع ، بل حذقه مع كونه فاهما بالأصالة ، ولا شك أنه يحصل بالتمرين مع كونه فاهماً بحسب الأصالة ما لا يحصل مع كونه بليداً بحسب الأصالة ، وبهذا التقرير ظهر أن الفهم ليس معناه الحاذق كما زعم بعضهم .

(١٠٥) قوله « قد تنكر » إلخ : لما ادعى أن إنكارها للحسد مع كونها متصفة بالمعجزات المذكورة ، أثبت ذلك بأمرين محسوسين : الأول إنكار العين ضوء الشمس من أجل الرمذ القائم بها ، والثانى إنكار الفم طعم الماء من أجل السقم القائم به ، فكذلك إنكار الآيات من أجل الحسد القائم بالمنكر ، فهاتان الجملتان مسوقتان للتعليل ، وكلامه على حذف مضاف فيهما ، والتقدير : قد ينكر ذو العين إلخ ، وقد ينكر ذو الفم إلخ ، لأن المنكر فى الحقيقة إنما هو صاحب كل منهما .

(١٠٦) « يا خير من يم » إلخ : لما مدحه ﷺ بما مدحه به ، مخبراً عنه على وجه الغيبة ، أقبل عليه بالخطاب فقال : « يا خير من يم » إلخ أى يا خير كريم قصد العافون ، وهم الطالبون للمعروف لساحته ، وهى حريم داره الواسع ، حال كونهم ساعين بمعنى مسرعين فى المشى ، ليحصلوا حاجتهم أقرب وقت ، وحال كونهم راكبين فوق ظهور النوق التى ترسم الأرض ، وتؤثر فيها لحصول الحاجة سريعاً ، وقصده بذلك الاستغاثة به ﷺ ، والتوطئة لذكر صفاته ، والعافون : جمع عاف ، وهو طالب المعروف ، والساحة : حريم الدار الواسع ، وسعياً : بمعنى ساعين ، والمتون : جمع متن وهو الظهر ، والابتق : جمع ناقة ، وأصله أنوق قدّمت الواو على النون فصار أنوق ، ثم قلبوها ياء فصار أينق ، وهذا جمع قلة ، وجمع الكثرة نياق ، والرسم : بضم الراء المشددة وضم السين جمع رسوم ، وهى الناقة التى تؤثر فى الأرض من شدة الوطء عليها .

وَمَنْ هُوَ الْآيَةُ الْكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ الْعَظْمَى لِمُغْتَنِمٍ (١٠٧)

= ومن هنا إلى آخر قوله « وجل مقدار » (*) إلخ خاصيتها لمن خاف أن يلومه السلطان على جناية وقعت منه ، فليكتبها فى جلد جمل ، ويجعله منشورا على صدره تحت الثياب ، ويدخل على السلطان ، وهو يقول : الله أكبر (ثلاثا) فإنه لا يكلمه أبدا ، ومن وقع بينه وبين زوجته خصومة ، أو بين أحد من أحبابه ، فليكتبها فى جلد أسد ، ويجعلها فى كور عمامته ويدخل على حبيبه ، وهو صامت ، فإن حبيبه يبدأه بالكلام ، ويكون محبا له ، وإياك أن تفعل هذا للحرام ، فاتق الله .

(١٠٧) قوله « ومن هو » إلخ أى ويا من هو إلخ ، فهو معطوف على المنادى فى البيت قبله ، وأجاز بعضهم أن يكون معطوفا على « من » فى قوله « يا خير من » إلخ ، والأول هو الظاهر ، وعليه فـ « من » هنا واقعة عليه ﷺ وحده ، بخلافة على الثانى ، فإنها عليه واقعة على جنس متعدد يشمل النبيين والملائكة ، وقوله « الآية الكبرى لمعتبر » أى الآية الكبرى التى هى أكبر الآيات لتأمل ومتفكر ، لأنه ﷺ بعث بالسنان التى لا تحصى ، وبالعلوم التى لا تستقصى ، إلى قوم مغمورين فى الجهالة والضلالة ، قد بلغ من جهلهم وضلالهم أن يعبدوا الأصنام ، فدلهم على الله ، وأرشدهم إلى ما لا ينال إلا بتخصيص من المولى الوهاب ، فمن تأمل ذلك عرف أنه الآية الكبرى ، أى الدليل الأعظم على أن ما جاء به حق قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (١) وقوله « ومن هو » إلخ أى ويا من هو ، إلخ ، فهو معطوف على المنادى فى البيت قبله ، ويحتمل أنه معطوف على « من » على ما قاله بعضهم ، كما علمت فى نظيره ، وقوله « النعمة العظمى لمغتئم » أى النعمة العظمى التى هى أعظم النعم للمريد أن يغتنم ما عند الله من السعادة الأبدية ، لأنه ﷺ أنقذ الخلائق من النار ، ومن الدخول فى دار البوار ، بالبيان الواضح ، والبرهان الناصع ، فمن أراد أن يغتنم فهو ﷺ النعمة العظمى له ولسائر العالمين ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٢) .

(*) أى من هذا البيت إلى البيت ١١٥

(١) الشورى : ٥٢

(٢) الأنبياء : ١٠٧

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاخِلِ مِنَ الظُّلَمِ (١٠٨)

(١٠٨) قوله « سريت » إلخ كأنه قال : ومن معجزاتك أنك سريت إلخ ، ومعنى سريت : سرت ليلا ، لأن السرى (١) هو السير ليلا ، وسرى وأسرى بمعنى ، وقال السهيلي : سرى لازم ، وأسرى متعد ، لكن كثير حذف مفعوله ، فظن أهل اللغة أنهما بمعنى ، فالمفعول في قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ (٢) محذوف ، والتقدير أسرى اليراق بعبده ، فحذف المفعول استغناء عنه بذكر محمد ﷺ ، لأنه المقصود بالخبر ، أو حُذِفَ لقوة الدلالة عليه ، وقوله « من حرم » أى حرم مكة ، وقوله « ليلا » أى فى ليل ، فإن قيل : إذا كان معنى سريت سرت ليلا ، ومعنى أسرى بعبده جعله ساريا ، أى سائرا ليلا ، فما فائدة قوله بعد ذلك « ليلا » ؟ أجيب بأن فائدته فى النظم والآية التأكيد ، كما قاله الجوهري ، أو الإعلام بأنه فى جزء من الليل ، كما قاله الزمخشري بقرينة تنكيهه ، لأنه للتعليل ، ولو لم يذكر لاحتمل أن يكون ذلك فى الليل كله ، وليس كذلك ، قال الزمخشري : « ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة ﴿ من الليل ﴾ أى بعضه ، وإنما خص الليل بذلك دون النهار ، لأنه وقت تفرغ البال ، وقطع العلائق ، وقيل : لأن الله تعالى لما محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر خاطر الليل ، فجبر بأن أسرى فيه بـ محمد ﷺ ، ولذلك قيل : افتخر النهار على الليل بالشمس ، فقيل : لا تفتخر ، فإن كانت شمس الدنيا تشرق فيك فسيُخرج بشمس الأرض فى الليل إلى السماء ، وقيل لأنه سراج ، والسراج إنما يوقد فى الليل ، وقيل : لأنه سمى بدرا فى قوله تعالى ﴿ طه ﴾ (٣) فإن الطاء بتسعة ، والهاء بخمسة ، وذلك أربعة عشر ، فكأنه تعالى قال : يا بدر ، وهذا يناسب قول الناظم كما سرى البدر ، والله دُرُّ القائل حيث قال :

قلتُ يا سيدى وكَمَ تَوَثَّرَ اللَّيْلُ عَلَى بِهِجَةِ النَّهَارِ الْمُنِيرِ
قال لا أَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَ رَسْمِي هَكَذَا الرَّسْمُ فِي طُلُوعِ الْبَدْرِ
إِنَّمَا زَرْتُ فِى الظَّلَامِ لِكَيْمَا يُشْرِقَ اللَّيْلُ مِنْ أَشْعَةِ نَوْرِ =

(١) السرى : بضم السين المشددة : « سير عامة الليل » كذا فى القاموس .

(٣) أول سورة طه .

(٢) أول سورة الإسراء .

وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَتْرَلَةً مِّنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تُرَمْ (١٠٩)

= وقوله « إلى حرم » أى حرم بيت المقدس ، وقوله « كما سرى البدر » أى مثل سير البدر الذى هو القمر ليلة كماله ، وهى ليلة أربعة عشر ، سعى بذلك لأنه يبدر الشمس فى الطلوع ، ووجه التشبيه أنه ﷺ نور مبين كالbدر وأتم ، وقد قطع مسافة عظيمة فى ليل مظلم ، كما يسرى البدر المنير فى ليل مظلم ، مع سرعة السير ، وكمال الإنارة . والداجى : اسم لليل المظلم ، يقال دجا الليل ، أى أظلم ، فهو داج ، أى مظلم ، فقوله « من الظلم » تكملة أى من ذى الظلم ، بضم الظاء وفتح اللام ، جمع ظلمة . و « من » للبيان المشوب بالتبعيض ، وفى هذا البيت إشارة إلى قصة الإسراء ، وقد ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾ (١) وحاصلها أنه ﷺ كان فى بيته ، أو فى المسجد على اختلاف الروايات فى ذلك - فجاءه جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر ، فاحتملاه وشققا صدره (٢) وغسله جبريل ، وملاه علما وحكمة وإيمانا ويقينا ، ثم أتى له بالبراق ، فركبه ، وسار وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، حتى وصل إلى بيت المقدس إلخ .

(١٠٩) قوله « وبِتَّ تَرْقَى » إلخ عطف على قوله « سرى » إلخ أى وبعد وصولك إلى بيت المقدس بت ترقى أى تصعد ، فإنه ﷺ نُصِبَ له معراج له مرقة من فضة ومرقة من ذهب ، وهو الذى تعرج عليه أرواح المؤمنين ، فدللت له مرقة فصعد عليها إلى سماء الدنيا ، فاستفتح جبريلُ الباب ، فقيل : من بالباب ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل (٣) إليه ؟ قال : نعم قيل : مرحبا به وأهلا ، ونعم المجىء جاء . فلما جاوز السماء الأولى دللت المرقة الثانية فصعد عليها إلى السماء الثانية ، وهكذا إلى السماء السابعة ، ثم إلى =

(١) أول سورة الإسراء .

(٢) شق الصدر حدث له ﷺ ثلاث مرات : مرة وهو صبى عند حليلة السعدية رضى الله عنها ، ومرة عند البعث ، ومرة عند الإسراء ، وكلها ثابت بالسنة الصحيحة ولا ينكره إلا مكابر معاند .

(٣) قال العلماء فى تفسير قوله « أوقد بعث إليه » هل المراد : بعث إليه بالرسالة أو بعث إليه يعنى طلب للسموات ؟ والكلمة تحتل المعنيين . والله تعالى أعلم .

وَقَدِّمْتُكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا وَالرُّسُلُ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمٍ (١١٠)

= الكرسي ، ثم إلى سدرة المنتهى (١) ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، ثم دُلِّيَ له الرفرف ، وهو سحابة خضراء ، فصعد عليها إلى ما شاء الله تعالى ، وهذا المكان هو الذي أعدّه الله للخطاب ، وفرض الصلوات ، والإفالة تعالى منزّه عن المكان ، وقوله : « إلى أن نلت منزلةً » غاية لما قبله أى « إلى أن أعطيت مرتبة فى القرب » وقوله « من قاب قوسين » بيان للمنزلة ، لكن فى العبارة قلب ، والأصل من قابى قوس ، أى من قدر ما بين قابى القوس ، لأن كل قوس له قابان ، وبينهما شىء قليل جدا ، فبينهما غاية القرب ، فكَذَلِكَ بَيْنَهُ ﷺ وَبَيْنَ الْمَوْلَى ، فبينهما غاية القرب ، لكن المراد هنا القرب المعنوى (٢) . وقوله « لم تدرك » بالبناء للمجهول أى لم يدركها غيرك ، وقوله « ولم ترم » بالبناء للمجهول أيضا ، أى لم يرمها غيرك ، ولم يطلبها للعلم ، بأنها ليست إلا لك ، وفى هذا البيت إشارة إلى قصة المعراج ، وقد ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿ ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ وقد علمت حاصلها .

(١١٠) قوله « وقدمتك » إلخ عطف على قوله « سريت » إلخ أيضا ، ثم إنه يحتمل أن المراد التقديم فى الرتبة والمكانة ، كما يدل عليه قوله « تقديم مخدوم على خدم » وذلك لأن الله قد أطلعهم على منزلته ﷺ بالوحى فى مدة حياتهم ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٣) الآية ، ويحتمل أن المراد =

(١) كان الأولى أن يقول : « ثم إلى سدرة المنتهى ، ثم إلى الكرسي » لأن سدرة المنتهى فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها ، والكرسي محيط بالعالم كله ، وهو جسم محسوس خلقه الله تعالى وجعله مركز إدارة العالم ، وإليه يتجه الناس بالدعاء وطلب الحاجة من الله تعالى لأن الله تعالى لا مكان له تعالى الله عن المكان والزمان .

(٢) كما تقول إن فلانا أقرب الناس إلى الله ، فليس معناه أن بين الله والناس مسافة ، وهو أقربهم مسافة - تعالى الله عن المكان ، إنما هو قرب محبة وود وتكريم ، والمكان الذى وصل إليه المصطفى ﷺ هابه جبريل ﷺ ، وقال له : « يا محمد أنت إن تقدمت اخترقت ، وأنا إن تقدمت اخترقت » وأوحى إلى رسول الله ﷺ بالصلوات ، ومن هذا وأشباهه علم جبريل وغيره من الملائكة أن سيدنا محمد ﷺ أكرم الخلق على الإطلاق عند الله تعالى . (٣) آل عمران : ٨١

وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ بِهِمْ فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعِلْمِ (١١١)

= التقديم فى الحس والخارج كما يدل عليه ما روى من أنه حشر له جميع الأنبياء والرسول ليلة الإسراء وصلى بهم فى المسجد الأقصى ، بعد أن أثنى كل على ربه بما هو أهله ، وكان ﷺ آخرهم فى ذلك ، فأثنى على الله بما ألهمه له ، فقال إبراهيم عند ذلك : « بهذا فضلكم محمد » (١) وذلك كان قبل المعراج على المشهور ، ولا يخفى أن الكاف مفعول ، و « جميع الأنبياء » فاعل ، وألحق الفعل التاء لأن « جميع » فى معنى جماعة ، أو لإضافته إلى جمع التكسير الذى يجوز تأنيثه ، وقوله « جميع الأنبياء » بالمد ، وقوله « بها » أى بتلك المنزلة أو الليلة المفهومة من قوله « ليلا » ، وقوله « الرسل » أو وجميع الرسل ، فهو بالجر معطوف على الأنبياء ، ويحتمل أنه بالرفع معطوف على جميع ، وعلى الأول ، فهو صريح فى العموم ، وعلى الثانى فهو ظاهر فيه ، وهل كانت الأنبياء والرسل بأجسامهم وأرواحهم ، أو بأرواحهم فقط ، والراجح أنهم كانوا بأرواحهم فقط ، إلا عيسى وإدريس ، فإنهما كانا بروحهما وجسمهما ، وبعضهم رجح أن الأنبياء جميعاً كانوا بأجسامهم وأرواحهم ، وعطف الرسل على الأنبياء من عطف الخاص على العام ، كما هو المشهور لشرفهم ، وقوله « تقديم مخدوم على خدم » أى تقديم مثل تقديم مخدوم على خدم ، فهو بالنصب على المصدرية ، لكن على وجه التشبيه .

(١١١) قوله « وأنت تخترق » إلخ أى وقدمتك جميع الأنبياء ، والحال أنك تخترق ، بمعنى تقطع السموات السبع الطباق ، أى التى هى طبقة فوق طبقة ، قالوا « و » للحال ، لكنها حال منتظرة ، لا مقارنة ، ووصف السموات بأنها طباق ، =

(١) روى ابن جرير فى تفسيره أن رسول الله ﷺ قال بعد أن اثنى الأنبياء على الله تعالى فى بيت المقدس قبل عروجه إلى السماء : « كلكم أثنى على ربه وإنى مثن على ربي ، فقال : الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وأنزل على الفرقان فيه بيان لكل شيء ، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتى وسطاً ، وجعل أمتى هم الأولون والآخرون ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحاً خاتماً » فقال سيدنا إبراهيم : « بهذا فضلكم محمد ﷺ » ، قال أبو جعفر الرازى : خاتم النبوة ، فاتح بالشفاعة يوم القيامة « كذا من ابن كثير رحمه الله تعالى .

حَتَّى إِذَا لَمْ تَدْعُ شَأَوًا لِمُسْتَبِقٍ مِّنَ الدُّنُوِّ وَلَا مَرَقَى لِمُسْتَنَمٍ (١١٢)
خَفَضَتْ كُلَّ مَقَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِذْ تُودِيَتِ بِالرُّفْعِ مِثْلَ الْمَفْرَدِ الْعَلَمِ (١١٣)

= قوله تعالى : ﴿ سبع سموات طباقا ﴾ أى طبقة فوق طبقة ، وقوله « بهم » أى حال كونك ماراً بهم ، يعنى بالذى لقيه منهم ، فى حديث الإسراء فى مسلم « أنه مر فى السماء الدنيا بآدم ، وفى الثانية بعيسى ويحيى ، وفى الثالثة بيسوف ، وفى الرابعة بإدريس ، وفى الخامسة بهارون ، وفى السادسة بموسى ، وفى السابعة بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقوله « فى موكب » بكسر الكاف ، أى حال كونك فى موكب ، فهو حال أو هو خبر ثان لأنت ، والموكب الجمع العظيم المتلبس بهيئة عظيمة ، وقد كان معه ﷺ جبريل ، وما أعظمهما وأعظم هيئتهما ، وجملة « كنت فيه صاحب العلم » صفة لموكب : أى كنت فيه المشار إليه ، لأن العلم الرمح فى رأسه راية ، ومن شأن صاحبه أن يشار إليه ، وهو المراد ، فأطلق اسم الملزوم ، وأريد اللازم ، أو المعنى على التشبيه ، وكان جبريل يستفتح فى كل سماء فيقال له : ومن معك ؟ فيقول محمد ، كما تقدم ، وهذا يدل على أنه ﷺ هو المشار إليه فى ذلك الموكب .

(١١٢) قوله « حتى إذا » إلخ غاية لقوله وأنت تخترق إلخ ، و « إذا » ظرفية مجازية أى إلى مقام القرب . وقوله « لم تدع شأوا لمستبق » أى لم تترك غاية لطالب سبق ، فلم تدع بمعنى لم تترك ، و « شأوا » يفتح الشين المعجمة وسكون الهمزة ، وفى آخره واو ، أى غاية ، والمستبق : طالب السبق ، وهو الساعى ليسبق . والجار والمجرور متعلق بشأوا ، وقوله « من الدنو » بيان للشأوا ، أى من القرب ، وقوله « ولا مرقى لمستنم » أى ولم تدع مرقى لمستنم ، والمرقى : محل الرقى ، وهو الدرجة ، والمستنم : طالب الرفة وهو الساعى ليرتفع ، والجار والمجرور متعلق بمرقى ، وحاصل المعنى أنه ﷺ لم يزل يصعد إلى مقام القرب ، فلم يترك فيه غاية من القرب لطالب السبق ، ولم يترك درجةً لطالب رفعة ، وذلك المقام هو أعلى مقامات القرب ، وهو المعبر عنه فيما تقدم ، بقاب قوسين .

(١١٣) قوله « خفضت كل مقام » إلخ هذا البيت جواب إذا فى البيت قبله ، أى خفضت كل رتبة لغيرك ، وقوله « بالإضافة » أى بالنسبة إلى مقامك لا مطلقا ، وإلا فالأنبياء كلهم متصفون بالكمال ، لكنه ﷺ أكمل ، فمقام غيره منخفض بالنسبة =

كَيْمَا تَفُوزَ بِوَصْلِ أَيْ مُسْتَتِرٍ عَنِ الْعُيُونِ وَسِرٍّ أَيْ مُكْتَتِمٍ (١١٤)

= لمقامه المرتفع عن مقام كل مخلوق ، وإن كان ذلك المقام المنخفض مرتفعاً في نفسه ، وإنما انخفض بالنسبة لمقامه ﷺ . وإياك أن تعتقد أن غيره ﷺ من الأنبياء ليس متصفاً بالكمال ، لأن ذلك كفر ، فالواجب عليك أن تعتقد أنهم متصفون بالكمال ، لكن نبينا أكمل ، وقوله « إذ نوديت بالرفع » أى لأنك نوديت من قبل الله تعالى لداء مصحوباً برفع شأنك إلى ما لم يصله أحد غيرك ، وهو أعلى مقامات القرب ، فاذا للتعليل ، وقيل : ظرف للزمان الماضي . وقوله : « مثل المفرد العلم » أى حال كونك ماثلاً للمفرد العلم من حيث الاختصاص بكونه نودى نداء مصحوباً برفع لفظه ، فكما أن المفرد العلم خُصَّ بكونه نودى نداء مصحوباً بالرفع من بين أقسام المنادى ، فإن ما عداه منها منصوب ، كذلك ﷺ خُصَّ بكونه نودى نداء مصحوباً بالرفع من بين سائر الأنبياء ، فإن ما عداه منهم مخفوض المقام بالنسبة لمقامه ﷺ ، فإن قيل : المفرد العلم إنما نودى بالبناء على الضم لا بالرفع ، حتى يتم التشبيه ؟ أجيب بأن البناء على الضم رفع فى المعنى ، والمراد بالمفرد العلم : المعرفة ، من إطلاق الخاص وإرادة العام ، لأن النكرة المقصودة من أقسام المعرفة عند المحققين ، فإنها تتعرف بالقصد والإقبال عليه كالمشار إليه ، وذلك كما فى قولك مقبلاً على رجل مخصوص : يا رجل ، فالمقصود رجل معين لا شائع فى جنسه ، والظاهر أن التشبيه بالمفرد العلم إنما هو فى النداء بالرفع خاصة ، لا فى خفض مقامات غيره .

(١١٤) قوله « كيما تفوز » إلخ أى لكيما تفوز إلخ ، فاللام مقدرة قبل كى ، فتكون مصدرية ، وعلى هذا فكى هى الناصبة للفعل بنفسها . ويحتمل أن اللام ليست مقدرة قبلها ، فتكون تعليلية ، وعلى هذا فالناصب للفعل أن مقدرة بعدها ، لا هى نفسها على الصحيح ، و « ما » زائدة على الوجهين ، وعلى كل من الوجهين ، فهو علة لقوله « سريت وبت » إلخ ، فالمعنى فعلت ذلك لأجل أن تفوز إلخ ، أى تظفر بوصول من الله لك ، حيث أحلك المنزلة التى رفعك إليها ، وناداك إلى الصعود إليها ، وقوله « أى مستتر عن العيون » بتشديد « أى » وجراها على أنها صفة لوصول ، وهو دال على معنى الكمال ، أى وصل كامل فى الاستتار عن العيون ، وقوله « وسر أى مكتتم » بتشديد أى وجراها على أنها صفة لسر ، وهو دال على معنى الكمال ، أى سر كامل فى الاكتتام عن الخلق ، ولا يخفى أن كلا من مستتر ومكتتم بصيغة الفاعل ، =

فُحِزَتْ كُلُّ فَخَّارٍ غَيْرِ مُشْتَرَكٍ وَجُزَّتْ كُلُّ مَقَامٍ غَيْرِ مُزْدَحَمٍ (١١٥)

= وبعضهم ضبط مكتتم بفتح التاءين ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ (١) كما يدل على ذلك حديث عائشة رضى الله تعالى عنها حيث قالت : يا رسول الله ما الذى أوحى إليك ربك إذ قال فأوحى إلى عبده ما أوحى ؟ قال : يا عائشة أتريدين أن تعلمى ما لا يعلمه جبريل ولا ميكائيل ولا نبي مرسل ولا ملك مقرب ؟ فقالت : أسألك بأبى بكر إلا ما أعلمتنى ، فقال : إني لما كنت قاب قوسين ، قلت اللهم إنك عذبت الأمم بعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالمسح ، وبعضهم بالحسف ، فما أنت فاعل بأمتى ؟ فقال : أنزل عليهم الرحمة من عنان السماء ، وأبدل سيئاتهم حسنات ، ومن دعائى منهم لبيته ، ومن سألتنى أعطيته ، ومن توكل على كفيته ، وفى الدنيا أستر على العصاة ، وفى الآخرة أشفعك فيهم ، ولولا أن الحبيب يحب معاتبه حبيبه ، لما حاسبت أمتك . ولما أردت الإنصراف قلت : يارب لكل قادم من سفره تحفة ، فما تحفة أمتى ؟ قال الله تعالى : « أنا لهم ما عاشوا ، وأنا لهم إذا ماتوا ، وأنا لهم فى القبور ، وأنا لهم فى النشور » كذا فى بعض الشروح .

وذكر جمع من الشراح ما نصه : وهذا السر مأخوذ من حديث : « علمنى ربى ليلة الإسراء علوماً شتى ، فعلم أخذ على كتمانته ، وعلم خيرنى فيه ، وعلم أمرنى أن أبلغه ، قال على رضى الله عنه : فكان يسرُّ إلى أبى بكر وعمر وعثمان ، وإلى ماخبر فيه » (٢) أ هـ . لكن لم يوقف على أصل لذلك فى كتب الحديث .

(١١٥) قوله « فحزت » إلخ فيسبب ما نلت من تلك المرتبة حزت إلخ ، والحيازة بالحاء المهملة : الجمع ، فمعنى حزت جمعت ، وقوله « كل فخار » مفعول لحزت ، والفخار بفتح الفاء كما هو المسموع وإن كان القياس الكسر ، لقول ابن مالك فى الخلاصة :

(١) النجم : ١٠

(٢) عند ابن كثير فى تفسير سورة النجم ما نصه : « وقد ذكر سعيد بن جبير فى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ قال : ﴿ أوحى الله إليه ﴾ ﴿ ألم أجعلك يتيماً ﴾ ورفعنا لك ذكرك وقال غيره : أوحى الله إليه : أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها . أمتك .

وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ وَعَزَّ إِذْرَاكَ مَا أُولِيَتْ مِنْ نِعَمٍ (١١٦)
بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ إِنَّ لَنَا مِنْ الْعِنَايَةِ رُكْنًا غَيْرَ مُنْهَدِمٍ (١١٧)

١= لفاعل الإفعال والمفاعله وغير ما مرَّ السماع عادله

وهو ما يفتخر به من الفضائل ، وقوله « غير مشترك » أى بينك وبين غيرك ، بل هو مختص بك ، وقوله « وجزت » بالجيم والزاي ، أى عبرت وتجاوزت ، وقوله « كل مقام » مفعول لجزت ، والمقام : الرتبة ، وقوله « غير مزدحم » بفتح الحاء أى مزدحم فيه لعدم الواصلين إليه ، وهو من باب الحذف والإيصال ، ولا يخفى أن لفظ « غير » فى الموضوعين مجرور على أنه صفة للمجرور قبله ، وحاصل المعنى : فبسبب ما نلت من تلك المرتبة جمعت كل ما يُفْتَخَرُ به من الفضائل المختصة بك ، وعبرت وتجاوزت كل رتبة غير مزدحم فيها ، لأنه لا يصل إليها غيرك .

(١١٦) قوله « وجل » إلخ أى عظم ذلك ، فلا يحاط به ، وقوله « ما وليت » بالبناء للمفعول أى ما ولاك الله ، وقوله « من رتب » بيان لما ، والرتب المناصب الشريفة ، وقوله « وعز » بفتح العين وتشديد الزاي : أى امتنع ذلك ، فلا يحصل لأحد غيرك ، وقوله « ما أوليت » بالبناء للمفعول ، أى ما أولاك مولاك . وقوله « من نعم » بيان لما ، والمراد من النعم الأمور المنعم بها ، وكل من الجملتين إما مستأنف أو معطوف على ما تقدم .

(١١٧) قوله « بشرى لنا » إلخ أى هذه المناقب بشرى لنا إلخ ، فبشرى : خبر مبتدأ محذوف ، ولنا : خبر ، وساغ الابتداء ببشرى ، لأنها فى معنى النكرة الموصوفة ، فإنها بمعنى الخبر السار ، وقوله « معشر الإسلام » أى معشر أهل الإسلام ، وهو منصوب على الاختصاص ، أى أخص معشر الإسلام ، وقوله « إن لنا من العناية ركنا غير منهدم » أى إن لنا جميع المسلمين من أجل العناية بنا فى الأزل شريعة غير متغيرة بالنسخ ، فالمراد بالركن الشريعة ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، حيث شبه الشريعة بمعنى الركن بجامع الثبات فى كل ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، والمراد بالانهدام : التغير ، لكن لا مطلقا ، بل بخصوص النسخ ، أماتا الله على سنته ، واتباع ملته بمنه وفضله ورحمته .

لَا دَعَا اللَّهَ دَاعِينَا لِطَاعَتِهِ بِأَكْرَمِ الرُّسُلِ كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ (١١٨)
 رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءُ بَعَثَتْهُ كَنْبِئَةٌ أَجْفَلَتْ غَفْلًا مِنَ الْغَنَمِ (١١٩)
 مَا زَالَ يَلْقَاهُمْ فِي كُلِّ مَعْتَرَكٍ حَتَّى حَكُوا بِالْقَنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمِّ (١٢٠)

(١١٨) قوله « لا دعا الله » إلخ أى لما سعى الله إلخ ، ولا يخفى أن لما شرطية ، ودعا فعل الشرط ، والله فاعل ، وداعينا : مفعول ، ولطاعته متعلق بداعينا ، وبأكرم الرسل متعلق بدعا ، و « كنا أكرم الأمم » جواب الشرط ، والمعنى : لما سعى الله النبى ﷺ الذى دعانا ، أى طلبنا لطاعته تعالى « بأكرم الرسل » كنا معشر أمته أكرم الأمم ، لأن أكرم الرسل لا يبعث إلا لأكرم الأمم ، وفى التنزيل ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (١) وجعل بعض الشراح داعينا بدلا من الفاعل ، وجعل لطاعته متعلقا بدعا والمعنى عليه : لما دعانا الله وهو داعينا لطاعته بواسطة أكرم الرسل ، كنا أكرم الأمم ، والأول أقرب كما لا يخفى .

(١١٩) قوله « راعت » إلخ أى أفزعت إلخ ، وهذه الجملة مستأنفة ، وقلوب بالنصب مفعول مقدم لراعت ، لكن على تقدير مضاف ، أى أصحاب قلوب ، ويحتمل أنه سعى الذوات بالقلوب ، فيكون قد عبر باسم الجزء ، وأراد الكل على سبيل المجاز المرسل ، والعدا : بالكسر والقصر جمع عدو ، والمراد بهم الكفار ، وأنباء بعثته : بالرفع فاعل مؤخر لراعت ، ولا يخفى أن إسناده راعت إلى أنباء البعثة من المجاز العقلى ، لأن موجد الروح فى القلوب هو الله تعالى ، وأنباء بعثته إنما هى سبب ، فهو من إسناده الفعل إلى سببه ، والمراد بأنباء بعثته أخبارها التى صدرت من الكهان والأخبار وغيرهم ، كقولهم : إنه سيظهر دين يغلب كل دين ، وإنما أفزعهم لغفلتهم عنها كما يؤخذ من التشبيه بعد ، ولو كانوا ملتفتين إليها ما فزعوا منها ، وقوله « كنبئة » أى مثل نبئه أى زارة الأسد ، التى هى صوته ، وجملة أجفلت بالجيم والفاء ، أى أفزعت صفة لنبئة ، وغفلا : بضم الغين سكون الفاء جمع غافل ، وهو مفعول لأجفلت ، وقوله « من الغنم » بيان لغفلا ، مشوب بتبويض ، وإنما كانت غفلا لكونها راعة فى ربيعها مشتغلة فى أكلها وشهواتها ، فأجفلها ذلك الصوت وفرقها .

(١٢٠) قوله « ما زال » إلخ أى لم ينفك ﷺ عن كونه يلقاهم بنفسه تارة ، ويخيله ورجله أخرى ، فى كل معترك وقع بينه ﷺ وبينهم ، ويلقاهم بالإشباع (٢) ، والجار =

(٢) أى بإشباع ضمة الميم .

(١) آل عمران : ١١٠

وَدَّوْا الْفَرَارَ فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِهِ أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّخْمِ (١٢١)

= والمجرور متعلق به ، والمعتوك بفتح الراء محل الاعتراك ، أى الازدحام للحرب ، وقوله « حتى » إلخ غاية لقوله « ما زال يلقاهاهم فى كل معتوك » وقوله « حكا » بفتح الكاف ، لأن أصله حكوا قلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين ، ومعنى حكا : شابهوا ، وقوله « بالقنا » أى بطعن القنا ، فهو على تقدير مضاف ، والباء للسببية ، أى بسبب طعنهم بالقنا ، وكذا بسبب ضربهم بالسيوف ، ورميهم بالنبل ، والقنا : جمع قناة وهى الرمح ، ولحما : مفعول لقوله حكا ، وقوله « على وضم » متعلق بمحذوف صفة للحما ، والوضم بالضاد المعجمة ما يضع القصاب اللحم عليه ، معداً لمن يأخذه ، وهو المسمى بالطبلية ، وقيل : إنه الحديد الذى يُغرز فيه اللحم حين يُشوى ليؤكل ، وحاصل المعنى أنه ﷺ ما زال يقاتل الكفار حتى تركهم قتلى معدين لأكل السباع والطيور لحومهم ، ويقال للذليل الخقير : « لحم على وضم » بطريق الاستعارة ، ويحتمل أن يكون هو المراد هنا كما يحتمل الحقيقة .

(١٢١) قوله « وَدَّوْا الْفَرَارَ » إلخ أى تمنوا الهرب منه ﷺ ، وإِنَّمَا تمنوه مع أنه أقيح الخصال وأدمها عند العرب ، فإنه من أفعال اللثام ، وما كانوا يرضون به فضلاً عن تمنيه لما استمر فيهم من القتل ، ولما كثرت ودادتهم للفرار ، وصار من شهواتهم المطلوبة لهم ، ولات حين فرار لهم من غضب الله تعالى الذى حل بهم على يد رسول الله ﷺ ويد المؤمنين ، نزل هربهم منزلة المحال الذى لا ينال إلا بالتمنى ، وقوله « فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِهِ أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّخْمِ » أى فلتمنىهم ذلك قريبا من أن يغبطوا بذلك الفرار ، أَشْلَاءَ : على وزن أشياء أى أعضاء شالت أى ارتفعت حال كونها مع العقبان (بكسر العين) جمع عقاب (١) ، وهو نوع من الطير ، ومع الرخم جمع رخمة ، وهى نوع من الطير أيضاً ، وإِنَّمَا خص هذين النوعين لعظم ارتفاعهما دون غيرهما ، والغبطة هى تمنى الشخص أن يحصل له مثل ما حصل لغيره ، فكأنهم يقولون يا ليت لنا مثل ما لأعضاء اللحم التى ارتفعت مع العقبان والرخم إلى منازلها . وَأَشْلَاءَ جمع شلو بكسر الشين وسكون اللام وهو العضو من اللحم ، وإِنَّمَا غبطوا الأعضاء دون العقبان والرخم التى ارتفعت بها لما بينهم وبين تلك الأعضاء من المشابهة لأنهم لا حركة لهم ولا قوة بسبب طعن القنا وغيره ، فحالتهم كحالة الأعضاء لا كحالة العقبان والرخم .

(١) قال فى القاموس : والعقاب - بضم العين - طائر جمعه أعقابٌ وعقبان - بكسر العين .

تَمْضَى اللَّيَالَى وَلَا يَدْرُونَ عَدَّتْهَا مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالَى الْأَشْهُرِ الْحَرُمِ (١٢٢)
كَأَنَّا الدِّينَ ضَيْفُ حَلِّ سَاحَتِهِمْ بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَا قَسِيمِ (١٢٣)

(١٢٢) قوله « تمضى الليالى » إلخ أى تمر عليهم الليالى بأيامها ، والحال أنهم لا يعلمون عددها من شدة ما دخل فى قلوبهم من الفزع ، وخامر بواطنهم من الهلع ، بسبب جهاد النبى ﷺ والمؤمنين لهم ، فيسكرون من الخوف ، وتذهب عقولهم ، وينعدم تمييزهم ، فلا يدرون عدة الأيام بلياليها ، وعلم بما تقرر أن الوار فى قوله « ولا يدرون عدتها » وأو الحال ، وقوله « ما لم تكن من ليالى الأشهر الحرم » أى ما لم تكن تلك الليالى من ليالى الأشهر الحرم التى هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، بخلاف ما إذا كانت تلك الليالى من ليالى الأشهر الحرم المذكورة ، فإنها تمضى عليهم ويدرون عدتها ، لكونهم يفتقون من سكرهم من الخوف وترجع إليهم عقولهم ، ويوجد لهم تمييزهم ، لإمسك النبى والمؤمنين عن جهادهم فى الأشهر الحرم فى صدر الإسلام عند من رأى أن منع قتالهم فيها نسخ ، وقال عطاء : لم ينسخ ، وهو ضعيف ، وما ذكرناه فى عدد الأشهر الحرم هو الصحيح ، وقيل : هى المحرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، وعلى الأول فهى من سنتين ، وعلى الثانى فهى من سنة ، ويترتب على الخلاف ما لو نذر صومها مرتبة فيصوم على الأول ذا القعدة أولاً إلى آخرها ، ويصوم على الثانى المحرم إلى آخرها .

(١٢٣) قوله « كأنما الدين » إلخ أى كأنما دين الإسلام ضيف حل ونزل ساحة الكفار ، فالضمير فى ساحتهم عائد على الكفار كما قال بعض الشارحين ، وهو قضية السياق ، أو ساحة الصحابة ، فالضمير فى ذلك راجع للمصحابة كما قاله بعض الشارحين ، وهو المسموع من المشايخ ، وقوله « بكل قرم » بفتح القاف ، وسكون الراء ، أى مع كل شجاع ، لأن هذا الضيف الذى وقع التشبيه به شجاع ، فلذا نزل مع شجعان أمثاله ، فالباء بمعنى « مع » ، والقرم بفتح فسكون : الشجاع ، وقوله إلى لحم العدا قرم ، بفتح القاف وكسر الراء : أى شديد الشهوة إلى لحم العدا للمسلمين ، فالقرم بفتح فكسر : شديد الشهوة ، والجار والمجرور متعلق به ، وحاصل المعنى على جعل الضمير فى ساحتهم عائداً على الكفار ، كأنما دين الإسلام ضيف حل ساحة الكفار ، مع كل شجاع شديد الشهوة إلى لحم العدا للمسلمين ، ومن شأن الضيوف إذا كانوا كراماً أن يشبعوا عند المضيف لهم مما يشتهون ، وفيه - على هذا - إقامة الظاهر مقام المضمر ، وإلا فكان مقتضى الظاهر أن يقول إلى لحمهم ، ونكتته =

يَجْرُ بِحَرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الْأَبْطَالِ مُلْتَظِمٍ (١٢٤)
مِنْ كُلِّ مُتَنَدِّبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكَفْرِ مُصْطَلِمٍ (١٢٥)

= التصريح بوصفهم بالعداوة للمسلمين ، وحاصل المعنى على جعل الضمير في ساحتهم راجعاً إلى الصحابة ، كأننا دين الإسلام ضيف ، حل ساحة الصحابة مع كل شجاع شديد الشهوة إلى لحم العدا للمسلمين ، ومن شأن المضيف أن يشيع ضيوفه مما يشتهون ، وعلى كل فالغرض من ذلك الإخبار بكثرة القتل في الكفار .

(١٢٤) قوله « يجر » إلخ أى يستتبع هذا القوم (بفتح القاف وسكون الراء) الذى هو الشجاع ، فالمراد بالجر هنا الاستتباع ، فيكون قد شبه الاستتباع بالجر ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، ثم اشتق منه يجر بمعنى يستتبع ، ويحتمل أنه شبه الخميس الذى هو كالبحر بدابة تجر برسن تشبيها مضمر فى النفس ، وحذف اسم المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه ، وهو الجر ، فهو تخيل للاستعارة بالكناية ، وقوله « بحر خميس » أى خميس كالبحر فى توجه وإهلاكه الكفار ، فهو من إضافة المشبه به للمشبه ، والخميس هو الجيش العظيم ، سمى بذلك لأنه مركب من خمس قوائم : مقدمة ، وميمنة ، وميسرة ، وساقة ، وقلب . وقوله « فوق سابحة » أى كائن فوق خيل سابحة ، أى مسرعة فى طلب الكفار كالسباح فى البحر ، وقوله « يرمى بموج » إلخ صفة للخميس ، والمراد بالموج ما يصل إلى الكفار من الطعن والقتل وغيرهما ، فيكون قد شبه ذلك بمعنى الموج ، واستعار اسم المشبه به للمشبه على طريق التصريح ، وقوله « من الأبطال » أى صادر ذلك الموج من الأبطال ، وإنما لم يقل منهم ، مع أن الأبطال نفس الجيش ، لإفادة أن ذلك الجيش كله أبطال ، والأبطال : جمع بطل ، وهو الشجاع ، وقوله « ملتطم » صفة لموج ، أى ملتطم بعضه ببعض .

(١٢٥) قوله « من كل منتدب » إلخ الجار والمجرور يدل من الجار والمجرور قبله ، أى من كل مجيب إلخ ، فالمنتدب - بكسر الدال - على أنه اسم فاعل ، وضبطه بعض الشروح بفتحها ، على أنه اسم مفعول بمعنى مدعو ، وعلى كل فقوله « لله » متعلق به ، وقوله « محتسب » أى مدخر ثواب عمله عند الله ، وقوله « يسطو » أى يصول ، وقوله « بمستأصل للكفر » أى بألة مستأصلة لأهل الكفر كالسيف وغيره من آلة القتال ، أى مزيل لهم من أصلهم ، يقال : استأصله إذا أزاله من أصله ، وقوله « مصطلم » أى مهلك لهم ، يقال : اصطلمه إذا أهلكه ، وفى الصحاح : الاصطلام : الاستئصال ، وعليه فهو توكيد .

حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةُ الرَّحِمِ (١٢٦)
مَكْفُولَةٌ أَبَدًا مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَبِي وَخَيْرِ بَعْلِ قَلَمٍ تَبَيَّنَتْ وَلَمْ تَتِمَّ (١٢٧)

(١٢٦) قوله « حتى غدت » إلخ أى وما زال هذا المنتدب يسطو بمستأصل لأهل الكفر إلى أن غدت إلخ ، فهو غاية لمحذوف ، وغدت بمعنى صارت ، وهو بالغين المعجمة ، وقوله « ملة الإسلام » أى ملة هى الإسلام ، فالإضافة فى ذلك من إضافة الأعم إلى الأخص ؛ لأن الملة تشمل سائر الأديان . وقوله « وهى بهم » أى وهى مصحوبة بالصحابة ، والجملة اعتراضية بين اسم « غدت » وهو « ملة الإسلام » وخبرها ، وهو « موصولة الرحم » . وقوله « من بعد غربتها » متعلق بغدت ، بمعنى صارت ، والمراد بغربتها عدم شهرتها لقلّة من ينتمى إليها ، وقوله موصولة الرحم بالنصب ، على أنه خبر لغدت كما علمت ، والمراد بكونها موصولة الرحم كثرة القيام بحقها بسبب كثرة من ينتمى إليها ، ويدخل فيها ، وقد شبه كثرة القيام بحقها بوصول الرحم ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، وأشار بذلك إلى حديث مسلم « بدأ الإسلام غربيا » (١) أى ظهر بين قوم لا يقومون بحقه ، فهو مقطوع الرحم ، ثم قامت الصحابة بحقه فصار موصول الرحم .

(١٢٧) قوله « مكفولة » إلخ أى محفوظة ، وهو خبر ثان لغدت ، وقوله « أبدا » ظرف لقوله مكفولة ، وقوله « منهم » أى من الكفار ، وقوله « بخير أب وخير بعل » هو النبى ﷺ ، فإنه أشفق على أمته من الأب على أولاده ، وأقوم بمصالحهم من =

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ، والترمذى وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ، وابن ماجه عن أنس ، والطبرانى عن سيدنا سلمان وسهل بن سعد وابن عباس .

وروى البيهقى فى شعب الإيمان عن شريح بن عبيد رسلاً : « إن الإسلام بدأ غربيا ، وسيعود غربيا ، فطوبى للغرباء ، ألا إنه لا غربة على مؤمن ، ما مات مؤمن فى أرض غربة غابت عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » ورواه ابن جرير ، وابن أبى الدنيا إلا أن فى روايتهما « ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ » ثم قال : إنهما لا يبكيان على كافر « وهو مروي عن أنس وجابر ، وسعد بن أبى وقاص ، وسهل بن سعد ، وسلمان وابن عباس وابن عمر وابن مسعود ، وعمر ، وعلى ، وعمر بن عوف ، وواثلة ، وأبى أمامة ~~بن عبد المطلب~~ ^{بن عبد المطلب} ، وأبى سعيد ، وأبى موسى وغيرهم ، فهو مشهور أو متواتر كذا من « كشف الخفاء » للعجلونى .

هُمُ الْجِبَالُ فَسَلَّ عَنْهُمْ مُصَادِمُهُمْ ماذا رأى مِنْهُمْ فى كُلِّ مُصْطَدِمٍ (١٢٨)

= البعل على زوجاته (١) ومثله ﷺ من يقوم مقامه من الخلفاء الراشدين والعلماء المهديين ، ولا شك أن المرأه التى كفلها خير أب وخير بعل (٢) فى غاية من المكانة ، ورفاهية من العيش ، وقوله « فلم تبتم » (بفتح التاءين وسكون المثناة التحتية بينهما) أى من جهة الأب ، وقوله « ولم تثم » بفتح التاء وكسر الهمزة أى من جهة البعل ، ففى ذلك لف ونشر مرتب ، يقال : يتم الولد بكسر التاء يبتم بفتحها إذا مات أبوه وهو صغير ، ويقال : آمت المرأة تئيم كباعت تبيع ، إذا خلت من زوجها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ (٣) .

(١٢٨) قوله « هم الجبال » إلخ هذه الجملة مستأنفة استثنافا بيانيا ، لأنها جواب عما يقال من الذين صارت بهم الملة إلى هذه الحالة ، والكلام على التشبيه ، أو هم كالجبال فى الصبر والصلابة ، وهذا يسميه البيانون تشبيها بليغا ، لا استعارة ، وقوله « فسل عنهم مصادمهم » أى إن ارتبت فى هذا ، فسل عنهم مَنْ صادمهم من أعدائهم ، ولعل مراده فسل عنهم مؤرخ أخبار مصادمهم على تقدير حياته ، وإلا فكيف يتصور سؤاله الآن ، وقد مات من مدة مئين من السنين حتى عاد رفاتا ؟ والمصادمة اصطكاك الصفين ، وقوله « ماذا رأى منهم » أى من الشدة التى لا توصف لعظمتها ، و « ما » اسم استفهام مبتدأ ، و « ذا » اسم موصول ، خبر رأى ، أى شىء الذى رأى ، ويصح أن تكون « ماذا » بتمامها اسم استفهام ، وعلى هذا فهو مفرد بخلافه على الأول فهو جملة ، وقوله « فى كل مصطدم » بفتح الدال ، أى فى كل مكان الاصطدام الذى هو اصطكاك الصفين ، كما مر ، والمراد بالمصطدم الأماكن التى التقوا فيها مع أعدائهم ، وبين مصادمهم ومصطدم تجنيس الاشتقاق ، وهو رد الصدور على الإعجاز .

(١) ولذلك قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى بالمؤمنين فى كتاب الله ، فأياكم ما ترك ديننا أو ضيعة فادعوني فأنا وليه ، وأياكم ما ترك مالا فليؤثر بهالة عصيته من كان » رواه مسلم .

ويشير بقوله « فى كتاب الله » إلى قوله تعالى ، فى سورة الأحزاب الآية ٦ ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ .

(٣) النور : ٣٢

(٢) هو رسول الله ﷺ .

وَسَلَّ حُتَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا فُصُولُ حَتَفٍ لَهُمْ أَذْهَى مِنَ الْوَحْمِ (١٢٩)

= ومن هنا إلى قوله « طارت قلوب العدا » إلخ خاصيتها أن من كتبها على باب بلد ، أو دار ، أو بستان ، ما دامت مكتوبة لا يصل إلى ذلك سارق ولا دود ولا غير ذلك ، قال قائل هذه الفائدة : قد جُرِّتْ في القمح والشعير وغيرهما ، وقال أيضا : كتبت هذه الأبيات على باب دار ، فجاء السارق فسمع صوتا في الدار ، فرجع ، ثم قال لأصحابه ذلك ، فأخبروه بأن صاحب البيت غائب جمعتين ، ثم رجع ثانی ليلة ، فسمع فيه صوتا يقول له ما غبت شيئا ، ومنعه الله ببركة هذه الأبيات (١١) .

(١٢٩) قوله « وسل حنينا » إلخ أى وسل زمن غزوة حنين ، وسل زمن غزوة بدر ، وسل زمن غزوة أحد ، ويحتمل أن يكون مراده : وسل أهل حنين وسل أهل بدر وسل أهل أحد ، أو وسل مؤرخ وقعة حنين ، وسل مؤرخ وقعة بدر ، وسل مؤرخ وقعة أحد ، والتفسير الأول أولى لأن قوله « فصول حتف » بدل من حنين ، وما عطف عليه بدل مجمل من مفصل ، وبعضهم جعله خبر مبتدأ محذوف ، أى هى فصول إلخ ، ومعنى قوله « فصول حتف لهم » أزمنة موت للكفار ، وقوله « أذهى من الوحم » أى أشد داهية عليهم لما يصيبهم فيها من الوحم الذى هو الوباء ، فإن ما يموت منهم فى زمن الرباء مع تطاوله لا يبلغ كثرة من يموت منهم فى زمن مقاتلة المؤمنين لهم مع قصره ، كالساعة الواحدة . وكانت غزوة حنين بعد فتح مكة سنة ثمان ، وهو اسم لواء بين مكة والطائف ، وفيه التقى رسول الله ﷺ والمسلمون مع المشركين ، فانهزم الكفار ، وقتل منهم كثير ، وسيبت أموالهم ونساؤهم ، وكانت غزوة بدر من غير قصد من المسلمين إليها فى يوم الجمعة سنة ثنتين ، و « بدر » اسم ماء على طريق مكة بينه وبين المدينة ثمانية وعشرون فرسخا ، وعنده كانت هذه الغزوة ، وقتل فيها من صناديد قريش سبعون ، وأسر منهم سبعون ، وكان عددهم نحو ألف ، والمسلمون نحو ثلاثمائة ، =

(١١) بشرط أن يكون القمح والشعير ، وغيره ، مزكى ، وإلا فلا ، وأن يكون المنزل والبستان من منازل أهل الله ، وكم رأينا منازل وبيوتا فيها القرآن وكتب الحديث ، وسرقت ، لأن أصحابها لم يتقوا الله فى كسبهم وطعامهم ، فالشرط الأساسى تقوى الله تعالى .

ولم يذكر الشيخ ذلك ، لأن الناس فى وقته كانوا يؤدون الزكاة ويحفظون منازلهم بالصدقة . والسر الذى بينهم وبين الله تعالى محفوظ فى قلوبهم ، ومن حفظ الله حفظه الله .

المصدرى البيض حمراً بعد ما وردت من العدا كل مسود من اللمم (١٣٠)
والكاتبين بسمر الخط ما تركت أقلامهم حرف جسيم غير منعجم (١٣١)

= وروى أنه نزل جبريل عليه السلام فى خمسائة ، وميكائيل فى خمسائة ، فى صورة الرجال على خيل بلق ، عليهم ثياب بيض ، وعلى رؤسهم عمام بيض ، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم ، ولم تقاتل الملائكة فى سوى يوم بدر ، وإنما يكونون عدداً ومدا ، وكانت غزوة أحد فى شوال سنة ثلاث ، وهو اسم لجبل بالمدينة كانت الوقعة فيه ، واستشهد فيها من المسلمين سبعون ، منهم حمزة ، وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً ، وكان المسلمون سبعمائة ، والمشركون ثلاثة آلاف ، والحرب سجال ، واحدة لنا ، واحدة علينا .

(١٣٠) قوله « المصدرى البيض » إلخ أى أمدح المصدرى البيض ، إلخ فهو مفعول لفعل محذوف وأصله : المصدرين ، لكن حذفت نونه للإضافة إن جعلنا المصدرى مضافاً للبيض ، أو للتخفيف إن جعلناه غيره مضاف ، والمصدرين جمع مصدر بضم الميم ، من أصدر عن الماء : رجع ، ويقال : أصدره غير أى أرجعه ، والمراد من البيض السيوف المصقولة ، فشبه السيوف المذكورة بإبل بيض ، أوردت ينبوعاً أسود يجرى بماء أحمر ، ثم أصدرت عنه حمراء من تلبسها بالماء الذى وردته ، تشبيهاً مضمرًا فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو الإصدار ، ففيه استعارة بالكناية وتخيل ، وقوله « حمرا » أى من الدماء التى خالطتها ، وهو حال من البيض ، وقوله « بعد ما وردت » أى بعد ورودها ، فما مصدرية ، وقوله « من العدا » حال من قوله « كل مسود » الواقع مفعولاً لقوله وردت ، وقوله « من اللمم » أى الشعر المجاور شحمة الأذن ، فاللمم بكسر اللام ، وجمع لمة ، وهى الشعر المذكور ، و « من » زائدة ، لأن المعنى على الإضافة ، والتقدير كل مسود اللمم ، فحاصل المعنى أمدح الصحابة الذين أصدروا أى أرجعوا السيوف البيض حال كونها حمراء من الدماء بعد ورودها كل شخص مسود اللمم ، حال كونه من العدا ، وفى ذلك دليل على شجاعة الصحابة رضى الله تعالى عنهم حيث لا يرضون إلا بقتل سود اللمم من العدا ، وهم الشبان فى الغالب .

(١٣١) قوله « والكاتبين بسمر الخط » إلخ عطف على قوله المصدرى البيض ، وأراد من الكاتبين الطاعنين ، فيكون قد شبه الطعن بالكتابة ، بجامع التأثير فى =

.....
 = كل ، واستعار الكتابة للطعن ، واشتق من الكتابة بمعنى الطعن الكاتبين بمعنى
 الطاعنين ، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، والمراد بسم الخط : الرماح
 الخطية فالسمر جمع أسمر ، وهو الرمح ، والخط شجرة تتخذ منه تلك الرماح (١)
 وقيل : موضع باليمامة تجلب إليه تلك الرماح من الهند ، وقوله « ما تركت أقلامهم
 حرف جسم غير منعجم » أى لم تترك أسنة رماحهم طرف جسم من أجسام الكفار غير
 مزال عجمته ، بل أزال عجمته ، أى خفاء بالطعن ، بأن طعنته ليعتبر الكفار من
 المؤمنين ، فإن الأمر مختلط فى الحروب ، فيتميز الكافر بطعنه ، والمؤمن بسلامته
 كما يتميز الحرف المعجم بنقطه ، والمهمل بخلوه عن النقط ، فالمراد بأقلامهم : أسنة
 رماحهم ، فيكون قد شبه أسنة رماحهم بالأقلام ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ،
 على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية ، والحرف بمعنى الطرف ، ومنه قوله تعالى :
 ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ (٢) أى على طرف وجانب من الدين ، وفى
 هذا البيت لطائف : منها تشبيه الصحابة بالكتابة ، وأسنة رماحهم بالأقلام ، وذلك
 دليل على غاية إحكامهم للطعن بها ، حتى أنها فى أيديهم كالأقلام فى أيدي الكتبة
 وليس عليهم كبير مشقة فى التصرف بها ، ومنها الإشارة إلى أنهم لا يطعنون طعنة
 إلا فى محلها ، كما لا تنقط الكتبة نقطة إلا فى محلها ، ومنها الإشارة إلى أنهم
 أعجموا حروف أجسام الكفار ، ليعتبروا من المسلمين ، ويوجد فى بعض النسخ بيت
 وهو :

إن قام فى جامع الهيبة خاطبهم تصاممت عنه أذنا صمة الصم

أى إن قام فى مجتمع الحرب خاطب الصحابة تغافلت عنه أذنا صمة الصم ، أى
 أشدّهم شجاعة ، قال العلامة ابن مرزوق : وهذا البيت لم يثبت فى روايتى ، وإنما هو
 فى بعض النسخ ، والظاهر أنه ليس من كلام الناظم ، ولذلك وقع الاضطراب فى
 تفسيره ، وهذا شأن كثير مما أدخل فيه ، وفى ذلك دلالة على خلوص نيته ، وصدق
 محبته رحمه الله تعالى ، ونفعنا ببركاته آمين .

(١) الرماح الخطية : نسبة إلى مرفأ للسفن فى البحرين تباع به الرماح . قال فى القاموس :
 « ومرفأ السفن بالبحرين ، وإليه نسبت الرماح لأنها تباع به ، لا إنه منبتها » .

(٢) الحج : ١١

شَاكِي السِّلَاحِ لَهُمْ سِيْمَا تُمَيِّزُهُمْ وَالْوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيْمَا عَنِ السَّلَمِ (١٣٢)
تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَّاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمْ فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ فِي الْأَكْمَامِ كُلِّ كَمِي (١٣٣)

(١٣٢) قوله « شاكي السلاح » إلخ أى حاديه كما عليه الجوهري ، وبعضهم فسره بتأنيده أى جامعين لأنواعه ، والمناسب لأخذه من الشوكة التى هى الحدة الأول ، وتركيب شاكي السلاح كتركيب المصدرى البيص ، فأصله شاكين السلاح ، لكن حذفت منه النون للإضافة أو للتخفيف ، وأصل شاكى : شارك فدخله القلب المكانى ، فصار شاكو ، ثم دخله القلب الذاتى ، فصار شاكى ، وقوله « لهم سيما تميزهم » أى لهم علامة تميزهم عن غيرهم ، قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ (١) قال بعضهم : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر ، وقوله « والورد يمتاز بالسيما عن السلم » أى والورد يتميز من السلم بالعلامة من طيب الرائحة وحسن الخلقة ، وبهاء المنظر ، فإن السلم ضد ذلك ، فالورد والسلم وإن اشتراكا فى أن كلا شجر مورق ذو شوك إلا أن بينهما فرقا ظاهرا لكل ذى بصر ، وكذلك الصحابة وغيرهم ، فإنيهما وإن اشتراكا فى أن كلا ذو سلاح ، إلا أن بينهما فرقا ظاهرا لكل ذى بصيرة ، فالصحابة يمتازون من غيرهم بشرف المنزلة وطيب الرائحة وبهاء المنظر وحسن الخلقة ، فإن غيرهم بضد ذلك ، فالمقصود من قوله « والورد » إلخ توضيح الفرق .

(١٣٣) قوله « تهدي إليك » أى ترسل إليك الريح التى حصل بها النصر خبرهم السار على وجه الهدية ، فتهدى بمعنى ترسل ، وهو يضم التاء من أهدى ، والمراد برياح النصر الريح التى حصل بها النصر ، فالإضافة لأدنى ملابس ، ويحتمل أن المراد بها بركات النصر ، وثمراته ، وقد يراد بالرياح الدولات ، كما فى قول الشاعر :

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُكَ فَاغْتَنِمَهَا فَعُقْبَى كُلِّ عَاصِفَةٍ سَكُونُ

والمراد بالنشر الخبر السار ، وإن كان فى الأصل الرائحة الطيبة ، وقوله « فتحسب الزهر فى الأكمام كل كمي » كان حق الكلام أن يقول : فتحسب كل كمي الزهر فى الأكمام ، لكن المصنف قد جعله من التشبيه المقلوب على حد قوله :

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبَتْ رُبَا . مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ (١٣٤)

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

والزهر ، نور (١) الشجر كما مر ، والأكام جمع كم : وهو غلاف النور ، والكمى : الشجاع فى سلاحه ، من كمى جسده بالسلاح إذا ستره به ، وأصله كمى بتشديد الياء حذفت منه الياء الساكنة وسكنت المتحركة للوقف ، وحاصل المعنى أنه لما فتحت الأزهار فى رياض ملة الإسلام برياح نصرهم ، كان كلما تهب هذه الرياح من تلك الأزهار ، وتنشر إلى الشام روائح نشرهم يظن كل بطل فى الدروع الغامرة زهرا فى الأكمام الفاخرة ، وإنما قيد بكونه فى الأكمام ، لأنه فى أكمامه أحسن منظرا ، وأطيب رائحة منه ، فى خارج الأكمام .

(١٣٤) قوله « كأنهم فى ظهور الخيل » إلخ أى كأن الصحابة حال كونهم على ظهور الخيل نبت ربا فى الاستقرار والثبوت ، حتى إنهم لو تحركوا عليها لم ينقلعوا من ظهور الخيل ، وإنما يتحركون للطعن والانتقاء مع ثبوت أصلهم ، كما يتحرك نبت الربا (٢) إذا حركته الرياح ، فالضمير للصحابة ، و « فى ظهور الخيل » حال ، و « فى » بمعنى « على » كما فى قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ ولأصلبكنم فى جلوع النخل ﴾ . والربا جمع ربوة بتشليلت الراء ، وهى ما ارتفع من الأرض ، ونبتها يكون أثبت من غيره لطول عروقه حتى يصل إلى الماء ، ويكون أحسن من غيره ، لأنه لا يستقر عليه الماء فيأخذ حظه من الشمس والرياح ، فتجده أخضر يعجب حسنه الناظرين وأما غيره فقد يستقر عليه الماء فيقتله ، أو يضعفه فيصفر لونه ، وتأمل قوله ﴿ كالحبة فى حميل السيل ﴾ (٣) وإنما لم يشبههم بالشجر ، لأن الكفار تشبهه فى عدم التحرك ، فإنهم لا يتحركون للطعن والانتقاء ، وأما النبت فالرياح تميله يمينا وشمالا ، وقوله « من شدة الحزم » بكسر الشين المعجمة وفتح الحاء المهملة وسكون الزاى ، أى وذلك ، أعنى استقرارهم وثبوتهم فى ظهور الخيل من قوة جودة رأيهم وتدبيرهم ، =

- (١) يفتح النون وسكون الواو .

(٢) الربا : بضم الراء المشددة جمع ربوة : ما ارتفع من الأرض .

(٣) طه : ٧١

(٤) حميل السيل : أى ما حمله السيل من القناء .

طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقًا ۖ فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبِهِمِ وَالْبُهُمِ (١٣٥)
وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ ۖ إِنَّ تَلْقَهُ الْأَسَدُ فِي آجَامِهَا تَجِمُ (١٣٦)

= وقوله « لا من شدة الحزم » بفتح الشين المعجمة وضم الحاء والزاي : أى لا من ربط الحزم التى يربط بها السرج أو غيره على ظهر الدابة ، وظاهر أن من فى الموضعين بمعنى لام التعليل .

(١٣٥) قوله « طارت قلوب العدا » إلخ أى اضطربت قلوب العدا ، إلخ فشبه الاضطراب بالطيران ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، واشتق من الطيران بعد استعارته للاضطراب « طارت » بمعنى اضطربت على طريق الاستعارة التصريحية التبعية . وقوله « من بأسهم » أى من شدتهم وقوتهم فى الحرب ، و « من » فى ذلك بمعنى لام التعليل ، وقوله « فرقا » بفتحات : أى فرعا ، وهو مفعول لأجله أى لأجل الفرق والفرع الذى حل بهم ، وقوله « فما تفرق بين البهم والبهم » أى فبسبب ذلك حصل لهم دهش حتى صارت قلوبهم لا تفرق بين البهم بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء جمع بهمة وهى السخلة ، فالبهم هى السخال ، وهى أولاد الضأن ، وبين البهم بضم الباء الموحدة وفتح الهاء جمع بهمة ، بضم الباء وسكون الهاء ، وهو الشجاع ، فالبهم هم الشجعان ^(١) ولا يخفى أن « تفرق » فى كلامه بضم التاء وتشديد الراء من فرق بالتشديد لا من فرق بالتخفيف .

(١٣٦) قوله « ومن تكن برسول الله » إلخ لما ذكر أنه حصل للمعدو الفرع الشديد من بأس الصحابة ، أشار إلى أن ذلك إنما هو بسر رسول الله ﷺ ، حيث قال : « ومن تكن برسول الله » إلخ أى ومن تكن نصرته برسول الله ، كالصحابة ومن هذا حذوهم إلخ ، ولا تكون النصرة برسول الله ﷺ إلا باتباع سنته ، وترك ما كان على خلاف شريعته ، وذلك هو تقوى الله ، والحامل عليها خوف الله ، ومن خاف الله خاف منه كل شيء ، حتى الأسد فى آجامها ، فمن حصلت له هذه المرتبة طارت قلوب العدا من بأسه ، وسلم من أعدائه ، وقوله « إن تلقه الأسد فى آجامها تجم » أى إن تلق الأسد التى هي جمع أسد ، وهو الحيوان المعروف ، من تكن نصرته برسول الله ﷺ حالة =

(١) فى القاموس : البهمة : - بضم الباء - الشجاع الذى لا يهتدى من أين يؤتى .

وَكُنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرٍ مُنْتَصِرٍ بِهِ وَلَا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرٍ مُنْقَصِمٍ (١٣٧)
أَحَلُّ أُمَّتِهِ فِي حَرْزِ مِلَّتِهِ كَاللَّيْثِ حَلٌّ مَعَ الْأَشْبَالِ فِي أَجَمٍ (١٣٨)

= كونها في آجامها التي هي جمع أجمة ، وهي الغابات ، أي المحلات التي تستتر فيها كالأشجار الملتفة ، نجم : بكسر الجيم بمعنى تسكت من هيئته ، فلا يسمع لها صوت خوفا من أن يكون صوتها دالا عليها ، فيأتيها المنتصر برسول الله ﷺ ، فيقبض عليها ، وإنما قيد الأسد بكونها في آجامها لأنها فيها أجراً منها في غيرها ، فإنه لا يقدر أحد على أن يدخل عليها فيها ، ولو انتزعت منه أعز ما يكون عليه ، لكن إن لقيت المنتصر برسول الله ﷺ انعكس الحال ، هذا ، ويحتمل أن المراد بالأسد الشجعان ، وبالأجام الحصون ، ويناسب حمل الأسد على حقيقتها قصة سفينة مولى رسول الله ﷺ مع الأسد ، وهي أنه خرج عليه سبع بالصحراء فقال : « أقسمت عليك برسول الله أن تسكت » فسكت .

وهذا البيت واللذان بعده خاصيتهما أن من كان خائفا في بحر أو بر وكتبها بريقه في كفه وأراها للسباع ، فإنها تذهب عنه بإذن الله تعالى .

(١٣٧) قوله « ولن ترى من ولي » إلخ : ترى بصرية على ما يقتضيه كلام بعض الشارحين ، ويحتمل أنها علمية ، و « من » زائدة في المفعول ، والمراد بالولي من آمن به ﷺ ، وكان على هديه وطريقته ، والعدو ضده ، وقوله « به » أي برسول الله ، فإن قيل ما فائدة قوله « ولا من عدو » إلخ بعد قوله « ولن ترى من ولي » إلخ مع أنه إذا أخبر بأن الولي منتصر علم منه أن العدو منقصر ، لأن من المعلوم أن أحد المتقابلين إذا انتصر كان مقابله بضد ذلك ، وبضدها تتميز الأشياء ؟! أجيب بأن لا نسلم أنه إذا أخبر بأن الولي منتصر علم منه أن العدو منقصر ، وإنما يعلم منه أنه غير منتصر ، وذلك أهم من كونه منقصا ، لجواز أن ينهزم مع سلامته ، والأعم لا إشعار له بالأخص ، وعلى تسليم علم ذلك منه ، فعلمه منه باللزوم ، والمناسب لمقام المدح التصريح ، والمنقصم : بالقاف وفي بعض النسخ بالفاء ، والأوّل أولى ، لأن الفصم بالفاء القطع من غير إبانة ، والقصم بالقاف القطع مع الإبانة ، كما تقدم .

(١٣٨) قوله « أحل أمته » إلخ هذا البيت كالتعليل للبيت قبله ، فكانه قال : لأنه أحل أمته إلخ . وقوله « في حرز ملته » : أي في ملته الشبيهة بالحرز ، فالإضافة في ذلك من إضافة المشبه به للمشبه كما في قول الشاعر :

كَمْ جَدَلْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ مِنْ جَدَلٍ فِيهِ وَكَمْ خَصَمَ الْبِرْهَانُ مِنْ خَصَمٍ (١٣٩)

= والريح تعيث بالغصون وقد جرى ذهبُ الأصيل على لجَيْنِ الماءِ
وإنما كانت ملته ﷺ شبيهة بالحرز ، لأنها تحفظ من اتبعها من نار الكفر ، فهي
كأعظم الحصون المنيعة التي لا يدخلها إلا من هو من أهلها ، وقوله « كالليث حل مع
الأشبال في أجْم » أي فالتبى ﷺ حل مع أمته في ملته كالليث حل مع أشباله في
الأجْم ، فكما أنه لا يستطيع أحد الدخول على الليث مع أشباله في الأجْم ، لا يستطيع
أحد الدخول على رسول الله ﷺ مع أمته في ملته ، والليث هو الأسد والأشبال هي
أولاده ، والأجْم جمع أجمة ، وهي الغابة أي الشجر الملتف ، لا يقال : ما أفاده قوله كالليث
إلخ من أن الليث في هذه الحالة يخاف منه غيره يخالفه ما أفاده قوله سابقا « إن تلقه
الأسد في آجامها تجم » ؛ لأننا نقول : الأسد إنما تجم في آجامها من المنتصر برسول الله
ﷺ ، كما استفيد مما تقدم ، وهذا لا ينافي أن غيره يخاف منها كما استفيد مما هنا .
(١٣٩) قوله « كم جدلت كلمات الله » إلخ لما كانت النصرة تارة تكون بالسيف
وتارة تكون بالحجج ، وقد تقدم الكلام على الحالة الأولى ، أخذ يتكلم على الحالة
الثانية ، فقال « كم جدلت كلمات الله » إلخ ، وكَم خبرية في الموضعين ، بمعنى كثيراً ،
والمجرور تمييز لها ، وجدلت بتشديد الدال ، ويجوز تخفيفها ، أي قطعت وأزالت
جداله ، وكلمات الله هي القرآن ، والجدل بكسر الدال اسم فاعل من جدل جدلاً ، أي
أحكم الخصومة إحكاماً ، وقوله « فيه » أي في أمره ﷺ ، وقوله « وكَم خصم
البرهان من خصم » أي وكثيراً خصم البرهان ، الذي هو الدليل القاطع من خصم ،
بكسر الصاد ، وهو شديد الخصومة ، وفيه الحذف من الأواخر ، لدلالة الأوائل ،
والتقدير : من خصم فيه ، أي في أمره ﷺ ، وحاصل معنى البيت : كثيراً ما أزال
القرآن جدال المجادل في أمره ﷺ ، وكثيراً ما أزال الدليل القاطع خصومة شديد
الخصومة ، في أمره ﷺ ، والأول إشارة إلى ما وقع في القرآن من جواب المعاندين
السائلين له ﷺ ، ومن ذلك ما نقل من أن اليهود قالوا لقریش سلوه عن الروح ، وعن
أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، فإن أجاب عن الكل أو سكت عن الكل ، =

(١) واسم مهرا بكسر الميم ، وإنما سماه رسول الله ﷺ سفينة لأنه كان يحمل الكثير من
المتاع في السفر ، فراء رسول الله ﷺ فسماه سفينة .

كفّاك بالعلم في الأميِّ مُعْجِزَةً في الجاهليّة والتأديب في اليُثم (١٤٠)

= فليس بنبي ، وإن أجاب عن البعض ، وسكت عن البعض ، فهو نبي « فنزلت قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، ونزل ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ (*) فأحال علمها إلى ربه . والثاني إشارة إلى ما وقع منه ﷺ من الآيات ، حين سأله آية على رسالته ، كانشقاق القمر وغيره ، ولا يخفى أن عطف الثاني على الأوّل من عطف العام على الخاص .

وهذا البيت والذي بعده خاصيتهما أن من كتبهما في ورقة بيضاء لصغير ، وجعلها في قسبة وربطها في خيط حرير وعلقها عليه ، فإنه لا يصيبه شيطان ولا مرض ، ولا غير ذلك .

(١٤٠) قوله « كفّاك بالعلم » إلخ لما ذكر أنه كثيراً ما خصم البرهان من خصم ، عقّب ذلك بذكر برهائين ، حيث قال : كفّاك بالعلم إلخ ، أي كفّاك العلم ، فالباء زائدة في الفاعل ، لأن زيادتها في فاعل كفى كثيرة ، وقوله « في الأمي » أي في النبي الأمي ، وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب ، نسبة للأم ، كأنه على الهيئة التي نزل عليها من أمه ، وهذا وصف مدح بالنسبة له ﷺ ، لأنه دليل على أن القرآن من عند الله ، وأما بالنسبة لغيره ﷺ فهو وصف ذم ، والجار والمجرور حال من العلم أو صفة له ، وقوله « معجزة » أي من جهة المعجزة ، فهو تمييز للنسبة في « كفى » . وقوله « في الجاهلية » أي الزمن الذي لا علم فيه ، والجار والمجرور مثل الجار والمجرور قبله ، وإنما قيد بقوله « في الأمي » وقوله « في الجاهلية » لأن كلا من كونه أمياً وكونه في الجاهلية مظنة لعدم العلم ، لأنه لا يكون إلا بمطالعة الكتب العلمية ، وهو لا يقرأ ولا يكتب ، أو بملاقاة العلماء ، وهو منتف في الجاهلية ، فتعين أن علمه ﷺ ليس إلا بتعليم من الله تعالى ، وقوله « والتأديب في اليتيم » أي وكفّاك بالتأديب في اليتيم معجزة فهو معطوف على قوله بالعلم ، لكن المراد بالمعجزة مطلق الأمر الخارق للعادة وإن لم يكن مقروناً بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة ، فاندفع ما يقال أن كونه ﷺ مؤدباً في حال يتيمة لا يعدّ معجزة ، لأن المعجزة هي الأمر الخارق للعادة ، المقرون بالتحدي ، وهو ﷺ في حال يتيمة لم يتحدّ ، لأن التحدي لا يكون إلا بعد الأربعين ، والمراد من التأديب : التأدب ، أو أنه مصدر المبنى للمفعول ، فهو بمعنى كونه مؤدباً =

خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقْبِلُ بِهِ ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشَّعْرِ وَالْخَدَمِ (١٤١)
إِذْ قُلْدَانِي مَا تُخْشَى عَوَاقِبُهُ كَأَنِّي بِهِمَا هَدَى مِنَ النِّعَمِ (١٤٢)

= ليكون وصفا للنبي ﷺ ، وإنما قيد بقوله « في اليتيم » بضميتين كما هو لغة في اليتيم بضم فسكون ، لأن شأن اليتيم ، وهو الصغير الذي لا أب له أن لا يكون فيه من الأدب ما يكون في غيره ، فإن الأب غالبا يهتم بتأديب ابنه ، ويسعى في تكميله باكتساب الصفات الحميدة ، بخلاف غير الأب ، وهو ﷺ قد مات عنه أبوه قبل ولادته ، وقيل بعدها ، وترى عليه الصلاة والسلام في كفالة عمه أبي طالب ، وكان ﷺ مؤدبا بأحسن الأخلاق ، على خلاف العادة في اليتيم ، وقد قال ﷺ « إن الله أودبني فأحسن تأديبي » (١) وبالجمل ، فقد بلغ ﷺ من العلوم ما لا يبلغه من تصدق لها ، ومن الأدب ما لا يناله من له مؤدب ، فدل ذلك على أنه رسول الله حقا .

(١٤١) قوله « خدمته بمدح » إلخ أي خدمته ﷺ بما تقدم من المدح ، أطلب من الله أن يقللني بسبب هذا المدح ذنوب عمر مضى في الشعر ، مدحا لأبناء الدنيا ، و « الخدم » بكسر الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة جمع خدمة ، فالمراد بالمدح ما تقدم من المدح ، والسين والتاء للطلب ، كما تقدمت الإشارة إليه ، وجملته قوله « مضى » إلخ صفة لعمر ، وقد ذكر بعضهم أن الناظم كان في مبدأ أمره كاتب إنشاء عند بعض السلاطين ، وقيل : إنه كان وزيرا ، وهذا وإن كان مباحا ، إلا أنه قد يحويج إلى المحرم ، كما يؤخذ من البيت بعده .

ومن هنا إلى آخر قوله « ولم أرد زهرة الدنيا » خاصيتها للملحوس ، تكتب بماء المطر والورد ، وتحشى ويشربها ، فإنها تزول سريعا بإذن الله تعالى .

(١٤٢) قوله « إذ قلداني » إلخ أي لأنهما قلداني ، إلخ ، فهذا البيت تعليل للبيت قبله ، والضمير الفاعل في قلداني للشعر والخدم ، وقوله « ما تخشى عواقبه » أي آثاما تخشى عواقبها ، من أنواع العذاب ، إن لم يغفرها الله تعالى ، فـ « ما » واقعة على الآثام ، والمراد بعواقبها أنواع العذاب ، وقوله « كأنني بهما هدى من النعم » أي كأنني بسبب الشعر والخدم هدى من النعم ، التي هي الإبل والبقر =

(١) رواه العسكري ، وأبو الفضل بن ناصر وصححه ، ورواه ابن عساكر والسمعاني في « أدب الإماماء » .

أَطَعْتُ غَىَّ الصَّبَا فِي الْحَالَتَيْنِ وَمَا حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الْآثَامِ وَالنَّدَمِ (١٤٣)
فِيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ فِي تِجَارَتِهَا لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسْمُ (١٤٤)
وَمَنْ يَبِيعُ أَجْلاً مِنْهُ بِعَاجِلِهِ يَبِينُ لَهُ الْغَبْنُ فِي بَيْعٍ وَفِي سَكَمِ (١٤٥)

= والغنى ، ومن شأن الهدى أن يقلد بجعل شيء في عنقه ، من نعل ونحوه ، ليعلم أنه هدى . وحاصل المعنى ، أن الشعر والخدم جعلوا الآثام التي تخشى عواقبها من أنواع العذاب قلادة في عنقي ، فصرت بسببهما أشبه الهدى من النعم ، فكما لا يخفى حال الهدى على من رآه بما جعل في عنقه من نعل ونحوه ، كذلك لا يخفى حالى على من رآنى ، وعرف حالى بما اكتسبته من الآثام ، التي تخشى عواقبها بسبب الشعر والخدم .

(١٤٣) قوله « أطعت غى الصبا » إلخ بين بهذا البيت سبب كون الشعر والخدم قلده الآثام التي تخشى عواقبها ، وذلك لسبب هو إطاعة غى الصبا ، والغى ضد الهدى ، وأضيف للصبا لأنه يدعو إليه ، فإنه زمن الجهل والبطالة ، وقوله « فى الحالتين » أى حالتى الشعر والخدم ، وقوله « وما حصلت إلا على الآثام والندم » أى وما حصلت منهما إلا على الآثام التي صدرت منى ، وعلى الندم على تلك الآثام .

(١٤٤) قوله « فىا خسارة نفس » إلخ هذا البيت تحقيق للندم ، وتبكيك للنفس ، لأن فيه نداء عليها بالخسارة فى تجارتها ، فكأنه قال : يا خسارة نفس موصوفة بما ذكر ، احضرى ، فهذا أوانك . وهذا كناية عن استعظام خسارة هذه النفس ، والتعجب منها ، فإن عادة العرب إذا استعظموا شيئا وتعجبوا منه نادوه ليحضر ، وقوله « فى تجارتها » متعلق بخسارتها ، وقوله « لم تشتري الدين بالدنيا » أى لم تأخذ الدين بدل الدنيا ، بل عدلت عن العظيم الباقي إلى الخسيس الفانى ، وقوله « ولم تسم » بفتح المثناة الفوقية ، وضم السين المهملة ، أى ولم تتعرض لأخذ الدين بدل الدنيا ، بل أخذت الدنيا وتركت الدين الذى تنجو به فى الآخرة ، وكأن الناظم عنى نفسه فنادى عليها بالخسارة ، حيث اتبعت الشعر والخدم لأبناء الدنيا ، ولو صحبها التوفيق لتركت ذلك ، واشتغلت بالدين ، لكن التوفيق بيد الله يعطيه من يشاء .

(١٤٥) قوله « ومن يبيع أجلاً منه » إلخ هذا البيت تتميم لتحقيق الندم ، وتبكيك النفس ، لأن فيه توعدا بالغبن حيث بين فيه أن من يبيع الأجل بالعاجل يظفر به الشين ، =

إِنْ آتَ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِصٍ مِنَ النَّبِيِّ وَلَا حَبْلِي بِمُنْصَرَمٍ (١٤٦)

= والمراد بالآجل الثواب الذى يكون فى الآخرة المحققة الباقية ، وبالعاجل الذى يأخذه من الدنيا الذاهية الفانية ، وهذا على ما فى كثير من النسخ مما نصه « ومن يبيع عاجلا منه بعاجله » وفى بعضها : « ومن يبيع عاجلا منه بأجله » ، وعليه فالمراد بالعاجل الثواب الذى يكون فى الآخرة المحققة الباقية ، وبالآجل الشيء الذى يأخذه من الدنيا الفانية الذاهية ، وعلى هذا المثل المشهور « بُرّة عاجلة خير من درة آجلة » (١) ولما كان الثواب المذكور محققاً ولا بد ، أطلق عليه عاجل ، لأنه كان حاصل بالفعل ، ولما كان الشيء الذى يأخذه من الدنيا غير محقق أطلق عليه آجل ، والظاهر أن الضمير فى « منه » راجع للدين فى البيت قبله ، كذا قال بعض الشارحين ، والأظهر أنه راجع لـ « من يبيع » ، كالضمير فى عاجله ، وقوله « بين له الغبن » أى يظهر له الخداع ، وقوله « فى بيع وفى سلم » كل منهما متعلق بالغبن ، والعطف فى ذلك من قبيل عطف التفسير ، لأن البيع المذكور فى كلام المصنف ، يسمى سلماً ، فاندفع ما يقال : الذى تقدّم فى كلام الناظم هو صورة السلم ، وأن صورة البيع غير بيع السلم ، وبعض الشارحين طرق احتمال أن يكون فى كلام الناظم حذف ، والتقدير ومن يبيع عاجلاً من متاع الآخرة بعاجله من متاع الدنيا ، أو يشتري عاجلاً من متاع الدنيا بأجله من متاع الآخرة ، فقوله « فى بيع » راجع للصورة الأولى ، وقوله « وفى سلم » (٢) راجع للصورة الثانية ، وفيه تكلف .

(١٤٦) قوله « ان آت ذنبا » إلخ هذا البيت تأنيس للنفس وترجّ لها فى رحمة الله تعالى ، و « آت » أصله أأت ، بهمزتين ، قلبت الثانية ألفاً ، فصارت آت ، بالمد ، وهو مجزوم بأن الشرطية ، وعلامة جزمه حذف الباء ، وقوله « فما عهدى بمنقضى من النبى » أى فما إيمانى بمنقطع عن النبى ، لأنّ الذنب لا ينقض الإيمان ، فالمراد بالعهد الإيمان ، فتكون الإضافة فى قوله « عهدى » للعهد ، والمعهود هو الإيمان ، وقوله « ولا حبلى بمنصرم » أى ولا وصلى بمنقطع من النبى ﷺ ، فالحبل مستعار للوصل ، وفى البيت الحذف من الثانى لدلالة الأوّل ، كما فى نظائره ، والتقدير : ولا حبلى بمنصرم من النبى .

(١) برة : بضم الباء من برة ، وهى الواحدة من القمح خير من « درة » بضم الدال وتشديد الراء المشددة المفتوحة وهى الجوهرة النادرة .

(٢) السلم : السلف ، والمعنى : يظهر له الغبن فى حالة البيع ؛ وفى السلف أيضاً .

فَإِنْ لِي ذِمَّةٌ مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي محمداً وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذِّمِّ (١٤٧)
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي أَخِذًا بِيَدِي فضلاً ، وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ (١٤٨)

(١٤٧) قوله « فَإِنْ لِي ذِمَّةٌ » إلخ هذا البيت تعليل للبيت قبله ، ووجه ذلك أن اختياره التسمية باسمه ﷺ دليل على محبته فيه ، فإنه لا يتسمى بالاسم إلا من أحب مسماه ، وأما من يكرهه فلا يتسمى به ، وقوله « وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذِّمِّ » أى وهو ﷺ أشدهم وفاء بها ، فيقوم بحقها بأن يشفع لأهلها لعظم جاهه وعلو مكانته عند ربه . وفى كلام المصنف ترغيب فى التسمية باسمه ﷺ ، وقد جاء فى ذلك أحاديث : فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يوقف عبدان بين يدي الله تعالى فيأمر بهما إلى الجنة ، فيقولان : ربنا بم استأهلنا الجنة ولم نعمل عملاً يحازينا الجنة ؟ فيقول الله عز وجل : عبدائ ادخلا الجنة ، فأنى آليت على نفسى أن لا يدخل النار من اسمه أحمد أو محمد » وعن جعفر بن محمد « إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ إلا ليقيم من اسمه محمد ، فيدخل الجنة كرامة لاسمه ﷺ » وفى لفظ آخر « ينادى يوم القيامة : يا محمد فيرفع رأسه من فى الموقف ، فيقول الله عز وجل أشهدكم إنى غفرت لكل من اسمه على اسم محمد » وعن أبى أمامة : « من وكّد له مولود فسماه محمداً تبركا ، كان هو ومولوده فى الجنة » رواه صاحب الفردوس (١) . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المنزل مرتين » . وبالجملّة فالتسمية باسمه ﷺ أمر مندوب إليه نسال الله تعالى أن ينظّمنا فى سلك محبته بمنه وفضله ورحمته .

(١٤٨) قوله « إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي » إلخ أى إن لم يكن ﷺ فى يوم عودى إلى الله تعالى آخذاً بيدي ، بأن يشفع لى ، حال كون ذلك فضلاً منه ، لا لسابقة منى تقتضى ذلك ، فقل يا زلة القدم ، وهو كناية عن سوء الحال والوقوع فى الشدة ، و«إلا» أى وإلا لم يكن فى ذلك اليوم آخذاً بيدي ، بأن كان آخذاً بيدي ، فقل يا ثبات القدم ، وهو كناية عن حسن الحال وحصول النعمة ، فقوله خطاباً لمن جرده من نفسه « فقل يا زلة القدم » جواب الشرط الأوّل ، وهو قوله « إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخذاً بيدي » وجواب الشرط الثانى ، وهو قوله « وَإِلَّا » ، فإن أصله إن الشرطية المدغمة فى =

(١) الحافظ الديلمى رحمه الله ورضى عنه .

حاشاهُ أن يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ أَوْ يُرْجِعَ الْجَارَ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمٍ (١٤٩)

= لا النافية محذوف لدلالة المقام والسياق عليه ، والتقدير : وإلا فقل يا ثبات القدم ، أى وإن انتفى لم يكن آخذاً بيدي ، بأن كان آخذاً بيدي ، فقل يا ثبات قدمي ، وبهذا يندفع استشكال هذا البيت ، بأن الظاهر منه أن قوله فقل « يا زلة القدم » جواب الشرط الثانى ، فيصير المعنى : وإن انتفى لم يكن آخذاً بيدي ، فقل يا زلة القدم ، وهذا فاسد لا شك فى بطلانه ، وهذا كله على ما فى النسخ من قوله « إن لم يكن فى معادى » إلخ ، وقيل : الرواية « فإن لم يكن فى معادى » إلخ وعليه فلا إشكال ، لأن جواب الشرط الأوّل محذوف للعلم به من المقام والسياق ، وجواب الشرط الثانى مذكور بقوله ، « فقل : يا زلة القدم » . وتقدير البيت على هذا : فإن يكن ﷺ فى يوم عودى إلى الله تعالى آخذاً بيدي ، بأن يشفع لى حال كون ذلك فضلاً منه ، لا لسابقة منى تقتضى ذلك ، فقل : يا ثبات القدم ، وإلا ، أى وإن لم يكن كذلك فقل يا زلة القدم ، وهذا ظاهر لا إشكال فيه .

(١٤٩) قوله « حاشاهُ أن يَحْرِمَ » إلخ هذا البيت لزيادة تسكين النفس من خوفها ، وتقوية تطمينها من قلقها ، وحاشا هنا اسم بمعنى المحاشاة ، وهى التنزيه ، فهو واقع موقع المصدر ، فيكون منصوباً بفعل مضمر ، والتقدير أحاشيه حاشاه ، أى انزهه تنزيهه ، والضمير المتصل به فى محل جر بإضافته إليه ، وأما حاشا المستعمل فى الاستثناء ، فتارة يستعمل فعلاً ، وتارة يستعمل حرفاً ، كما هو مشهور ، وقوله « أن يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ » أى من أن يَحْرِمَ النَّبِيَّ ﷺ الرَّاجِي مِنْهُ مَكَارِمَهُ ، فهو على تقدير « من » والفاعل ضمير يعود على النَّبِيِّ ﷺ ، والراجى مفعول ، وسكنت ياؤه على لغة ، والمكارم : جمع مكرمة ، والمراد منها الشفاعة ، ويجوز ضم ياء يَحْرِمَ على أنه مضارع حرم ، وفتحها على أنه مضارع حرم ، فإنه يقال أحرمه يحرمه بضم الياء وحرمه يحرمه بفتحها ، ويصح بناء الفعل للفاعل ، وقد قدّمنا الحل عليه ، ويصح أيضاً بناؤه للمفعول ، وعليه فالراجى نائب فاعل ، وتسكين يائه حينئذ ظاهر ، وقوله « أَوْ يُرْجِعَ الْجَارَ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمٍ » الظاهر أن « أَوْ » بمعنى الواو ، فالمعنى : وحاشاهُ من أن يرجع الجار منه أى المستجير به الداخِل فى جواره ، حال كونه غير محترم ، بل يرجع محترماً بشفاعته ﷺ ، فالجار بمعنى المستجير ، و« منه » بمعنى به ، « وغير محترم » حال من الجار . جعلنا الله من أهل شفاعته أجمعين .

وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ وَجَدْتُهُ لِحَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمٍ (١٥٠)
وَلَنْ يَفُوتَ الْغِنَى مِنْهُ يَدَا تَرِبَتْ إِنَّ الْحَيَا يُنْبِتُ الْأَزْهَارَ فِي الْأَكْمِ (١٥١)

(١٥٠) قوله « ومنذ ألتزمت أفكارى » إلخ هذا البيت استدلال على قوة رجائه ، وأنه لا يخيب فى ظنه ، فكأنه قال : إنما قوى رجائى ، وأنى لا أخيب فى ظنى ، لأننى منذ ألتزمت أفكارى إلخ ، و « منذ » ظرف زمان ، وهو ظرف لـ « وجدته » ، وأفكارى مفعول أول لألتزمت ، ومدائحه مفعوله الثانى ، والضمير العائد على النبى ﷺ مفعول أول لوجدت ، وخير ملتزم بكسر الزاى مفعول الثانى ، وبه يتعلق الجار والمجرور قبله . وتقدير البيت : وجدت النبى ﷺ فى الزمن الذى ألتزمت فيه أفكارى مدائحه خير ملتزم لخلاصى من جميع الشدائد التى تصيبنى . والأفكار : جمع فكر ، وهو حركة النفس فى المعقولات ، والمدائح : جمع مديح ، وهو الثناء الحسن ، وإنما كان ﷺ خير ملتزم لخلاصه من الشدائد ، لأنه وفى بخلاصه منها على أحسن الوجوه وأتمها ، وأشار المصنف بذلك إلى الداء الذى كان أصابه ، وهو داء الفالج والعياذ بالله تعالى منه ، وكان هو السبب فى إنشاء هذه القصيدة ، فإنه لما أصيب به عملها فرأى النبى ﷺ فى النوم ، ومسح ببده الكرىة عليه فعوفى ، فلما استيقظ قال له بعض أصحابه الصالحين أسمعنى القصيدة التى مدحت بها النبى ﷺ ، فلقد سمعتها بين يديه ﷺ . وهو يتمايل مثل القضيبي .

(١٥١) قوله « ولن يفوت » إلخ هذه الجملة مستأنفة ، والغنى بالكسر مع القصر اليسار ، ومع المد : تطريب الصوت مع سرور ، وبالفتح مع القصر : الإقامة ، ومع المد : الكفاية ، والضمير فى منه عائد على النبى ﷺ ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف إما صفة للغنى ، أو حال ، فالأول إن قدر معرفة ، والثانى إن قدر نكرة ، و « من » للابتداء ، وقوله « يدا » مفعول ، وجملة قوله « تربت » صفة ليدا ، وتربت بكسر الراء : أى التصقت بالتراب ، لكونها مفتقرة افتقارا حسيا ، بأن ضيعت ما كان فيها من الأموال ، أو معنويا بأن ضيعت ما كان لها من الثواب ، لاقترافها المعاصى ، وإنما لم يفت الغنى منه ﷺ اليد المذكورة لعموم الغنى منه ﷺ لجميع الأيدى التى تكون كذلك ومنها يد الناظم وقد استدلل على ذلك بقوله « إن الحيا ينبت الأزهار فى الأكْم » ، ووجه الاستدلال بذلك أنه كما يشاهد محسوساً أن الحيا بالقصر ، الذى هو المطر ، ينبت الأزهار جمع زهر فى الأكْم بضميتين جمع أكمة كقصب جمع قصبة ، والأكمة هى الربوة ، أى المحل المرتفع من الأرض ، مع كونها ليست مظنة =

ولم أردُ زهرة الدنيا التى اقتطفتُ يدا زهيرٍ بما أثنى على هَرمٍ (١٢)

= النبات لعدم استقرار الماء عليها لعلوها ، كذلك ينبل الغنى من ليس مظنة الغنى ، وهو اليد التى تربت ، وإنما أنبت الحيا الأزهار فى الأكُم مع أنها مظنة عدم النبات ، بسبب عدم استقرار الماء عليها ، وسرعة انحداره عنها لعمومه ، حتى للأكُم ، والتشبيه المذكور إنما هو على سبيل التقريب وإلا فهو عليه الصلاة والسلام لا يحيط بحقيقة كماله إلا الله تعالى .

(١٥٢) (قوله ولم أرد زهرة الدنيا إلخ) لما كان قوله « ولن يفوت الغنى » إلخ يوهم التعريض بطلب شيء من حطام الدنيا ، دفع هذا التوهم بقوله « ولم أرد زهرة » إلخ أى وإنما أردت الغنى منه فى الآخرة بالشفاعة فى المذنبين ، والمراد بزهرة الدنيا مستلزاتها من المال وغيره ، وإنما عبر عنها بالزهرة تشبيها لها بالزهر الذى لا يدوم التمتع به ، بل يتغير سريعا ، فيكون فى ذلك استعارة تصريحية ، والتعبير بالاقتطاف ترشيح لها ، وهو إما باق على حقيقته أو مستعار للأخذ . وقوله « يدا زهير » فاعل باقتطفت ، والمراد بزهير الشاعر المشهور وهو ابن أبى سلمى ، بضم السين أبو كعب صاحب « بانت سعاد » القصيدة المشهورة ، وله أخت تسمى الخنساء ، كانت شاعرة مشهورة ، وكان الشعر فيهم وراثه ، ولذلك كان زهير من الشعراء المقدمين على سائر الشعراء فى الجاهلية كامرئ القيس ، والنابغة الذبياني ، وعنترة ، وطرفة بن العبد ، وقد روى أن النبي ﷺ نظر إلى زهير وعمره مائة سنة ، فقال ﷺ « اللهم أعذنى من شيطانه » فما لأك بعدها بيتاً حتى مات ، وقوله « بما أثنى على هَرم » أى بالمدح الذى أثنى به على هَرم ، بكسر الراء وهو أحد أجواد العرب وكان أحد ملوكهم ، وهو ابن سنان بن حيان (بالحاء المهملة وبعدها مثناة تحتية) وكان يصل زهير بالصلاة الجزيلة الخارجة عن العادة ، ومن جملة ما اتفق له معه أنه حلف أنه كلما مدحه أعطاه غرة عبداً أو أمة ^(١) أو قيمتها ، وأنه كلما سلم عليه يعطيه كذلك ، حتى إنه من =

(١) الغرة بضم الغين : العبد والأمة ، كذا فى القاموس .

يا أَكْرَمَ الرُّسُلِ ما لِي مِنْ أَلُوذٍ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ (١٥٣)
وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللَّهِ جَاهُكَ بِي إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمِ (١٥٤)

= كثرة عطائه له استحيا منه ، فكان إذا رآه فى قوم قال أنعموا صباحاً غير هرم ، فكل هذا لم يُرده الناظر إجلالاً لمدحه ﷺ عن ذلك ، إذ لا يتوسل بالعظيم إلا لنيل عظيم .

(١٥٣) (قوله يا أكرم الرسل إلخ) لما مدح النبى ﷺ على سبيل الإخبار عن الغائب أقبل بالخطاب عليه ﷺ فقال « يا أكرم الرسل » وفى بعض النسخ « يا أكرم الخلق » ولكونه ﷺ أكرم الرسل وأكرم الخلق اختص بالشفاعة العظمى ، وهى شفاعته ﷺ فى فصل القضاء كما تقدم . وقوله « ما لى من ألوذ به سواك » أى ليس لى أحد ألتجئ إليه غيرك وقوله « عند حلول الحادث العمم » أى عند نزول الحادث العام ، أى الشامل لجميع الخلق ، والمراد بذلك الحادث هول يوم القيامة فإن كلاً من الرسل يقول حينئذ « نفسى نفسى » ويخبر بأن الله غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله ، ولا يغضب مثله بعده ، والنبى ﷺ يقول « أمتى أمتى » وقيل المراد بذلك الحادث : الموت .

(١٥٤) (قوله ولن يضيق رسول الله جاهك إلخ) أى بل هو رحب وأسع يسعنى ويسع كل عاص مثلى ، فجاء على بالشفاعة لتتقضى مما أستحقه من العقاب ، والمراد من الجاه القدر والمنزلة ، وهو مأخوذ من الوجاهة ، وهى رفعة القدر وسعة المرتبة ، ويقال رجل وجيه ، أى معروف مشهور بحسن الذكر وجودة الرأى ، وقوله « بى » أى عنى ، وقوله « إذا الكريم تحلى باسم منتقم » أى وذلك أعنى عدم ضيق جاهه ﷺ وقت كون المولى اتصف باسم هو منتقم « واتصافه بذلك عند انتقامه بالفعل من العصاة ، وذلك الوقت هو يوم القيامة . و « تحلى » بالهاء المهملة بمعنى اتصف ، وبالجيـم بمعنى انكشف ، والأول أصح رواية ، والثانى أصح دراية (١) ، وهذا الشرط لا مفهوم له فهو مفهوم موافقة لأن جاهه عليه الصلاة والسلام لا يضيق فى كل وقت ، =

(١) قوله « والأول أصح رواية ، والثانى أصح دراية » أراد أن الأول ثبت بالرواية التى هى أصح من رواية الثانى ، والثانى أصح عن طريق الدراية لأن التحلى (بالهاء) لا يكون بالانتقام ، والتجلى يكون بالغضب يوم القيامة حتى يتمنى الناس الانصراف من الموقف ولو إلى جهنم لما يرون من تجلى الجبار جل وعلا بالغضب حتى يؤذن بالشفاعة للنبى ﷺ فبإذن الله تعالى بالقضاء بين العباد ، والله تعالى أعلم .

فَإِنْ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضُرَّتْهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ (١٥٥)

= وقد قيل فى كلام الناظم إشكال كبير ، وقلق عسير ، أما الإشكال فلأنه يقتضى أن الكريم يتصف فى المستقبل بالانتقام ، لأن إذا للاستقبال ، مع أن صفاته تعالى قديمة لم تزل ولا تزال ، وأما القلق فلأن الإسم عند أهل السنة هو المسمى وحينئذ فيكون التقدير إذا اتصف المسمى الذى هو الكريم بالمسمى الذى هو الاسم ، وهو المسمى الذى هو المنتقم ، وهو فى غاية القلق ، وردُّ ذلك بأن كلام الناظم مبنى على طريق أبى الحسن الأشعرى ، وهو المرضى من مذهب أهل السنة ، وحاصله فى ذلك أن الكريم والمنتقم صفتان فعليتان : فالكريم من له الكرم ، والمنتقم من له الانتقام ، والصفة الفعلية عند الأشاعرة حادثة لأنه لا يرجع منها إلى الفاعل معنى قائم به ، ولذا قال أئمتنا : لا يتصف البارئ تعالى بكونه خالقاً فى الأزل إلا مجازاً ، ولا نسلم أن كل اسم عين المسمى ، بل من أسمائه تعالى ما هو غيره ، وهو كل ما دلت التسمية به على فعل كالحالقي ، وبذلك اندفع الإشكال والقلق فى كلام الناظم ، نعم يرد عليه أنه يوزن كلامه باجتماع صفتين متضادتين فى وقت واحد فى محل واحد ، فإن المراد بالكرم التجاوز عن الذنب ، أو ما يتضمن ذلك ، والمراد بالانتقام المؤاخذة بالذنب ولا يتأتى اجتماعهما فى الوقت الواحد فى المحل الواحد ! ويجاب بأن المراد بالكريم من شأنه الكرم والتجاوز عن الهفوات ، والمراد بالمنتقم من اتصف بالانتقام بالفعل ، فصفته تعالى حينئذ الانتقام والأخذ بالجرائم بالفعل ، وهذا لا ينافى أن شأنه تعالى الكرم والتجاوز عن الهفوات .

(١٥٥) (قوله فإن من جودك الدنيا إلخ) هذا البيت تعليل للبيت قبله ، فكأنه قال : وإنا كان جاهك يا رسول الله لا يضيق بى بل يسعنى وغيرى من العصاة ، لأن من جودك الدنيا إلخ ، ومن للتبويض ، والمراد من الدنيا ما قابل الأخرى ، ولذلك جعلها الناظم ضررتها ، وفى كلامه تقدير مضاك : أى خيرى الدنيا وضررتها التى هى الآخرة ، فمن خير الدنيا هدايته ﷺ للناس ، ومن خير الآخرة شفاعته ﷺ فيهم ، وقوله « ومن علومك علم اللوح والقلم » من جهة التعليل ، لكون جاهه ﷺ لا يضيق عنه ، لأنه لا شك أن العلم من أكبر أسباب عظم الجاه وعلوه ، ويجوز أن يكون مستأنفاً ، و « من » فى قوله و « من علومك » للتبويض أيضاً فهى للتبويض فى الموضوعين ، والمراد بعلومه ﷺ المعلومات التى أطلعه الله عليها ، فإنه تعالى أطلعه على علوم الأولين والآخرين (١)

(١) قال رسول الله ﷺ : « أتانى الليلة ربه - تبارك وتعالى - فى أحسن صورة فقال : يا محمد ، هل تدري فىم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفى حتى وجدت =

يَا نَفْسُ لَا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ إِنَّ الْكِبَائِرَ فِي الْغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ (١٥٦)

= والمراد بعلم اللوح والقلم : المعلومات التي كتبها القلم في اللوح بأمر الله تعالى فإنه ورد « أول ما خلق الله القلم ، فقال : له اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ، من مات على غير ذلك فليس مني » (١) أي ليس على طريقتي . واستشكل جعل علم اللوح والقلم بعض علومه ﷺ بأن من جملة علم اللوح والقلم الأمور الخمسة المذكورة في آخر سورة لقمان (*) ، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلمها ، لأن الله قد استأثر بعلمها ، فلا يتم التبعض المذكور ، وأجيب بعدم تسليم أن هذه الأمور الخمسة مما كتب القلم في اللوح وإلا لاطلع عليها من شأنه أن يطلع على اللوح كبعض الملائكة المقربين ، وعلى تسليم أنها مما كتب القلم في اللوح ، فالمراد أن بعض علومه ﷺ علم اللوح والقلم الذي يطلع عليه المخلوق ، فخرجت هذه الأمور الخمسة على أنه ﷺ لم يخرج من الدنيا إلا بعد أن أعلمه الله تعالى بهذه الأمور ، فإن قيل إذا كان علم اللوح والقلم بعض علومه ﷺ ، فما البعض الآخر ؟ أجيب بأن البعض الآخر هو ما أخبره الله عنه من أحوال الآخرة ، لأن القلم إنما كتب في اللوح ما هو كائن إلى يوم القيامة فقط ، كما تقدم في الحديث .

(١٥٦) (قوله يا نفس لا تقنطي إلخ) لما خاف الناظم على نفسه القنوط من رحمة الله تعالى ، بسبب شدة الخوف ، أقبل عليها يخاطبها بتحقيق رجائه ، ويؤنسها بعظم فضل ربه ، وأصل قوله « يانفس : يا نفسي » بالإضافة لياء المتكلم ، فحذفت ياء المتكلم ، ويجوز ضم السين وكسرها كما في قولك « يا عبيد » ، وقوله « لا تقنطي » أي لا تيأسى ، وهو بفتح النون على لغة كسرها في ماضيه ، ويكسرها =

= بردها بين ثديي فعلت ما في السماوات وما في الأرض » إلى آخر الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، وعبد الرزاق في جامعه ، والترمذي ، وعبد بن حميد ، وهو رؤيا منامية ، ورؤيا الأنبياء وحى ، والصورة هنا صورة تجلى ، لا أن الله تعالى تجسم في صورة - سبحانه وتعالى عن ما يتصف به الخلق . وتعالى أن يشبه شيئا أو أن يشبهه شيء ، والحديث صحيح .
(*) ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ .

(١) حديث « أول ما خلق الله القلم » ، رواه الإمام أحمد ، والترمذي وصححه ، ويجمع بينه وبين حديث « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور النبوي المحمدي والماء والعرش ، وقيل الأولية في كل شيء بالإضافة إلى جنسه أي أول ما خلق الله من الأنوار نوري ، وكذا باتيها « كذا في كشف الخفا ، وفيه بحث طيب فراجع إن شئت .

لَعَلَّ رَحْمَةً رَّبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعَصِيَانِ فِي الْقِسْمِ (١٥٧)

= وضمتها على لغة فتحها فيه ، وقوله « منزلة عظمت » أى من أجل زلة كبرت ، فـ « من » للتعليل ، ويحتمل أنها للتعدية لكن على تقدير مضاف ، والأصل : من غفران زلة عظمت . والزلة بفتح الزاى وتشديد اللام : الذنب ، وقوله « إن الكبائر فى الغفران كالللم » أى إن الذنوب العظام التى ارتكبتها أبتها النفس فى جانب الغفران ، أى بالنسبة له ، كصغار الذنوب ، فالكبائر هى الذنوب العظام ، والللم (بفتح اللام المشددة وفتح الميم أيضاً) : صغار الذنوب ، ومعلوم أنه تعالى يغفر الصغائر ، فكذلك الكبائر ، قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) وفى قول الناظم « إن الكبائر فى الغفران كالللم » رد على من زعم أن الكبائر ليست كالصغائر ، كالمعتزلة ، فإنهم يقولون بأن الكبائر لا تغفر ، بل مرتكبها يخلد فى النار لأنه ليس مؤمناً ولا كافراً فيقولون أنه منزلة بين المنزلتين ، ويعذب بعذاب أخف من عذاب الكافر ، والحق مذهب أهل السنة أن الكبائر كالصغائر فى الغفران ، وهو الموافق للقرآن (*) وللجنة ، وللدليل العقلى ؛ لأنه تعالى لا يجب عليه ثواب ولا يتحتم عليه عقاب ، فالثواب من فضله ، والعقاب من عدله ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون .

(١٥٧) (قوله لعل رحمة ربى إلخ) لما نهى الناظم نفسه عن القنوط كأنها قالت له : أنا لا أقنط لكن أخشى أن لا يكون حظى من الرحمة قدر ذنوبى التى ارتكبتها ، فأجابها بقوله « لعل رحمة ربى إلخ » أى أرجو أن تكون رحمة ربى تأتى فى القسم حين يقسمها بين العصاة على قدر عصيانهم ، فمن حمل من العصيان حملاً كبيراً كان ما يناله من الرحمة شيئاً كبيراً ، ومن حمل من العصيان حملاً صغيراً كان ما يناله من الرحمة شيئاً صغيراً ، والمراد الرحمة التى تنال العصاة لا الرحمة العامة التى تنال المطيع أيضاً ، فلا يقال إذا قسمت الرحمة بحسب العصيان : لم يبق للمطيع منها حظ ، فإن قيل كلام الناظم يقتضى أن من كانت ذنوبه أكثر كان ما يناله من الرحمة أعظم ، وكيف يصح ذلك ، مع أن من كانت ذنوبه أقل كان أقرب للرحمة وأقرب منه من كان طائعاً ؟! أجيب بأن الكلام فى الرحمة التى تنال العصيان ، =

(١) سورة النساء الآية : ٤٨

(*) قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

يا رَبِّ واجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ لَدَيْكَ واجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمٍ (١٥٨)

= وقسمها على هذا الوجه ممكن لجواز العفو عما عدا الشرك ، وأورد عليه أن مقتضى كلامه عدم دخول بعض عصاة المؤمنين النار ، مع أن المقرر في علم الكلام أنه لا بد من دخول طائفة منهم النار ، ثم يخرجون بشفاعته ﷺ (١) ، وأجيب أن الرحمة بالنسبة لهؤلاء هي الشفاعة العامة للإراحة من هول الموقف .

(١٥٨) (قوله يارب واجعل رجائي إلخ) لما اشتملت هذه القصيدة على أنواع التغزل وتوبيخ النفس ، والوعظ ، ومدحه ﷺ ، وذكر بعض معجزاته ، ومدح القرآن ، ومدح الصحابة ، وذم الكفار ، والإقرار بالذنب ، ختمها بالدعاء ، ثم بالصلاة على النبي ﷺ . وقوله : « يا رب » أصله يا ربى ، بالإضافة لياء المتكلم ، ثم حذف ياء المتكلم للتخفيف ، وقوله « واجعل رجائي » إلخ معطوف على محذوف ، والتقدير يا رب ارحمني ، واجعل رجائي للرحمة غير منعكس ، أى غير خائب ، بأن يحصل المرجو من عفوك عن ذنوبى كبائرها وصغائرها ، وقوله « لديك » أى عندك ، وهو ظرف لقوله اجعل ، أو لمنعكس ، وقوله « اجعل حسابى غير منخرم » أى اجعل ما حسبت ، أى ظننته من الجميل فيك ، وهو أن تُنيلنى من فضلك وكرامتك ما يليق بى غير ناقص ، بأن يحصل المحسوب ، أى المظنون ، تاماً كاملاً ، وفى كلامه الحذيف من الثانى لدلالة الأوّل ، أى غير منخرم لديك ، وفى الحديث حكاية عن الله تعالى « أنا عند ظنّ عبدي بى : إنّ خيراً فخير ، وإنّ شراً فشر » (٢) وقد قال من غلب عليه الرجاء :

وإنى لأرجو الله حتى كأنتى أرى بجميل اللطف ما الله صانع

وقسر بعضهم قوله « واجعل حسابى غير منخرم » بأن المعنى : واجعل تعداد الأمور الصادرة منك يا الله لى غير منقطع ، ونوقش بأنه يلزم عليه أن الناظم طلب أن لا ينقطع عذابه ، لأن من نوقش الحساب عُدّب ، فكيف بمن طال حسابه ؟ فكيف بمن دام حسابه ؟! ولو قال : واجعل تعداد الأمور الصادرة منك يا الله غير معوج ، بأن يكون مستقيماً لخلص من هذه المناقشة .

(١) قال ﷺ : يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ ، فيدخلون الجنة ويسمّون « الجهنميين » رواه البخارى وأحمد وأبو داود وغيرهم .

(٢) رواه الشيخان البخارى ومسلم ، والبيهقى وغيرهم .

والطفُ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَهُ صَبْرًا مَتَى تَدْعُهُ الْأَهْوَالُ يَنْهَزِمُ (١٥٩)
وَأَذَنْ لِسُحْبِ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ عَلَى النَّبِيِّ بِمَنْهَلٍ وَمُنْسَجِمٍ (١٦٠)
مَا رُنَحَتْ عَذَابَاتُ الْبَانِ رِيحُ صَبَاً وَأَطْرَبَ الْعِيسَ حَادَى الْعِيسِ بِالثُّغْمِ (١٦١)

(١٥٩) قوله « والطف بعبدك » إلخ هذا البيت من تمام الدعاء ، ومعنى الطف : أرفق ، إذ اللطف معناه الرفق ، وعنى بالعبد نفسه ، واختار الوصف بالعبودية لما فيها من غاية الذلة والخضوع ، وذلك مناسب لمقام الدعاء ، وقوله « فى الدارين » أى دارى الدنيا والآخرة ، أى فيما قدّرت عليه فيها ، ثم علل ذلك بقوله « إن له صبراً » أى إن لعبدك صبرا لا يثبت ، بل متى تدعه الأهوال ينهزم أمامها ، فيصير العبد بلا صبر فيهلك ، وباللطف يندفع الهلاك ، وقد امتثل الناظم فى هذا الدعاء لأمره ﷺ ، حين سمع رجلا يقول : « اللهم هبْ لى الصبر » فقال له « طلبت من الله البلاء ، فاطلب منه العاقبة » .

(١٦٠) قوله « وأذن لسحب صلاة » إلخ لا يخفى أن قوله ائذن فعل دعاء ، والإذن فى حقه تعالى بمعنى الإباحة ، واللام للتعدية ، والسحب : يسكون الحاء ، كما هو لغة فى السحب بضمها ، وإن جعله بعض الشارحين للتخفيف ، وهو جمع سحب الذى هو الغيم ، وإضافة سحب للصلاة من إضافة المشبه به للمشبه ، أى للصلاة الشبيهة بالسحب ، فى أن كلاً رحمة ، وقوله « منك » صفة للصلاة ، وقوله « دائمة » صفة أيضاً للصلاة ، ويحتمل أنه صفة لسحب ، وقوله « على النبى » أى صادرة على النبى المعبود ، وهو سيدنا محمد ﷺ ، والباء فى قوله « بمنهل ومنسجم » متعلقة بائذن ، فهى للتعدية ، وفى الكلام موصوف محذوف ، والتقدير بمطر منهل ، ومطر منسجم ، والمنهل : المنصب لشدة ، والمنسجم : السائل لعدم شدته .

(١٦١) قوله « ما رنحت عذبات البان » إلخ أى مدة ترنيح عذبات البان إلخ ، فـ « ما » مصدرية ظرفية والترنيح التميل ، وعذبات البان : أغصانه ، والبان : شجر معروف طيب الرائحة . وقوله « ريح صبا » بفتح الصاد ، فاعل برنحت ، والمراد بريح الصبا الريح الشرقية التى تهب صوب باب الكعبة ، وإنما سميت بذلك لأنها تصبو أى تميل إليها ، وتسمى قبولا بفتح القاف ، لأنها تقابل بهبوبها المشرق ، وأصول الرياح أربعة الأولى : الصبا ، وقد علمتها ، والثانية : الدبور ، وهى الريح الغربية ، التى تأتى من مغرب الشمس ، وإنما سميت بذلك لأن من استقبال المشرق =

= استدبرها ، والثالثة : الشمال ، بفتح الشين ، وهى الريح البحرية التى يُسار بها فى البحر على كل حال ، وإنما سميت بذلك لأنها عن شمال من استقبل المشرق ، والرابعة : الجنوب بفتح الجيم ، وهى الريح القبلية ، وعامة المصريين يعبرون عنها بالمريسى ، لأنها تهب من بلاد المرس ، وهم طائفة من السودان ، حسان الوجوه ، وكل ربح جاءت بين مهبى ريحين يقال لها النكباء ، سميت بذلك لأنها تكبت ، أى عدلت عن مهب تلك الرياح الأربعة ، وقد نظم الشيخ السجاعى حاصل ما تقدم بقوله :

أصول رياح أربع سَمَّ بالصبا	قبولا أتت من مطلع الشمس شرقيه
دَبورُ أتت من مغرب الشمس فاعلمنْ	لذا عند مصرَ سَمَّ ياصاح غريته
شمالاً تَجى مِنْ عَن شمالِ مشرقِ	يُسارُ بها فسى البحر تُدعى ببحريه
جنوباً تسمى بالمريسى نسبة	لبلدان سُودانٍ ، وتَنَمى لقبليه
وما بين ريحين تهب فسَمَّها	بنكباء تجرى كالأصول بلا مريه

وقوله « وأطرب العيس » إلخ أى ومدة إطراب العيس إلخ ، فهو معطوف على قوله « رنحت » ، والإطراب إحداث الطرب ، وهو خفة تنشأ عن سرور مقتضية للحركة والنشاط ، والعيس بكسر العين مناسبة لكون الباء بعدها ، وإن كان أصلها الضم ، وهى إبل بيض يخالطها شقرة أو حمرة شديدة ، وهى من كرام الإبل ويقال للذكر : أعيس ، وللأنثى : عيساء ، والمراد بحادى العيس : سائقها فهو من حاد يحدو إذا ساق الإبل ، وقوله « بالنغم » متعلق بأطرب ، والنغم بفتح النون : الصوت الحسن ، ولالإبل خاصية عظيمة فى حصول الطرب لها عند سماع صوت الحادى ، وكلما كان الصوت أحسن كان طربها أكثر ، حتى إنها لتقطع المسافة الكثيرة فى الزمن القليل ، بسبب ما يحصل لها من النشاط عند سماع الصوت الحسن ، ولا يخفى أن الترنيع والإطراب المذكورين ، لا ينقطعان ما بقيت الدنيا ، فلذلك أقيمت الصلاة ^(١) بهما ، =

(١) فى طبعة الوهبة « أقت الصلاة » . والترنح : التمايل يمينا وشمالاً ، والمطلوب من المؤذن : أن يتمايل يمينا وشمالاً مع بقاء صدره متجهها إلى الكعبة المشرفة ، والتطريب : الحركة والشوق .
ف قوله « فلذلك أقيمت الصلاة بهما » أى عند إقامة الصلاة يلتفت المقيم يمينا وشمالاً مع الحركة والشوق . والله تعالى أعلم .

= ويحتمل أنه أراد بذلك التأييد ، فكأنه قال دائما وأبدا ، وإنما خصّ البان والعيس ، لأنهما من مألوفات الأحبة ، وتخصيص ريح الصبا أظهر من ذلك ، لأنها تصبو إلى باب الكعبة التي هي أعظم مكان في البلد ، الذي هو مسقط رأس حبيبه ﷺ ، وقال بعضهم : يحتمل أنه أشار بالعذبات إلى عذبة النبي ﷺ لتمايلها بتمايله ﷺ عند سماعه المديح ، وأشار بالبان إلى ذاته الشريفة لطيب رائحتها ، كطيب رائحة البان ، بل أعظم ، وأشار بالعيس إلى أمته لطربهم عند سماع المديح ، كطرب العيس عند سماع صوت الحادى ، وأشار بالنغم إلى المديح ، وحاصل المعنى على هذا ما تمايلت عذبة النبي ﷺ عند سماع المديح ، وأطرب المادح أمته بمديحه ﷺ ، وفى هذا البيت والذي قبله براعة الختام وتسمى حسن المقطع وحسن الخاتمة ، وهى فى الشعر عبارة عن ختم القصيدة بأجود بيت يحسن السكوت عليه لأنه آخر ما يبقى فى الأسماع ، وربما حفظ دون غيره لقرب العهد به .

ويوجد فى بعض النسخ أبيات لم يشرح عليها أحد من الشارحين ، لكن لا بأس بها وهى :

وَعَنْ عَلَى وَعَنْ عَثْمَانَ ذَى الْكَرَمِ	ثُمَّ الرضا عن أبى بكرٍ وَعَنْ عُمَرَ
أَهْلُ التَّقَى وَالنُّقَا وَالْحَلَمِ وَالْكَرَمِ	وَالْأَلِ وَالصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِينَ قَهُمُ
وَإِغْفِرْ لَنَا مَا مَضَى يَا وَاسِعَ الْكَرَمِ	يَا رَبِّ بِالْمُصْطَفَى بَلَّغْ مَقاصِدَنَا
نَتْلُوهُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَفِي الْحَرَمِ	وَإِغْفِرْ إِلَهَى لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ بِمَا
وَأَسْمُهُ قَسَمٌ مِنْ أَعْظَمِ الْقَسَمِ	بِجَاهِ مَنْ يَبْتَغِيهِ فِى طَيْبَةِ حَرَمٍ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِى بَدْءٍ وَفِى خَتَمٍ	وَهَذِهِ بُرْدَةُ الْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمَتْ
فَرَّجْ بِهَا كَرَمَنَا يَا وَاسِعَ الْكَرَمِ	أَبْيَاتُهَا قَدْ أَتَتْ سِتِينَ مَع مِائَةٍ

* * *

القصيدۃ المضرّبة فی الصلاة علی خیر البریة

- يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍّ
وَصَلِّ رَبُّ عَلَى الْهَادِي وَشَيْعَتِهِ
وَجَاهِدُوا مَعَهُ فِي اللَّهِ وَاجْتَهِدُوا
وَبَيِّنُوا الْفُرْضَ وَالْمُسْتَوْنَ وَاعْتَصِبُوا
أَزْكَى صَلَاةٍ وَأَنَمَاهَا وَأَشْرَفَهَا
مَعْبُوقَةً بِعَبِيقِ الْمِسْكِ زَاكِئَةً
عَدُّ الْحَصَى وَالْثُرَى وَالرَّمْلَ يَتَّبِعُهَا
وَعَدُّ وَزْنِ مَثَاقِيلِ الْجِبَالِ كَمَا
وَعَدُّ مَا حَوَتْ الْأَشْجَارُ مِنْ وَرَقٍ
وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ وَالْأَسْمَاكِ مَعَ نَعْمٍ
وَالذُّرِّ وَالنَّمْلِ مَعَ جَمْعِ الْحُبُوبِ كَذَا
وَمَا أَحْصَا بِهِ الْعِلْمُ الْمُحِيطُ وَمَا
وَعَدُّ نِعْمَاتِكَ اللَّاتِي مَنَنْتَ بِهَا
وَعَدُّ مِقْدَارِهِ السَّامِي الَّذِي شَرُفَتْ
فِي كُلِّ طَرَفَةٍ عَيْنٍ يَطْرِقُونَ بِهَا
مِلءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مَعَ جَبَلٍ
مَا أُعْذِمَ اللَّهُ مُوجُودًا وَأَوْجَدَ مَعَهُ
تَسْتَعْرِقُ الْعَدُّ مَعَ جَمْعِ الدُّهُورِ كَمَا
- وَالْأَنْبِيَا وَجَمِيعِ الرُّسُلِ مَا ذُكِرُوا (١)
وَصَحْبِهِ مَنْ لَطِيَ الدِّينِ قَدْ نَشَرُوا (٢)
وَهَاجَرُوا وَلَهُ آوَا وَقَدْ نَصَرُوا (٣)
لِلَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ فَانْتَصَرُوا (٤)
يُعْطِرُ الْكَوْنَ مِنْهَا نَشْرُهَا الْعَطِرُ (٥)
مِنْ طَيْبِهَا أَرْجَ الرِّضْوَانِ يَنْتَشِرُ (٦)
نَجْمُ السَّمَاءِ وَتَبَاتِ الْأَرْضِ وَالْمَدْرُ (٧)
يَلِيهِ قَطْرُ جَمِيعِ الْمَاءِ وَالْمَطَرُ (٨)
وَكُلِّ حَرْفٍ غَدَا يُتْلَى وَيُسْتَطَرُ (٩)
يَلِيهِمُ الْجِنُّ وَالْأَمْثَلُ وَالْبَشَرُ (١٠)
وَالشَّعْرُ وَالصُّوفُ وَالْأُرْيَاشُ وَالْوَبْرُ (١١)
جَرَى بِهِ الْقَلَمُ الْمَأْمُورُ وَالْقَدْرُ (١٢)
عَلَى الْخَلَائِقِ مَذْكَائُوا وَمَذْ حُشِرُوا (١٣)
بِهِ النَّبِيُّونَ وَالْأَمْثَلُكَ وَافْتَحَرُوا (١٤)
وَمَا يَكُونُ إِلَّا أَنْ تُبْعَثَ الصُّورُ (١٥)
أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ أَوْ يَذَرُوا (١٦)
وَالْفَرْشِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَمَا حَصَرُوا (١٧)
سُدُّوهُمَا صَلَاةً دَوَامًا لَيْسَ تَنْحَصِرُ (١٨)
تُحِيطُ بِالْحَدِّ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ (١٩)

وَلَا لَهَا أَمَدٌ يُقْضَىٰ فَيُعْتَبَرُ (٢٠)
 مَعَ ضِعْفِ أَضْعَافِ مَا قَدْ مَرَّ مِنْ عَدَدِ (٢١)
 أَمَرْتَنَا أَنْ نُصَلِّيَ أَنْتَ مُقْتَدِرُ (٢٢)
 رَبِّي وَضَاعِفُهُمَا وَالْفَضْلُ مُنْتَشِرُ (٢٣)
 أَنْفَاسِ خَلْقِكَ إِنْ قُلُّوا وَإِنْ كَثُرُوا (٢٤)
 وَالْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا أَيْنَمَا حَضَرُوا (٢٥)
 وَكُلُّنَا سَيِّدِي لِلْعَفْوِ مُقْتَدِرُ (٢٦)
 لَكِنْ عَفْوُكَ لَا يَبْقَى وَلَا يَذَرُ (٢٧)
 وَقَدْ أَتَى خَاضِعًا وَالْقَلْبُ مُنْكَسِرُ (٢٨)
 بِجَاهِ مَنْ فِي يَدَيْهِ سَبَّحَ الْحَجَرُ (٢٩)
 فَإِنْ جُودَكَ بِحَسْرٍ لَيْسَ يَنْتَحَصِرُ (٣٠)
 وَقَرِّجِ الْكَزْبَ عَنَّا أَنْتَ مُقْتَدِرُ (١)
 لُطْفًا جَمِيلًا بِهِ الْأَهْوَالُ تَنْتَحَصِرُ (٢)
 جَلَالَةً نَزَلَتْ فِي مَدْحِهِ السُّورُ (٣)
 شَمْسُ النَّهَارِ وَمَا قَدْ شَعَّشَعَ الْقَمَرُ (٤)
 مَنْ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ لِلدِّينِ يَنْتَحَصِرُ (٥)
 مَنْ قَوْلُهُ الْفَصْلُ فِي أَحْكَامِهِ عُمَرُ (٦)
 لَهُ الْمَحَاسِنُ فِي الدَّارَيْنِ وَالظَّفَرُ (٧)
 أَهْلُ الْعِبَاءِ كَمَا قَدْ جَاءَنَا الْخَبَرُ (٨)
 عَبِيدَةٌ وَزَيَّيْرُ سَادَةٍ غُرَرُ (٩)
 وَتَجَلُّهُ الْحَبْرُ مَنْ زَالَتْ بِهِ الْغَيْرُ (١٠)
 مَا جُنَّ لَيْلُ الدِّيَابِجِ أَوْ بَدَأَ السَّحَرُ (١)

لَا غَايَةَ وَأَنْتَهَاءَ يَا عَظِيمُ لَهَا
 وَعَدَدٌ أَضْعَافُ مَا قَدْ مَرَّ مِنْ عَدَدِ
 كَمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى سَيِّدِي وَكَمَا
 مَعَ السَّلَامِ كَمَا قَدْ مَرَّ مِنْ عَدَدِ
 وَكُلُّ ذَلِكَ مَضْرُوبٌ بِحَقِّكَ فِي
 يَا رَبِّ وَاعْفِرْ لِقَارِبِهَا وَسَامِعِهَا
 وَوَالِدَيْنَا وَأَهْلَيْنَا وَجِيرَتَنَا
 وَقَدْ أَتَيْتُ ذُنُوبًا لَا عِذَادَ لَهَا
 وَالْهَمُّ عَنْ كُلِّ مَا أَبْغِيهِ أَشْغَلْنِي
 أَرْجُوكَ يَا رَبِّ فِي الدَّارَيْنِ تَرْحَمْنَا
 يَا رَبِّ أَعْظَمْ لَنَا أَجْرًا وَمَغْفِرَةً
 وَأَقْضِ دُيُونَنَا لَهَا الْأَخْلَاقُ ضَائِقَةٌ
 وَكُنْ لَطِيفًا بِنَا فِي كُلِّ نَازِلَةٍ
 بِالصُّلْطَانِ الْمُجْتَبَى خَيْرِ الْأَنْامِ وَمَنْ
 ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مَا طَلَعَتْ
 ثُمَّ الرِّضَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَتِهِ
 وَعَنْ أَبِي حَفْصٍ الْفَارُوقِ صَاحِبِهِ
 وَجُدْ لِعُثْمَانَ ذِي النُّورَيْنِ مَنْ كَمَلَتْ
 كَذَا عَلَى مَعَ ابْنَتِهِ وَأَمَمِهَا
 سَعْدُ سَعِيدُ بْنُ عَوْفٍ طَلْحَةُ وَأَبُو
 وَحَمْرَةَ وَكَذَا الْعَبَّاسُ سَيِّدُنَا
 وَالْأَلُّ وَالصُّحْبُ وَالْأَتْبَاعُ قَاطِبَةٌ

التصيدة المحمدية للإمام البوصيري

- | | |
|---|---|
| مُحَمَّدٌ أَشْرَفُ الْأَعْرَابِ وَالْعَجَمِ | مُحَمَّدٌ خَيْرٌ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمٍ (١) |
| مُحَمَّدٌ بَاسِطُ الْمَعْرُوفِ جَامِعُهُ | مُحَمَّدٌ صَاحِبُ الْإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ (٢) |
| مُحَمَّدٌ تَاجُ رُسُلِ اللَّهِ قَاطِبُهُ | مُحَمَّدٌ صَادِقُ الْأَقْوَالِ وَالْكَلِمِ (٣) |
| مُحَمَّدٌ ثَابِتُ الْمِيثَاقِ حَافِظُهُ | مُحَمَّدٌ طَيِّبُ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيَمِ (٤) |
| مُحَمَّدٌ رُوِيَ بِالْثُورِ طِينَتُهُ | مُحَمَّدٌ لَمْ يَزَلْ نُورًا مِنَ الْقَدَمِ (٥) |
| مُحَمَّدٌ حَاكِمٌ بِالْعَدْلِ ذُو شَرَفٍ | مُحَمَّدٌ مَعْدِنُ الْإِنْعَامِ وَالْحَكَمِ (٦) |
| مُحَمَّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ مُضَرٍ | مُحَمَّدٌ خَيْرُ رُسُلِ اللَّهِ كُلِّهِمْ (٧) |
| مُحَمَّدٌ دِينُهُ حَقٌّ تَدِينُ بِهِ | مُحَمَّدٌ مُجْمَلٌ حَقًّا عَلَى عِلْمِ (٨) |
| مُحَمَّدٌ ذِكْرُهُ رَوْحٌ لَا تُفْسِنَا | مُحَمَّدٌ شُكْرُهُ قَرْضٌ عَلَى الْأَمَمِ (٩) |
| مُحَمَّدٌ زِينَةُ الدُّنْيَا وَبَهْجَتُهَا | مُحَمَّدٌ كَاشِفُ الْغُمَاتِ وَالظُّلَمِ (١٠) |
| مُحَمَّدٌ سَيِّدُ طَابَتِ مَنَاقِبُهُ | مُحَمَّدٌ صَاغَهُ الرَّحْمَنُ بِالنَّعَمِ (١١) |
| مُحَمَّدٌ صَفْوَةُ الْبَارِي وَخَيْرَتُهُ | مُحَمَّدٌ طَاهِرٌ مِنْ سَائِرِ التُّهَمِ (١٢) |
| مُحَمَّدٌ ضَاحِكٌ لِلضَّيْفِ مُكْرِمُهُ | مُحَمَّدٌ جَارُهُ وَاللَّهُ لَمْ يُضْمِ (١٣) |
| مُحَمَّدٌ طَابَتِ الدُّنْيَا بِيَعْتَتِهِ | مُحَمَّدٌ جَاءَ بِالْآيَاتِ وَالْحَكَمِ (١٤) |
| مُحَمَّدٌ يَوْمَ بَعَثَ النَّاسَ شَافِعُنَا | مُحَمَّدٌ نُورُهُ الْهَادِي مِنَ الظُّلَمِ (١٥) |
| مُحَمَّدٌ قَائِمٌ لِلَّهِ ذُو هِمَمٍ | مُحَمَّدٌ خَاتَمُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ (١٦) |

بحمد الله قد تم الفراغ من طباعة هذا الكتاب بإشراف مكتبة الآداب (ورثة المرحوم
على حسن) عن نسخة الكتبخانة الكستلية التي راجعها المغفور له الشيخ محمد
السملوطنى ١٢٩١ هـ . ونسخة المطبعة الوهيبية ١٢٨٢ هـ التي قابلها المغفور لها
مصطفى وهبى على نسخة المؤلف . فقمنا بإعادة تصحيحها وضبط الأبيات ووضع
علامات الترقيم ، وإضافة تعليقات الشيخ عبد الرحمن حسن محمود . وكان الفراغ
من طبعتها فى العشرين من جمادى الآخرة عام ١٤١١ هـ - فى مطالع عام ١٩٩١ م
وكافة حقوق طبعتها محفوظة لمكتبة الآداب (على حسن) ٤٢ ميدان الأوبرا .

رقم الإيداع ٩١ / ١٥٤٩

الترقيم الدولي 6 — 020 — 241 — 977 I. S. B. N

كتب أخرى صدرت عن مكتبة الآداب

- الإعراب الكامل لآيات القرآن الكريم للأستاذ الدكتور عبد الجواد الطيب صدر منه أربعة عشر كتاباً إجمالى ثمنها ٦٠ ستون جنيها .
- قواعد الإملاء للأستاذ الدكتور عبد الجواد الطيب : جنيها .
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للقرزوينى شرح عبد المتعال الصعدي أربعة أجزاء ثمن كل جزء ٤,٥ جنيها .
- الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين جزآن الأول : ٧ جنيها ، الثانى ٩ جنيها .
- المصباح فى المعانى والبيان والبديع لابن الناظم بدر الدين بن مالك تحقيق د. حسنى عبد الجليل يوسف ٦,٥ جنيها .
- موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى للعلامة الدكتور محمود رزق سليم ثمانية أجزاء ، ثمن كل جزء ١٧,٥ جنيها .
- موسوعة الأمثال القرآنية للدكتور محمد عبد الوهاب عبد اللطيف جزآن ثمن كل جزء ١٥ خمسة عشر جنيها .
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام شرح وتحقيق عبد المتعال الصعدي الثمن ٨ ثمانية جنيها .
- النموذج فى النحو للعلامة الزمخشري شرح وتحقيق د. حسنى عبد الجليل يوسف الثمن ٧ سبعة جنيها .
- شذا العرف فى فن الصرف للشيخ أحمد الحمالوى تحقيق د. حسنى عبد الجليل يوسف : ٦ ستة جنيها .
- الصداقة والصدى لأبى حيان التوحيدى شرح على متولى صلاح : ١٥ جنيها .
- النظم الفنى فى القرآن تأليف عبد المتعال الصعدي : ٦ جنيها .
- الأدب المفرد للإمام البخارى تحقيق عبد الرحمن حسن محمود : ٨ جنيها .
- نهج البردة لأمير الشعراء أحمد شوقى شرح الشيخ سليم البشرى ١٧٥ قرشا .
- الإكسير فى علم التفسير للإمام الطوفى تحقيق د. عبد القادر حسين : ١٥ جنيها .
- الممكنون فى مناقب ذى النون للسيوطى تحقيق عبد الرحمن حسن : ٦ جنيها .
- سيرة الإمامين الليث والشافعى لابن حجر العسقلانى : ٤٠٠ قرشا .
- نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز (السيرة النبوية) للشيخ رفاعه الطهطاوى ثلاثة أجزاء الأول : ٤ جنيها ، الثانى : ٥ جنيها ، الثالث : ٧ جنيها .